حسن نجيلة

ذكرياتي في البادية



منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

حسن نجيلة

ذكرياتي في البادية



حسن نجيلة

ذكرياتي في البادية

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

دفعني الى تسجيل هـــذه الذكريات عن بادية الكبابيش أمران ، أولهما — وهو الاهم ، يقيني بأن هذه الحياة البدوية الرعوية آخذة في الانقراض . فالاتجاه السائد الآن ان يستقر البدو وأن تقام لهم المصانع التي تمكنهم من الاستفادة من ثروتهم الحيوانية من لحوم وألبان ووبر ، ولا بد ان يتم هذا على نحو ما ... وقد أتيح لي ان ازور بادية الكبابيش عام ١٩٥٢ فوجدت ان معالم حياتهم التي عرفتها آخذة في التغيّر ، وقد أطلت بوادر حيـاة مدنية جديدة ممثلة في هذه السيارات التي رأيتها أمام خيام ناظر القبيلة وبعض أهله فلم يعودوا يقطعون الفلوات كآبائهم على ظهور الجمال .

ووجدت في بعض بيوت الشَّعر — التي لم تتغير صورتها عما عهدت — « الراديو » يحتل مكانه يربط بينهم وبين انباء العالم المختلفة وينشر الوعي بينهم ، وتذكرت كيف كان البريد من سودري لا يصلني في البادية إلا بعـد مدة طويـــلة ، وكنت الوحيد في البادية كلها الذي يقرأ الصحف ويحتكر معرفة ما بينها من انباء !

ومن هنا عنيت بتسجيل هذه المذكرات عن هذه الحياة البدوية الرعوية الآيلة للزوال عساني بهذا أهدي مرجعاً قد يكون مفيداً في المستقبل لمن ينقب من احفادنا عن تاريخ وتطور الحياة الاجتماعية في بلادنا .

والامر الثاني ، أن أهدي أبناءنا في هذا العهد صورة من الحياة الشاقة المرة التي عاشها جيلنا لعلها تكون حافزاً جديداً لهم وهم يستقبلون عهداً يضع على عواتقهم مسؤوليات جساماً ، هي مسؤوليات بناء هـذا الوطن الذي صار خالصاً لهم .

ولهذا ، ولكي أعطي هذا الجانب حقه – أعني تصوير الجو الذي كان يعمل فيه جيلنا – تعرضت للحديث عن بعض الاداريين الانجليز الذين التقيت بهم في تلك الفترة ...

وفي الكتاب، لمحات وطنية وأدبية جاءت منساقة مع جو الذكريات عن البادية، لقد بذلت ما استطعت من جهد لأقدم في هذا الكتاب مـا يحقق دوافعه ، والله الموفق .

إلى سودري

في اول يناير عام ١٩٣١ تخرجت في مدرسة العرفاء وعينت مدرساً بمدرسة سنجة الاولية وما كاد يمضي علي في التدريس شهر واحد حتى استدعيت الى مكتب مفتش مركز سنجة وكان يسمى (مكلارين) وكان هذا الاستدعاء بالنسبة لي – كموظف صغير – حدثاً مثيراً ولقيني الرجل ببشاشة ، وسألني عما اذا كنت أعرف الشيخ السير علي التوم ناظر عموم الكبابيش ؟ فأجبت بأني سمعت به ولكني لم أره، وكان مكلارين هذا قد عمل لفترة مفتشاً لدار الكبابيش، فأفاض في الحديث عن الشيخ علي وأثنى عليه ثناء عاطراً ، ثم فاجأني قائلاً : لقد اتفقت الحكومة مع الشيخ علي لتوفد اليه مدرساً لتعليم أبنائه ، ووقع الاختيار عليك، ولما كانت هذه المهمة لا تخلو من عسر ومشقة فقد رأت (المعارف) ألا ترسلك الى هناك إلا بموافقتك . وأنا أتركك الآن لتعود الي في الغد برأيك الأخير .. ثم حدثني عن حياة البادية حديث الخبير بها ، وصارحني بأني سألقى الكثير من الصعاب وأني سأعيش في (خيمة) وسأكون بعيداً عن كل ما في المدن من ألوان الحياة ، وان الغذاء الذي اعتدته هنا لن أجده في البادية ، واني سأكون متنقلاً بخيمتي مع العرب كلما انتقلوا من مكان لآخر .

وعدت الى أهلي وأصدقائي أستشيرهم ، ورأيت اكثرهم يأبى علي ان اقبل العمل في هذا الجو البدوي الذي لا اعرفه ولا يلائمني على حد تعبيرهم . ولكني استخرت الله وقبلت – وجاءت برقيـة من الخرطوم تطلب الي السفر عاجلاً للعاصمة ، وهناك سمعت من المسئولين احاديث كثيرة عن الشيخ علي التوم ،كانت كلها تتفق في ان الرجل (شيخ عرب) جليل القدر ، شهم كريم وكلها تحرص على ان استرضيه جهدي حتى لا يرفض بقاء المدرسة في حيه البدوي ، ووضح لي ان الرجل لم يكن راضياً كل الرضا على فكرة المدرسة .

ووصلت الابيض حيث قدمت نفسي للمسئولين هناك ووجدت المستر « لي » مفتش دار الكبابيش على علم بموعد وصولي ، وقد ارسل لي سيارة بالمحطة لتقلني اليه حال وصولي واتفقنا على موعد مغادرتنا للابيض بالسيارات حتى مركز سودري ، وهو المركز الرئيسي لقبيلة الكبابيش ، ولقبائل الكواهلة والهواوير والكاجا والجانين .

ولست انسى اول رحلة لي بالسيارات من الابيض ، اذ ما كدنا نخلف الابيض وراءنا ونوغل في السير حتى تبدى لي عالم جديد ، وراعتني مناظر الطبيعة التي لم أرَ لها مثيلا من قبل ، فقد انبسط امامي سهل اخضر تتخلله احياناً اغوار ونجود وتلال وجبال تختلف عرضاً وطولاً ، وتطالعنا احياناً اشجار ضخمة باسقة ، واخرى لا تكاد ترتفع عن الارض الا قليلا ، وصيد يتراءى من بعيد يرعى وادعاً ، حتى اذا ما احس بدوي العربة نفر وعدا يسابق الريح بعيداً عنا ، وفي منظره وهو يرعى آمناً ، وهو يعدو مذعوراً جمال وروعة تبهج النفس .. وقد يفاجئنا ذئب او ضبع او ابن آوى ، لكنه سرعان ما يختفي هارباً بمجرد اقتراب السيارة منه .

ويبدو ان كل الوحوش هناك مروعة من الصائدين . فان أهل كردفان عامة

مولعون بالصيد والقنص ولهم في ذلك طرق شتى برعوا فيها كل البراعة وتبلغ حد الاعجاز احياناً .

وفي منتصف الطريق بين الابيض وسودري وقفت بنا السيارة عند بضع قطاطي من القش وهي الاستراحة التي خصصت للموظفين الذين يمرون بهذه النقطة ، وعلى بعد منها كانت هناك قطاطي متناثرة في غير نظام ، الا ان المنطقة كلها رائعة المنظر الطبيعي ، وعلمت انها قرية « المزروب » — وفي هذا المكان جاءنا شيخ مهيب المنظر يتبعه عدد من الرجال وسلم على المفتش الذي قدمني له بوصفي مدرس ابناء السير علي التوم ، وعرفني به .. الشيخ جمعه سهل ناظر قبيلة المجانين — وتلك اول مرة في حياتي اسمع فيها باسم هذه القبيلة ، وكنت في مستهل الشباب وأوشكت ان أفسد الموقف بسؤال سخيف !

وسلم علي الشيخ جمعه في حرارة وسألني عن موطني واهلي وكنا وحدنا داخل القطية — المستر لي وهو وانا .. واذكر ان مد يده الى جيبه وأخرج اوراقاً لا أعرف ما بها ومدها الي قائلاً أرجو ان تسلمها لجناب المفتش عند وصولكما لسودري — وقبل ان أرد عليه ، امتدت يد المستر لي في سرعة خاطفة الى الأوراق وتناولها ، ثم نظر الي كمن يقول : عن اذنك ! وأحسست بأن الموقف لا يحتمل وجودي فخرجت من القطية الى اخرى مجاورة كان فيها جنود البوليس الذين كانوا يرافقون المفتش في هذه الرحلة ، ويركبون العربة من الخلف وقد جرت العادة الا يسافر المفتشون او الموظفون البريطانيون عامة وحدهم سواء على الجمال او العربات اذ لا بد من ان يرافقهم عدد من البوليس المسلح . وانطلقت العربة من المزروب صوب سودري بعد ان ودعنا الشيخ جمعه سهل ناظر قبيلة المجانين الذي توثقت صلتي به فيما بعد اذ التقيت به اكثر من مرة في مركز سودري وخلال رحلاتي بين البادية والابيض وهو رجل على حظ من علم الفقه ويزعم انه ذو بصر بعلم الفلك وفي الواقع انه كاكثر حذاق البادية يعرفون ما يسمى - بالمنازل — من علم النجوم ، وعن

طريقها يعرفون تقلبات الجو في الصيف وفي الشتاء وعلى وجه خاص فصل الخريف ، متى يبدأ ومتى ينتهي وفي أي من هذه المنازل تنزل الامطـــار غزيرة ، وفي أيها تشح . ولكن الشيخ جمعه يذهب الى اكثر من هذا فيما يزعمه من معرفة بالأفلاك التي كان يكثر من التحدث عنها في مجالسه معنا وهو في جملته رجل بسيط المظهر متدين .

بلغنا مركز سودري بعد مسيرة اكثر من ساعة بالسيارة في تـلال رملية مرهقة انستني روعة الطريق وسخاء الطبيعة ما بين الابيض والمزروب ..

وسودري قرية صغيرة كل منازلها من قطاطي القش حتى المركز وبيوت الموظفين اعدت سقوفها من القش وهي تقع في مرتفع لطيف تحيط بها من كل الجوانب سلاسل من الجبال العالية تكسب منظرها الطبيعي روعة وفتنة ـ ونزل المفتش في داره وانطلقت بي السيارة الى دار مأمور المركز السيد عبد الرحمن العاقب الذي رحب بي واكرم وفادتي تكريماً لا انساه ما حييت وفي داره وجدت مكتبة عامرة اذ كان السيد عبد الرحمن كثير الاطلاع غزير المعلومات الا انه قل ان يناظر بها أو يباهي بعرضها خلال احاديثه ، وقد وجدت في هذه المكتبة مادة خصبة لملء الفراغ الذي كنت احس به كلما ذهب الموظفون الى مكاتبهم وبقيت وحيداً .. نسيت أن اقول ان عدد الموظفين في المركز كان اربعة فقط ، هم المأمور والمترجم (ومحاسب وصراف) ومساعد الحكيم ، واذكر أنهم اجتهدوا لكي ينتفعوا بوقت فراغهم فانشأوا ميـداناً للتنس ، وكان المفتش الانجليزي ـ صاحب هذه الفكرة ـ يلح على جمعهم في هذا الميدان ليشبع هوايته في هـــذه اللعبة ، وقد دار بيني وبينه ذات مرة نقاش بيزنطي ، وانا عائد من الكبابيش في احدى اجازاتي ، وكان مدار الحديث ، متى يتعلم فتية الكبابيش رياضة التنس ؟

وكانت لعبة التنس هي الرياضة المفضلة في ذلك العهد ، نشرها الموظفون البريطانيون وحثوا الموظفين السودانيين عليها وقد برع فيها واشتهر عدد منهم .

اعود الى سودري عند اول وصولي اليها فقد هالني باديء بدء كثرة الغربان فيهـا كثرة غير معهودة ، ولا بد من ان تكون أول ما يلفت نظر الزائر فأينما التفت ترى جيوشاً منها على الارض والاشجار ورؤوس المنازل وسابحة في الفضاء وأصواتها الناعبة لا تنقطع عن أذنيك، ولقد قر في أذهاننا منذ عهد بعيد التشاؤم من الغربان ، الا ان سودري علمتني التفاؤل بها إذ صارت جزءاً هاماً من حياتنـا اليومية المألوفة ويخيل الي أنها أضعاف أضعاف عدد النـــاس هناك ، والعجيب انها تكاد لا تهاب النـــاس او تخشاهم على ما عرف عن الغراب من فرط الحذر — فقد جاء في الأمثال أن الغراب أوصى ابنه قائلاً : اعلم يا بني ، ان الله خلق ابن آدم مستقيم العود سوياً ، فان رأيته يبدأ في الانحناء فاعلم أن وراء ذلك شراً — فلا تنتظره وطر مسرعاً !. ولكن غربان سودري — لم يوصها أبوها بهذا ، فانك تقترب منها حتى تكاد تمسها قدماك ، فتطير وتهبط قريباً منك كأنها لا يعنيهـا من أمرك شيء ، لقد صارت أشبه بحمام مكة . مع الفـــارق العظيم بين مكة وسودري ، والحمام والغراب !.

وفي سودري سوق لا تعدو متاجره أصابع اليدين وكل تجـــاره من الذين اصطلحنا على تسميتهم « بالجلابة » النازحين الى تلك المناطق النـائية — وتقوم متاجر السوق جميعهـا في صف واحد وهي من الطين الاخضر الا متجراً واحداً يقف في صف وحده لتـــاجر يوناني يسمى — لوانيدا — .. ولا بد من ان تجد تاجراً يونانياً أينما كان هناك سوق ، والحق يقال ان لوانيدا هذا ، كان تاجراً مرحاً طلق اللسان في تحدثه بالعربية يفيض ذكاء وحيوية ..

وللسوق في سودري يومان تزدهر فيهما — الاثنين والجمعة — ويكاد يكون هذا طابع أكثر الأسواق الصغيرة في السودان — اذ يقدم اليـه أهل القرى المجاورة بحاجـاتهم التي يريدون بيعها وشراء ما هم في حاجة اليه ، وتتوسط السوق أشجار ضخمة وارفة الظلال يجلس تحتها في هذين اليومين باعة الحاجات الذين وفدوا من القرى .. وقد هالني أول مرة أزور فيهـا السوق ان رأيت

تحت ظلال الاشجار مقادير ضخمة من « المريسة » تباع للغـــادين والرائحين وتكاد تكون هي السلعة الوحيدة التي يتكالب عليها رواد السوق ..

ولم أكن قد ألفت هذا المنظر من قبل ثم عرفت ان المريسة هنا طعـام يغني عن الوجبات الاخرى اكثر منها للسكر ، فهي تشبع وتروي وتسكر لمن يفرط في شربها .

أذكر في مستهل الثلاثينيات ان كان طبيب بريطاني يقوم باجراء ابحـاث عن مرض الكلازار وقد اتخذ منطقة الفونج ميداناً لدراسته حيث كان يتفشى هذا المرض في بعض انحائها ، وكان يعاونه الدكتور منصور علي حسيب الذي نقل الى مستشفى سنجة اول عهده بالعمل .. ثم جاء من بعده الدكتور محمـد حمد ساتي واستمر يواصل التجـــارب مع الطبيب البريطاني المذكور . وقد لاحظت وقد قضيت فترة في المستشفى أعاني من الملاريا التي قل ان يسلم منها احد في هذه المنطقة آنذاك .

ان الطبيب البريطاني الذي يشرف على بحث مرض الكلازار قد أمر باعطاء المريسة كغذاء للمصابين بهذا المرض بل لعله ، ان لم تخني الذاكرة – قد أمر بتعميمها لكل مرضى الدرجة الثالثة مؤكداً انها غذاء جيد يفيد مرضى الكلازار خاصة .

ومهما يكن من امر الطب من تحديد مدى الغذاء الذي تمده المريسة لشاربيها فان سكان هذه المناطق أدركوا هذا بالسليقة وتوصلوا اليه من تجاربهم الخاصة ولهذا فان – يوم السوق – يتميز عن سائر الايام بهذه الجرار من المريسة التي تتفاوت ضخامة ، يعب منها الشاربون في لذة ونهم .. وأحسبها ما تزال حتى الآن تحتل مكانها المرموق تحت ظلال تلك الاشجار الضخمة الباسقة يستظلون بها نهارهم ، حتى اذا جاء المساء وفرغت الدنان ، عادت بها بائعاتها منتشيات

بما حصلن عليه من ربح وفير في ذلك اليوم ، وعاد الكثيرون من شاربيها وهم أكثر نشوة وشبعاً وريا !.

ان سكان منطقة سودري ينتسبون إلى قبائل – الكاجا – ويقولون انهم « بديرية دهمشية » .. وأحسب أن لهم صلة بالنوبـة . والحديث عن أصولهم وتاريخهم معقد ولا تتضح فيه حقيقة يمكن الركون اليها نهائياً ، وهم يتحدثون العربية في لهجة ينفردون بها مع عبث ببعض الحروف يتعذر عليهم النطق بها ، فهم يخلطون مثلاً بين العين والألف فيضعون كلاً منهما مكان الآخر وكذلك يفعلون بحرفي الخاء والحاء ، ويغلب عليهم سواد اللون – وفي عاداتهم اختلاف واضح عن العرب من حولهم وهم يعيشون في حرية اجتماعية واختلاط كامل ، فلا تعرف نساؤهم الحجاب .

في ذلك العهد كان ناظرهم الشيخ النعمة سوركتي وهو رجل سهل الطبـاع ، والغريب انه لا ينتمي الى قبيلة الكاجا ، بل الى قبيلة الدواليب التي تعتبر فرعاً من قبيلة الركابية ، وللدواليب في مركز بارا مكانة دينية مرموقة . وقـد توفي الناظر النعمة سوركتي ناظر قبائل الكاجا ، ولم تجد الحكومة آنذاك من افراد أسرته من يخلفه ، فضمت نظارته للمرحوم الشيخ علي التوم ناظر الكبابيش ، وبهذا اتسعت رقعة نفوذ الكبابيش في تلك المنطقة .

والليل المقمر في سودري سحر آسر كم أقض مضجعي وتركني ساهراً أتأمل الرمال البيضاء والجبال العالية من كل جانب ، ويحمل اليّ النسيم من بعيـد اصوات فتيات الكاجا يغنين ويرقصن حتى مطلع الفجر ، والفتيـة من حولهن يرقصون معهن ، ان اكثر من حلقة رقص ينبعث منها الغناء شجيـاً طوال ساعات الليل .. ولكننا لا ندنو منها ، انها ليست كحلقات البدويات العربيات تحيط بها تقاليد أصيلة تمنع الشغب والتعدي وتبيح اللهو الحلال .. بل كثيراً ما تنتهي حلقات الرقص عند الكاجا بالشغب او الترصد للاعتداء لما يثيره تنافس الشبان حول الفتيات الحسان ولمـا في حياتهم الاجتماعية من حرية تدنيهم من الاباحية .

الى حمره الشيخ

الجمال ترقل بنا إرقالاً ونحن نغادر مدينة سودري الصغيرة متجهين غرباً صوب بادية الكبابيش وقد ودعنا الرفاق في تلك المدينة الصغيرة التي ترقد على سفوح سلسلة من الجبال تحيط بها من كل جانب وقد ساروا معنا على خيولهم ومطاياهم موظفين وتجاراً كعادتهم دائماً كلما غادر مدينتهم الوادعة واحد منهم، او ضيف من ضيوفهم — وقد التأم الموظفون والتجار في هذه المدينة في حلقة واحدة وفي مودة صادقة ، والفة محببة ربما كان مصدرها أنهم كلهم من النازحين الى هذا المكان،من جاء يسعى للرزق تاجراً ، او جاءت به الوظيفة بالرغم منه، وقد كان في مقدمة ركب المودعين السيد عبد الرحمن العاقب مأمور المركز والذي لن أنسى أفضاله وتوجيهاته السديدة لي وانا ادخل تلك التجربة العنيفة على صغر السن وحداثة العهد بالوظيفة .

وتوقف ركب المودعين بعد ان ساروا معنا شوطاً طويلا ، وترجلنا جميعاً لكي نودع بعضنا بعضاً ، ثم امتطينا ركائبنا ، وانطلقوا هم شرقاً صوب مدينة سودري وانطلقنا نحن غرباً الى « حمرة الشيخ » زعيم البادية الشيخ السير علي التوم .

وكان ركبنا – أو على الاصح – ركب مفتش المركز المستر لي الحاكم بأمره في تلك المنطقة – يتكون من ثمانية من جنود البوليس المدججين بأسلحتهم ، وكان اثنان منهم يتقدمان الركب يحملان علمي الحكم الثنائي يرفعانها امامنا كلما شارفنا حياً بدوياً او قرية من القرى او جماعة من المسافرين او الرعاة على قلة ذلك في هذا الطريق إيذاناً بأنه ركب الحاكم ، ويخفضان العلمين عندما نتجاوز الحي او الجماعة .

وخلف جنديي العلمين يسير « جناب المفتش » على جمل أحسن اختياره وأكملت زينته .. السرج الواسع الجميل ، عليه « الفروة البيضاء » « المرعز » كما يسمونها . وقد تدلى طرفاها على صفحتي الجمل ، ويسيل على العنق حتى يد المفتش (رسن) من الجلد الناعم المضفور بعناية فائقة ليحكم به سير الجمل ارقالاً او ايجافاً او ايخاداً .

وقدر لي ان اسير بجانب المفتش على جمل استؤجر لي من اعرابي تركناه يسير مع جمال الحملة التي تسبقنا عادة في التحرك لبطء سيرها ولتصل الى المكان المعين لنزولنا قبلنا حيث يتمكن خدامو المفتش من اعداد معدات الراحة له لدى وصوله . ولم يكن على الجمل الذي يحملني زينة ما ، سوى (السرج) الذي أعارني اياه صديق من التجار عندما رأى حقارة سرج الاعرابي الذي جاء به على الجمل لركوبي ، وكانت تلك هي اول مرة في حياتي اركب جملاً .. وكان يسير من خلفنا الجنود الستة الباقون ، كل اثنين منهم في صف واحد وكلهم بأسلحتهم وهم يرقلون خلف المفتش وفق سرعته في المسير لحراسته أو لاعطاء ركبه الهيبة الرسمية الحكومية .

واخذت احاول الاستقرار على ظهر الجمل بشتى الطرق والاوضاع ، فقد كانت تلك تجربتي الاولى كما قلت .. وزاد قلقي واضطرابي عندما أخذت سرعة الركب تتزايد ، وكان اكثر ما يشقيني ويزيد من عنائي منظر هذا

الانجليزي وقد ثبت على ظهر الجمل هادئاً مطمئناً وقد حشا غليونه وأوقـده وأخذ يدخن في هدوء والجمل يرقل به كأنه في رحلة على سيارة تتهادى به في الريف الانجليزي !. وكبر في نفسي ألا أحسن ركوب الجمال وقـد ولدت في البلد الذي عرف بها ، ويسبقني الى ذلك فتى انجليزي لم يرها من قبـــل الا مصورة على الورق ... وكان الجنود الذين يرقلون من خلفنا ينظرون الي في قلق ، فقد أدركوا بحكم خبرتهم منذ ان تحرك ركبنا انني لا أحسن ركوب الجمال ، وكانوا يتوقعون سقوطي من على ظهر الجمل بين كل لحظة واخرى ، فتأهبوا لمعونتي سلفاً !..

وخيل الي ان المستر لي ينظر اليّ خلسة ويخفي عني ابتسامة ساخرة وقد فطن الى عجزي عن مجاراته في الركوب ! فزاد ذلك من حنقي ، وازددت اصراراً على التشبث بسرج الجمل والاستقرار عليه رغم مـا كان يصيبني من كدمات على ظهري من النتوء الخلفي للسرج .. وكان هذا هو الدرس الاول – او قل التجربة الاولى التي اخذتها من هذه الرحلة .

وبعد ان سرنا مدى ثلاث ساعات ، كانت كلها عذاباً بالنسبة لي ، حتى خلتها لفرط عذابي ثلاثة اعوام ، بلغنا نهاية المرحلة الاولى للرحلة حيث نزلنا عن الجمال في فضاء رحب تناثرت فيه بعض الاشجار التي كانت تتفـاوت في احجامها ووفرة ظلالها وذهب كل منا الى الشجرة التي اعدها له جماعة (الحملة) الذين سبقونا الى هذا المكان يحملون الزاد والماء والعتاد .

ونزل المستر لي نشيطاً مرحاً ، وغليونه لا يغادر فمه ، ونزلت محني الظهر من عناء التجربة ولما لحقني من اذى السرج وهو يصدمني في سلسلة الظهر بسبب عدم استقراري عليه والجمل يخب بي غير آبه ، وتمددت على الرمل لآخذ حظي من الراحة ، وقد فاتني ان استمتع بجمال الطبيعة وجلالها من حولي لمـا كنت اعاني من الم ، ولم التفت الى ذلك طوال هذه الرحلة الاولى، وقد عجبت فيمابعد

بعد ان طفت بها اكثر من مرة وصرت خبيراً بركوب الجمال كيف فاتني ان اتملى هذا الجمال المنوع في هذا الطريق الحافل بالجبال والتلال والوديان ، والجمع بين قسوة الصحراء حيناً ونضرة الطبيعة وسخائها احياناً اخرى .

ونصبت للمفتش في ذلك الخلاء منضدة سفرية صغيرة ، بجانبها كرسيان من نوعها، وقدم له الشاي كاملاً على طريقة اهل الانجليز – الشاي والكيك والزبدة والمربى .. الخ فجلس اليه ودعاني لمشاركته فاعتذرت اذ كنت في اشد الحاجة للراحة والتمدد على الرمل مباشرة ..

وكان هو يجلس الى الشاي بكامل زيه كما لو كان في ارقى الفنادق الحاشدة بالناس !. ولقد ادهشني اكثر عندما جاء اوان تقديم العشاء له ، اذ رأيته يعنى بلبس العشاء الخاص ويلف حوله ذلك الحزام الاسود حفاظاً على التقاليد .. وعجبت لماذا نسخر نحن من عاداتنا وتقاليدنا وها هو شاب انجليزي يحرص على هذا التقليد الذي لا معنى له وهو في قلب الصحراء يتناول عشاءه وحيداً !.

كان علينا ان نسير اربعة ايام ليلاً ونهاراً حتى نبلغ (حمر الشيخ) مقر الشيخ علي التوم وعاصمة قبيلة الكبابيش ، تلك القبيلة ، ذات النفوذ الواسع في تلك المنطقة الشاسعة بغرب السودان وحيث توجد أضخم ثروة حيوانية من الأبل تموج بهـا وديان تلك المنطقة ومراعيها ومناهلها ، والرجال من خلفها يحرسونها باسلحتهم النارية اذ لا يوجد رجل واحد يسير خلف ابله ولا يحتقب بندقية وقدراً غير قليل من الرصاص .. ولا تسل من اين لهم السلاح والرصاص فان لهم مصادر شتى تمدهم بها .. وكان الانجليز يعرفون هذا ويتغاضون عنه ، ذلك لان رعاة الكبابيش كثيراً ما يتعرضون عندما يوغلون في الصحراء في فترة الشتاء الى هجمات مسلحة من بعض القبـائل الرعوية الخاضعة للحكم الفرنسي كقبائل الكنين والفيزان في شمال افريقيا وتدور بينهم رحى معارك عنيفة يغنم فيها المنتصرون ابل المهزومين ، وقد يعيد المهزومون الكرة عامـاً آخر

ويتربصون بأي من افراد القبيلة الاخرى يرعون ابلهم على الحدود فيغيرون عليهم ويثأرون لقتلاهم ولابلهم المنهوبة .

كنت شديد اللهفة والشوق لرؤية الشيخ علي التوم الذي سمعت عنه الكثير قبل بدء هذه الرحلة ، كما كنت تواقاً للتعرف الى هذه البيئة البدوية الرعوية التي اخترتها بمحض رغبتي ميداناً أستهل به حياتي العملية ، وقد حدثني المسؤولون سلفاً عن الصعاب التي سألاقيها وعن خشونة الحياة وقسوتها في البادية لشاب مثلي لم يفارق المدينة منذ نشأته . ولم أتهيب التجربة فقد كنت في مستهل الشباب حيث يلذ اقتحام المخاطر وحيث كنا نعيش في مثل فتنا بها ، واعتقدنا ان لنا رسالة لم يخلق لها غيرنا ... وما اعذب احلام الشباب وطموح الشباب . !
وقد افادنا ذلك الغرور – ان شئت ان تسميه غروراً او ذلك الطموح الذي كان يدفعنا دفعاً لخوض كل تجربة مهما قست .

وهأنذا أخوض التجربة ، وما أبعد الفارق واقساه بين الاحلام والطموح وبين الواقع .. الصحراء تمتد وتمتد كأن لا آخر لها ، والجمال ترقل بنا صباحاً ومساء ، وحمرة الشيخ تزداد بعداً وعسراً وقد أدمى سرج الجمل ظهري وما زال الغد مجهولاً !.

وفي اليوم الرابع اشار احد الجنود الى جبال بدت من بعيد كأنها سحابة دكناء توشك ان تنفجر ماء ، وقال : هناك تحت سفوح هذه الجبال ترقد حمرة الشيخ .. وتهللت طرباً ، فقد اشرفت على بلوغ المكان الذي جئت اليه وفي ذهني حشود من الصور التي افتن في ابداعها من حدثوني عنه قبل ان ابلغه ، ما أبعد الفارق بين ما سمعت وما خبرت فيما بعد ، وزاد من بهجتي اني سأرتاح من عناء ركوب الجمل .

واشرفنا على (الحمراء) كما اسماها استاذي الشاعر الفحل المغفور له الشيخ محمد سعيد العباسي الذي التقيت بـه هناك وعرفته عن كثب وشهدت كيف

اوحت اليه هذه الحمراء بأروع شعره الذي حفل به ديوانه . ولهذا حديث آخر من بين هذه الاحاديث .

وبعث المستر لي الى الشيخ علي التوم ينبئه بأن ركبه موشك على بلوغ الحمراء وانه سيكون معهم في الحي في نحو التاسعة من صباح الغد ، وتحرك ركبنا في رحلته الاخيرة صوب الحمراء واقتربنا من مضارب الحي ، واذ بفرسان كثر يعدون نحونا وقد أطلقوا لخيولهم العنان ، وتعالت صيحاتهم في قوة وعنف ، وزاد من قوتها وعنفها تجاوب اصداء الوادي من حولنا معها ، ورفع الجنديان العلمين عاليين امام المفتش ، الذي بدا من حولي مزهواً وقد ارتدى مظهر الكبرياء والسلطان ، واوشك ان يقصيني من جانبه حتى لا افسد عليه مظهره الرسمي وحتى لا افهم ان لي حظاً من مشاركته في هذه الحفاوة !.

عشرات من الشيوخ والشبان على صهوات الخيول ومثلهم على ظهور الجمال أحاطوا بنا من كل جانب وقد هدأوا من الصياح ، وخيولهم ذات السرج العربية تصهل في عتوّ وهي تجاذب اللجم بعد ان كبحوا جماحها كأنها لا ترضى هذا الهدوء ..

كنت قد رأيت في مقدمة الخيل وهي تعدو نحونا بعض خيول ظننتها قد ألقت فرسانها على الارض وانطلقت بدونهم ، اذ لم اتبين فرساناً عليها ، فلما دنت رأيت على ظهرها اطفالاً لم يتجاوز اكبرهم الثامنة من عمره ، ولم تبن لي اجسامهم الصغيرة من بعد لأن السرج العربية ذات الاكام العالية على ظهور هذه الخيول قد حجبت الجانب الاكبر من اجسادهم الصغيرة .

وعرفت عندما ترجلنا للسلام والتعارف ان هؤلاء الاطفال هم تلامذتي الذين جئت لتعليمهم ، واذا بي اتلقى منهم اول درس في الفروسية !.

وترجل المفتش ليحيي المستقبلين، والعلمان مرفوعان امامه يحملها الجنديان

ومن ورائه الجنود الستة المدججون بالسلاح مترجلين. وتقدم رجل ربع القامة يميل لونه الى السواد يرتدي (سروالاً) طويلا تدلى حتى قدميه ، وقميصاً تجاوز الركبتين بقليل ، حول عنقه (ملفحة) بيضاء، نظيف الثياب ، وعلى رأسه عمامة صغيرة بيضاء ، مستدير الوجه، استرسلت لحيته الواضحة المشيب قليلا ، فعرفت انه الشيخ علي التوم . وبعد ان حيا المفتش في ترحاب بدوي حار ، قدمني اليه المستر لي قائلا : هذا هو فلان الذي اختير لتعليم أولادك ، فعانقني مرحباً واكثر وأطال في عبارات الترحيب حتى أخجلني وعجزت ان اباريه فيها .

وعدنا مرة اخرى الى ركائبنا، فقد كان هذا اللقاء على بعد عدة كيلومترات من الحي كعادتهم كلما جاءهم زائر هام، وتقدم الركب الجنديان حاملا العلمين وخلفهما المفتش وبجانبه هذه المرة الشيخ علي التوم على فرس رائع المظهر والزينة وهو يتحدث هاشاً باشاً الى ضيفه الذي كان يبادله اللطف والبشاشة .

واقتربنا من الحيّ ودويّ (النحاس) يزداد قوة وعنفاً كلما ازددنا اقتراباً ، ولما بلغنا الحي ، استقبلتنا صورة اخرى من الحفاوة بالضيف الحاكم . كان هناك فتيات كثر يغنين ويصفقن ويرقصن وزغاريدهن تصم الآذان مع دوي النحاس الذي التف حوله عدد من الشبان والشيوخ (يعرضون) بالسيوف والعصي والسياط ، اما الفرسان الذين استقبلوا ركبنا خارج الحي فقد أخذوا يقومون باستعراض فروسي جميل على ضربات النحاس ، واستهواني منظرهم فوقفت مشدوهاً مبهوراً انظر الى اولئك الفرسان وفي مقدمتهم تلامذتي الصغار وهم على ظهور الخيل كأعتى الشبان واشدهم جلداً .

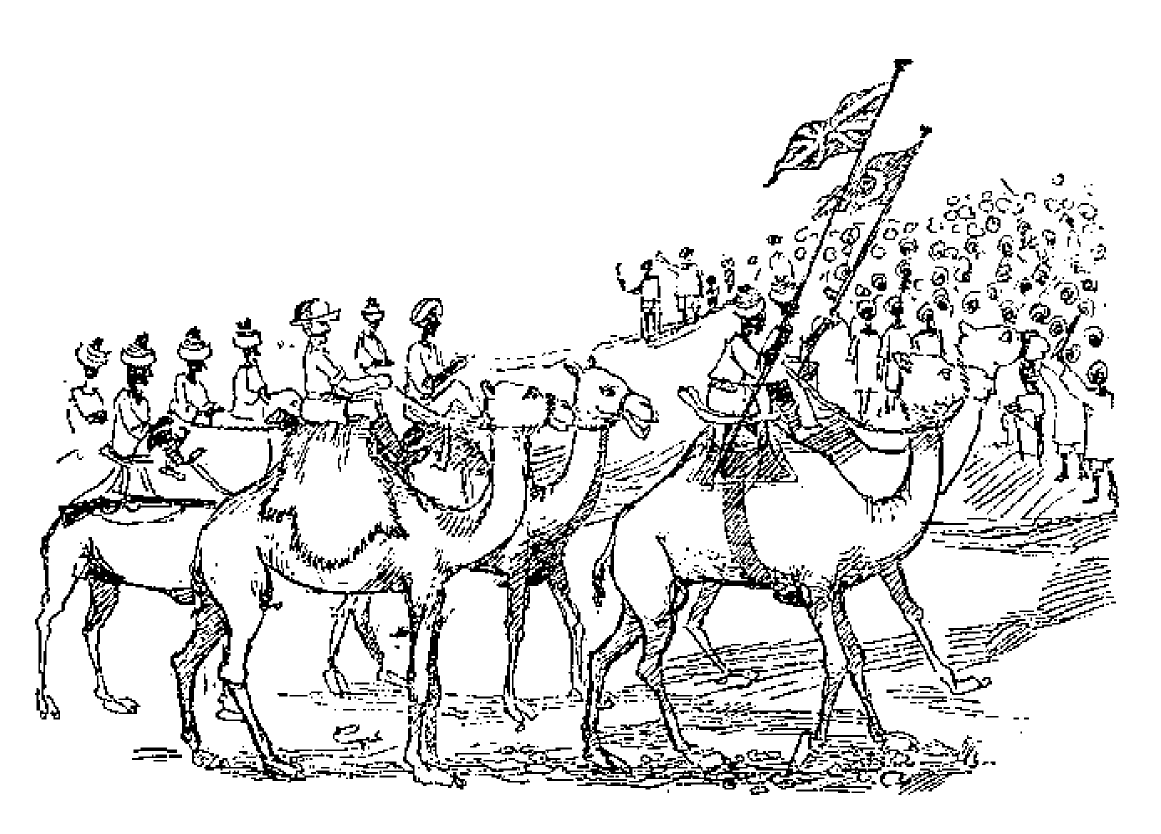
وانفض سامر العرض والاستقبال بعد فترة وكان بالنسبة لي شيئاً جديداً يغاير كل ما عرفت وألفت من قبل .

وألقيت نظرة فاحصة على حي الحمراء الذي جئت اليه مشتاقاً متلهفاً ..

كان حياً بدوياً خالصاً ليس عليه مظهر واحد من مظاهر الحضارة، وانما هي بيوت من الشعر تناثرت في غير انتظام ، بعضهـا في العراء ، وبعضها احتمى بالاشجار التماساً لظلالها ، ولا حجاب ولا (سيشان) تحجب بيتاً او تخفي داراً . كلها مكشوفة ينتظمها هذا الهواء الطلق ورباط القبيلة الذي جعل منهم كلهم اسرة واحدة متماسكة لا غريب بينها يخشونه ولا ما يقيمون من اجله الاسوار !

وخصصت لي خيمة صغيرة لسكنـــاي ، سرني انها وضعت بالقرب من اشجار متشابكة ظليلة . ووضعت داخل الخيمة سريري السفري الصغير الذي احضرته معي بعد ان عرفت ضرورته ممن خبروا حياة البـادية وعليه لحاف بسيط ومنضدة سفرية صغيرة ، ومقعد مماثل ، ولا شيء سوى هذا .

ولكن هذا على ضآلته كان ترفاً حضـارياً ينظر اليه البدويون والبدويات خلسة كلما ساروا امام خيمتي في كثير من العجب والتساؤل ـ وعندما جاءني الشيخ علي التوم لأذهب معه لتناول الغداء عقب وصولنـا ، وألقى نظرة على خيمتي من الداخل ، ورأى المنضدة والمقعد والسرير السفري عليه (اللحاف) قال ، وهو يخفي ابتسامة ماكرة .. لماذا كل هذا يا ابني ؟!.



إلى حمرة الشيخ

في دار الشيخ علي

كنت اسير بجانب الشيخ علي التوم الزعيم البدوي الكبير نحو منزله لاتناول معه طعام الغداء لأول مرة عقب وصول ركبنا الى الحمراء ، وكان يسألني عن رحلتي وما لقيت من مشقة السفر الطويل في حنو الوالد الكريم وانا أجيبه زائغ البصر اتلفت هنا وهناك الى بيوت الشعر التي يسكنها البدويون من حولنا وقد استهواني منظرها واسرتني بساطتها ، حتى دخلنا بيت الشيخ علي ، او « البيت الكبير » كما يسمونه ، اذ ان للشيخ بيوتاً عديدة لنسائه الاربع وبعض السراري وقد جعل من هذا البيت الكبير مقراً لاجتماعاته مع قاصديه ومحكمة للنظر في القضايا المختلفة وداراً يحتفي فيها بضيوفه الاخصاء ، ولم يكن هذا البيت يتميز عن غيره من بيوت البدويين بشيء الا انه اكبر حجماً نسبياً ، فهو أشبه بالخيمة الواسعة الارجاء وقد خلا من أي مقعد او سرير او اي قطعة من قطع الاثاث التي تزدحم بها بيوت الاثرياء في المدن ، هنـــاك (عنقريب) صغير عليه سجادة ، وفرشت الارض الرملية بالسجاد لنجلس عليه ونتناول الغداء .

وتربع الشيخ على الارض المفروشة بالسجاد وتربعت بجانبه ، وخلال حديثه

عرفت انه ينتظر المستر لي ليتغدى معنا .. وصعقت ، أترى ان للشيخ داراً اخرى غير هـذه سننقل اليها عندما يحضر المستر لي ؟ ام انه سيتربع معنا ايضاً على الارض .. والطعـام ؟ ما هو ؟ هل سيقدم على النهج الافرنجي تكريماً لهذا المفتش الانجليزي ام سيكون طعاماً بلدياً ؟.. وان كان بلدياً كما يدل عليه هـذا المظهر البسيط الذي نحن فيه فكيف يتناوله هذا الشاب الانجليزي الارستقراطي والذي شهدته في قلب الصحراء لا يشرب الشاي الا كاملاً ولا يتناول العشاء الا اذا ارتدى له زيه التقليدي !..

ودخل علينا احد الرجال ليقول للشيخ ان المفتش قادم ، وأسرع الشيخ الى ملاقاته ووقفت أرقب دخولهما .

وجاء المستر لي وبدا لي انـه كان على معرفة تامة بتقاليد هذا الغداء وليست هذه مرته الاولى مثلي .. وتربع على السجاد ، ودار الحديث بينه وبـين الشيخ علي عن رحلة لهما قاما بها معاً في العام الماضي ، وكنت أرقب المستر لي وهو يمد رجله آناً ، ويتكىء شبه مضجع آناً ولا يبدي تبرماً لما كان يلقى في جلسته تلك وكان بالطبع يرتدي زيه الرسمي ، ولم تكن هناك حشايا او مساند تعينه على جلسة مريحة فما تعرف دار زعيم البادية شيئاً من هذا المتاع الحضري .

ودخل الخدم يحملون جفاناً سوداء من الخشب مليئة بالثريد مكللة باللحم ، وجفاناً مثلها عليها شواء اخرج من الجمر لتوه ... فتذكرت قول الشاعر العربي يفخر بجفان كهذه يقدمها لضيوفه وقد لامه قومه على اسرافه في الدين .

يعاتبني في الدين قومي وانما ديوني في أشياء تكسبهم حمدا

الى ان يقول :

وفي جفنة ما يغلق الباب دونها مكللة لحماً مدفقة ثردا

ولكن زعيم البادية لا باب لداره ، وانما هي خيمة من الشعر تخفق فيهـا

الريح من كل جانب ، وتدخلها من حيث شئت ولا حرج ، فكلا جانبي خرش طريق لها .

ولكن زعيم البادية ايضــاً لا ديون عليه يعتذر عنها بهذه الجفان التي يكرم بها ضيوفه ، فهو من اثرياء البدويين المعدودين في السودان ، وثراؤه غير خفي تنطق به هذه (الخزنة) التي يخرج بها حاملوها من الدار لتحملها جمال خاصة كلما تحرك الحي من مكان الى مكان . وهــــي ليست خزنة من الحديد الصلب فالشيخ غير حفي بمثلها ، وانما هي (جربان) من الجلد أودع في كل منها ما يملأه من القطع الفضية المختلفة ، ولا تقبل خزائن الشيخ غير هذه القطع الفضية اطلاقاً ، فالريال هو وحدة التعامل في كل البادية ، وفي اكثر مناطق الغرب ، وهم يعنون بالريال في ذلك الوقت ، الريال المصري الذي يساوي عشرين قرشاً — وكل شيء يقدر ثمنه على اساس هذا الريال ، ويسمونه الريال (المجيدي) ولعل مبعث هذه التسمية انه صك لاول مرة في عهد السلطان عبد المجيد . وبجانب جربان القطع الفضية نعلم ان هنـــاك جرابا حشدت فيه اخراس من الذهب ، فالشيخ يحيل بعض النقد الى اخراس من الذهب .. اما العملة الورقية فلا مكان لها في خزينة الشيخ بل لا مكان لها في كل البادية اطلاقاً ، والتجار الذين يقصدون البادية لشراء شيء من بهائمها لا يحملون معهـــم غير النقود الفضية مؤثرين الريال المجيدي اكثر من غيره لسهولة تداوله بين ايدي البدويين .

ودعانا الشيخ لندنو من الطعـــام وناكل ، فنظرت الى فتى الامبراطورية الانيق وابن الحضارة العريق ، ماذا تراه يفعل ! .. ولم يطل تساؤلي فقد دنا من الشواء اولا واخذ يتناول منه بيده ويأكل في شهية ويتخير منه ما يطيب له .. ثم ادنيت منا جفنة الثريد .. خبز ومرق ولحم ، وأدخلت يدي في الجفنة على طريقتنا المعهودة لآخذ حظي من الثريد ، وظننت ان فتى الامبراطورية الانيق سيعزف عن جفنة الثريد ، ولكنه سرعان ما اهوى بيده الى صميم الجفنة كما

فعلنا نحن وصار يلتهم الثريد التهامـاً والمرق يسيل من بين اصابعه ، والشيخ يعزم علينا ملحا ، وهو يجامله ويتابع الاكل بيده ، مثنياً على الشواء والثريد .

وانتهى الطعام وتمددنا على السجاد ، وحشا المستر لي غليونه واخذ يدخن كمن شبع من افخر الطعام واشهاه .. وجاء الخادم بالشاي الأحمر — استغفر الله — بل الشاي الاسود ، فما يطيب الشاي للبدويين الا اذا اغلي في النار حتى يسود لونه ثم يوضع عليه سكر كثير ، وعجبت لنفسي فقد وجدت عناء في تجرع ذلك الشاي بينما كان المستر لي يعب منه كلما استزاده الشيخ من تناوله .

وعرفت في تلك السويعات اشياء جديدة لم اكن ادركها من قبل لحداثة سني وفقداني للتجارب — اذ كنت في مستهل حياتي العملية — عرفت الى اي مدى يعمل هؤلاء البريطانيون لتحقيق مصلحة امبراطوريتهم وتدعيم استعمارهم ، فهذا الشاب الانكليزي الذي بـدا لي طوال الرحلة ونحن نشق الصحراء ارستقراطياً عريقاً لا يتنازل قيد شعرة عن تقاليد حضارته في تناوله لطعامه وشرابه وهو وحده في العراء . يعود بدوياً كباشياً يتناول بيديه الشواء الذي انضج على الجمر مباشرة ، ويلتهم الثريد الذي يسيل مرقه من بين اصابعه ويشرب الشاي الاسود الذي يحتاج تناوله لغير معتاده الى قوة احتمال خارقة ، ويظهر لزعيم البدويين استطابته لهذا الطعام وشهيته لتناوله .. انها مصلحة الامبراطورية ومقتضيات السياسة التي عليه ان ينفذها ! .

وخلال الاربع سنوات التي قضيتها بين مضارب البدويين ، تكرر هـذا المشهد حتى صار مألوفاً لديّ ، ولم يعد غريباً عليّ ان نجلس هذه الجلسة على الارض ونأكل الشواء والثريد ، ولا شيء غيرهما — مع كبـار رجال الادارة البريطانيين الذين كانوا يزورون الشيخ علي تباعاً ، بل ان بينهم من رأيته يصر على أكل (المرارة) كما يفعل السودانيون ويستطيبها ! ..

ولست انسى جلسة كهذه كان واسطة العقد فيها داهية السياسة الانجليزية في السودان المستر نيوبولد وقد جاء لزيارة الشيخ علي ، ونيوبولد — وكان مديراً لكردفان عندمـــا التقيت به لأول مرة في الكبابيش — صديق حميم للشيخ فشهدته يلتهم الشواء والثريد بيديه ويشرب الشاي الاسود ويتمدد على السجاد المفروش على الارض . وقد اعود الى هذه الشخصية الكبيرة في حديث آخر من هذه الذكريات .

وفي الواقع ان نيوبولد مدير كردفان في تلك الفـترة ، هو صاحب فكرة اعداد مدرسة متنقلة لتعليم ابناء زعيم البادية ، وقد علمت فـيما بعد ان الشيخ علي كان يرى ان يرسل ابناءه ليتعلموا في مدارس ام درمان ، فله بأم درمــان ابن عم اتخذه وكيلاً بها ليرعى شؤون الكبابيش الذين يفدون اليها بكثرة لبيع بهائمهم ، وتعتبر ام درمان سوقهم الرئيسية .

وكان للشيخ علي وجهة نظر خاصة ، ألا تفتح مدرسة في البادية لسببين ، اولهما عدم ايمانه بجدوى تعليم البدويين الرعاة، فما غناء التعليم لراع يسير خلف إبله او غنمه من مورد الى مورد ومن مرعى الى مرعى ؟.. وكان كثير من زعماء العشائر لم يكونوا من دعاة التعليم في مناطقهم لأسباب ، لا يجب ان نثيرها هنا بعد ان تلاشت ولم يعد لها من وجود .

والسبب الثاني الذي يخشاه الشيخ عـلي ، وجود موظف حكومي يعيش معه في البادية ، فقد يكون عيناً عليه وعلى اهله وهو يعلم مدى الحرية التي يعيش فيها الكبابيش بفضل رعايته لهم واطمئنان الحاكمين اليه وتجاوزهم عن كثير من اخطاء الكبابيش .. فالسلاح مثلاً يباع في وضح النهار دون خشية من أحد والرصاص كذلك يباع بينهم في سهولة ويسر ، ويصنع بعضه محلياً اذ يستجلب البدويون نوعاً معيناً من (البارود الجبلي) والقصدير ونوعاً معيناً من الكبريت ، ويصنعون من هذا الخليط رصاصاً يصلح للاستعمال .. لهـذا كان الشيخ علي لا

يطمع في اكثر من تعليم ابنائه شخصياً في احدى مدارس ام درمان .

اما نيوبولد فقد كان يرى ان تفتح مدرسة في البادية ليعلم ابناء زعيم البادية في عقر دارهم فلا ينتقلون لأم درمان ، ولا عجب ان يصر على هذا الرأي فهو يعلم جيداً ان النهضة الوطنية قد غرست بذورها في ام درمان وانها اخذت تبرز وتنمو بوجه يخيف الانجليز ، ولن يغيب على رجل مثل نيوبولد أن يقدر مدى ما يمكن ان يخلقه تنشئة اطفال يعدون لزعامة قبيلة من أهم قبائل غرب السودان في مدينة تعتبر مهد الحركة الوطنية ومصدر الوعي السياسي .

اكتب الان بعد سنوات وسنوات مرت بها على البلاد احداث كثر ، وشاء الله ان اشهد بعيني مصرع افكار نيوبولد،فان فضل الله علي التوم احد تلامذتي الصغار الذين كان نيوبولد يخاف من تعليمهم في ام درمان حتى لا يجرفهم الوعي الوطني ، فضل الله هذا كان اول نائب لاول برلمان سوداني وقد فاز بالتزكية عندما وقف في صف الشعب الذي كانت تهدر جموعه كالسيل هاتفة بجلاء المستعمرين وخروجهم من البلاد، وقد كانت فجيعة الانجليز في اصدقائهم الذين عاشوا لهم السنوات الطوال وظنوهم سيقفون بجانبهم ضد التيار الوطني لا تماثلها فجيعة .. ومن ذلك موقف تلامذتي ابناء الزعيم البدوي الذي منحه الانجليز ارفع أوسمتهم وألقابهم وكانوا يجلسون معه القرفصاء على الارض ويأكلون الثريد بأيديهم ويشربون الشاي الاسود استجلابا الصداقة وطيدة حسبوها كامبراطوريتهم لا تغرب عنها الشمس ،وقد غربت عنها معاً . لقد كان اولئك الابناء في مقدمة المناضلين عن حرية بلادهم واستقلالها ولم يترددوا قط في مناصرة الحركة الوطنية جهرة والوقوف بجانبها والانجليز ما زالوا بسلطانهم في داخل البلاد يشهدون بأعينهم مصرع عهدهم وزوال استعمارهم ..

اعود الى جلستنا تلك بعد هذا الاستطراد – وقد شبعنا انا والمستر لي شواء وثريداً وشاياً اسود ، وخرجنا من بيت الشيخ وهو يشيعنا بعبارات الشكر

وكلمات الترحاب تنثال من فمه انثيالاً .

وعدت الى خيمتي افكر في هذا الجو الجديد الذي قدر لي ان اعيش فيه وقد زادتني تصرفات المفتش الانجليزي قوة وعزيمة ومضاء ، فان كان هو في سبيل امبراطوريته وتدعيم سلطانها ، ركب الجمال وشق الصحراء على ظهرها ، ورضي بطعام بدوي جديب ، فما أحراني ان اصبر على المشقة والحرمان والعناء لافعل شيئاً لهؤلاء الاطفال البدويين المحرومين من نعمة التعليم .

ومن عجيب المفارقات اني ما كدت اعيش بينهم قليلاً حتى اذهلني ان أعرف ان عدداً كبيراً من الشيوخ — وفي اولهم الشيخ علي التوم نفسه — ممن عاشوا فترة المهدية في ام درمان تحت رقابة الخليفة عبدالله ، قد تعلموا القراءة والكتابة وحفظوا قدراً من القرآن ويحسنون معرفة الصلاة ويؤديها اكثرهم في حينها ، اذ ان فترة وجودهم في ام درمان في عهد المهدية قد مكنتهم من تعلم قدر من هذا الذي ذكرت ، وما كاد الحكم الثنائي يوطد اركانه ويعود الكبابيش الى مناهلهم ومراعيهم ، وتكاثروا مـالاً ورجالاً حتى نشأ اطفالهم في امية مطبقة ، وكانت المدرسة الاولية التي افتتحتها في أول ١٩٣١ هي أول مدرسة اولية تحظى بها بادية الكبابيش واول معهد للتعليم يقام بينهم منذ ان غادروا ام درمان عقب حلول الحكم الثنائي وزوال عهد الخليفة عبد الله .

وكان شيئاً فريداً ان ترى بعض الاباء يقرأون بعض سور القرآن ، وبعضهم يحسن تهجي الكلمات بينا تجد ابناءهم لا يعرفون حرفاً من حروف الهجاء .

ظل المستر لي معنا اكثر من شهر وقد ضرب خيامه امام الحي . كان يجتمع مع الشيخ علي بعض ساعات النهار ، ثم يظل يكتب ويقرأ ولم يكن يتدخل في قضايا الكبابيش ، اذ كان الشيخ علي صاحب السلطة المطلقــة في ذلك ، ولا يستطيع كباشي واحـد ان يتجه الى اي مركز حكومي ليقدم شكواه . وقــد وضح لي ان مفتش المركز كان يطيل بقاءه بين البدويين اظهاراً لوجود

الحكومة وهيبتها بالاضافة الى مشاوراتهم مع الشيخ علي في بعض الشؤون المحلية اذ لولا هذه الزيارات الرسمية التي كان يقوم بها الاداريون الانجليز للبادية لما أحس البدويون بوجودهم .

وقد لحظت طوال فترة بقائي هناك – وقد امتدت الى اربع سنوات – ان الانجليز لم يكونوا يسمحون لأي اداري سوداني بالذهاب لبادية الكبابيش وخاصة حي الحمراء مقر الشيخ . ولعل هذا يعود الى ما ذهبت اليه من انهم بزياراتهم وحدهم للبادية يريدون ان يؤكدوا وجودهم كحاكمين .

كان المستر لي يدعوني مساء كل يوم لأتناول معه الشاي امام خيمته ، حيث توضع منضدة للشاي حولها كرسيان لنا ، ويرسل جندي البوليس لدعوتي في الموعد المحدد للشاي ، وكان يهدف من وراء هذا الى امرين ، ان يستفيد مني في قراءاته لبعض الكتب العربية وكان يعد نفسه للجلوس لامتحان عال فيها ، وان يحاول ازالة ما كنت احس به من شعور بالوحشة وانا ما زلت جديداً على البيئة البدوية ولم أختلط بعد بأحد من أناسها – ولم اكن أدري قط ما كانت تبعثه جلساتنا تلك من ريبة وحذر عند الشيخ علي التوم الذي كان يجلس عادة في مثل ذلك الوقت امام « البيت الكبير » – مقر اجتماعاته – وحوله عدد كبير من اهله وعشيرته ، يشربون الشاي ويتناقشون في امورهم وينظرون ما يعرض من قضايا الافراد وكل من هو في ذلك الاجتماع له حق المشاركة في الحديث عن القضية المعروضة – وكان الشيخ علي اذا ما رآني مقبلاً على خيمة المفتش وجلسنا معاً نشرب الشاي ونقرأ ، التفت الى من حوله قائلاً مبدياً تخوفه : « ها عرب ! نحن ما كتلنا . دحين الزول دا شيخ حيران » ؟! وقد عرفت ذلك فيما بعد ، بعد اطمأن الي وقربني منه وخلطني بأهله وأسبغ عليّ بره وعطفه مما حبب الي البقاء معهم في ظروف قاسية .

كانت من عادة الشيخ علي في مجلسه ذاك ان يجلس وحده على « عنقريب » صغير

ليس عليه شيء ، ويجلس الناس على الارض الرملية مباشرة ، فاذا زاره غريب – وكان ممن يستحقون التكريم – وضع له فروة على الارض ليجلس عليها ، ولا يجوز لاحد قط ان يشاركه الجلوس على العنقريب ، ولم يكن ذلك عن كبرياء منه ، فقد كان كريماً شهماً متواضعاً ، ولكنها تقاليد القبيلة التي يجب ان تصان ، فالشيخ وحده هو الذي يجلس على العنقريب ، وكل من عداه جلوس على الارض .

وقد رأيته يلتزم بهذه التقاليد عندما يدخل على احد الاداريين الانجليز ، ففي ايامي الاولى ، كنت اشعر بغصة الالم وانا أراه متى قدم الى خيمة المفتش يخلع نعليه امامها ويلقي بعصاه او سوطه على الارض ويدخل عليه ويجلس على سجادة كانوا يعدونها لجلوسه خصيصاً ، ويجلس المفتش على كرسيه ، ويتبادلان الحديث !. وكنت انا اذا ما جئت الى خيمة المفتش تعمدت الجلوس على الكرسي ، وقد اوحى لي صغر السن وقلة التجربة أني بهذا احرض الشيخ على ترك عادة الجلوس على الارض امام المفتشين ! ولكني انهزمت امام اول تجربة جمعت بنا معاً .. فقد كان المستر لي يتعمد الاجتماع بي في غيبة الشيخ لعلمه باصراري على الجلوس على الكرسي ، وما كان ينتظر مني غير هذا – وقد ذكرت كيف كان يدعوني مساء كل يوم لتناول الشاي معه ونجلس جلستنا تلك والشيخ وعشيرته على مقربة منا .. وذات يوم اقتضت الظروف ان نجتمع الثلاثة للتحدث في شؤون المدرسة ، وجاءني رسول المفتش يدعوني ، وذهبت الى خيمته لأجد الشيخ علي يجلس جلسته تلك ، على السجادة ، والمستر لي يجلس على كرسيه ، وتملكتني حيرة لم يطل امدها ، أأجلس على الكرسي كما كنت افعل ؟ ام اجلس بجانب الشيخ على السجادة ؟ ويبدو ان المستر لي كان قلقاً جداً ان اجرح الشيخ ، ولكني أسرعت وجلست بجانب الشيخ ، وبدت على وجه المستر لي مظاهر الرضاء عن مسلكي !

كان المستر لي متعلقاً باللغة العربية حريصاً على تفهمها وتذوقها ولم تقف

جهوده عند نجاحه في الامتحان العالي للغة العربية الذي كان يعقد لهم بعـــد اجتياز الامتحان الاول ـ وكانوا يمنحون مكافآت سخية كلما اجتازوا امتحاناً ـ بل صار يقرأ كتب الادب العربي ويتذوق الشعر ، وكانت تعجبه قصص توفيق الحكيم ، لهذا فقـــد اختير من مفتش لدار الكبابيش ليكون مفتشاً للرئاسة بمصلحة المعارف ، وقد سماه المدرسون « الشيخ لي » لما رأوا حسن تفهمه للغة العربيـــة .

وكان لي هذا لا يثق في السودانيين ، ويندر ان يمنح ثقته لأحد ، ولعله يبطن حقداً عليهم وكراهية لهم ، وان بدا هادئاً ناعم الملمس مهذباً ، وقد اتضح ذلك من العديد من تصرفاته – ففي مركز القضارف ، وكان مفتشاً للمركز – احرق مرة قرية كاملة لسبب تافه – واذكر ان السيد محمد احمد السلمابي وكان آنذاك يعمل في القضارف ويراسل جريدة الرأي العام ، ان بعث اليها بهـذا الخبر فأحدث دوياً في المجتمع واهتمت بـه الحكومة اهتماماً بالغاً .. وحدثني ايضاً الصديق السيد ميخائيـل بخيت الذي كان مترجماً في مركز القضارف في عهد المستر لي ، انه لقي مرة عدداً من الاعراب على جمالهم في مكان محرم فيه الصيد من غابات تلـــك المنطقة . فتوهم المستر لي انهم من الصيادين وانهم يقتحمون منطقة الصيد المحرمة عليهم ، فما كان منه الا ان امرهم بالابتعاد عن الجمال ، ثم اخرج مسدسه وقتل الجمـــال رمياً برصاص مسدسه عقاباً وارهاباً للصيادين !

وقد نقل ليعمل في مكتب حكومة السودان بالقاهرة ، ولقيتــه مرة في الخرطوم وقد أعيد من القاهرة ابان نشوب الحرب الاخيرة واعـــلان دخول السودان فيها – فحدثني انه كان سعيداً في القاهرة لأنه استطاع ان يزيـد من ذخيرته اللغوية في اللغة العربيـــة وأنه التقى بكاتبه المفضل توفيق الحكيم .. ولم ألقه بعدها وقد اسندت اليه خلال الحرب مهمة تتصل بالمخابرات في شرق السودان وكان بارعاً في التنكر يجيد اللهجات المحلية هناك . وبعد انتهاء الحرب عمل لفترة

في مصلحة المالية ، ولم يوفق في احتلال منصب مرموق في السلك الاداري حتى عاد الى اهله .

وجاءنا مفتشاً لدار الكبابيش بعده فتى في مستهل الحلقة الثالثة رقيق مهذب يسمى (دي بنسن) وقد شغل في اواخر ايامه منصب مدير الخرطوم ـ كما جاءنا المستر سكوت الذي كان يعمل في مصلحة المعارف . وقد وضع فيها كتابه للاطفال للمدارس الاولية وما يزال يدرس فيها حتى الآن باجراء تعديلات يسيرة عليه ، وقد زارانا معاً في البادية ، ونصب لكل منهما خيمة امام الحي ، وكان يؤذيني ان أرى الشيخ علي بطلعته المهيبة وشعره الأشيب وهو يخلع نعله امام خيمة الفتى « دي بنسن » .. وكان من عادة المستر سكوت ان يفسح لي مجال الحديث معه ، ولا يضيق ذرعاً بما كنت أبديه احياناً بحكم سني واني لم اعمل في اجواء المراكز حيث تشتد سطوة المفتشين ويخشاهم الناس ، وجو البادية الطليق يوحي بالصراحة والشجاعة .. قلت مرة للمستر سكوت ، اني افهم ان يجلس الشيخ على الارض عندما يكون مع المدير او المفتش الاول المركز ، ولكني لا أدري كيف يفعل هذا لفتى كالمستر دي بنسن وهو في سن أبنائه ، وكيف تقبلونه؟ وصمت قليلا ، ثم قال .. اولاً عليك ان تفهم انا لم نطلب منه هذا ، وانما هي تقاليد قبيلته الا يجلس احد على كرسي او مقعد امام « الحاكم » ودون التفات الى موضوع السن ، فأنت ترى في مجلس الشيخ رجالاً يفوقونه سناً ويجلسون امامه على الارض ويتربع وحده على العنقريب .. هذه واحدة ، اما الاخرى وهو ما لا تعرفه انت ، انه لا يفعل هذا امامنا عن ضعف او استخذاء ، فانا نسمع احياناً من الشيخ علي ـ كلما أقدمنا او حاولنا الاقدام على تصرف يحد من سلطانه او يحد من حرية قبيلته التي تتمتع بها الآن ـ نسمع من القول ما لا يجرؤ اي سوداني آخر من المتعلمين الذين يجلسون بجانبنا على الكراسي ان يسمعنا

إياه مهما فعلنا به !..

وكبر الشيخ أضعـافاً في نظري منذ ذلك الحين ولم يعد يؤذيني جلوسه امام المفتشين بتلك الصورة ، فقد كان صدى حديث « سكوت » عنه يملأ أقطار نفسي .



العيد، سباق وغناء ورقص

أود ان اسجل اولاً هذه الرسالة التي تلقيتها من صديق كريم قرأ ما كتبت عن المستر لي وآثر ان يثبت بعض الجوانب التي جاءت في حديثي عنه، والرسالة تقول :

تكملة لحديثك عن المستر لي وولعه بالأدب العربي وأغاني الكبابيش اذكر ان وقعت في يدي مذكرة كتبها عندما كان مديراً لشؤون الموظفين في (مصلحة الداخلية) سابقاً رداً على رسالة تلقاها من المستر هيج يطالب فيها بالتصديق على بعض الوظائف تمهيداً لتطبيق نظام الحكومة المحلية في الكبابيش —

استهل المستر لي مذكرته في الرد على المستر هيج بما استهل به امرؤ القيس معلقته اذ كتب باللغة العربية : —

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

ولعل الحديث عن دار الكبابيش أثار كوامن ذكرياته فتمثل بهذه الشطرة الباكية من المعلقة .. ثم كتب بعد هذا باللغة الانجليزية ما ترجمته : —

اذكر ان الشيخ علي التوم كان يلح علينا لشيء ما ، ولكني اجزم بأن هذا

الشيء لم يكن ابداً الحكومة المحلية ، وعلى اي حال فسيمضي الكبابيش في ترداد أغانيهم وينشدون .. وثم أورد نص هذه الاغنية الكباشية باللغة العربية) :

سمحات تلات فيـات
البل مع البنـات
وخيـلا مربطـات
ضهبـا مجنبـات
ليلة الكبوس كان جات
في التور ابو ضرعات

وهذا يؤكد ان الرجل كان حتى آخر عهده بالعمل في بلادنا يجتر ذكرياته عن الكبـابيش ويبكي عهده بينهم بكاء امرىء القيس حبيبه ومنزله ، ولا يجد بأساً من ان يستشهد في مذكرة رسمية ببيت من المعلقـة وقطعة من أغاني الكبابيش !..

وهذا حق فقد كان الرجل مولعاً بالادب العربي وبأغاني الكبابيش ، والاغنية التي استشهد بها تصور الحياة المثالية في نظر الرجل الكباشي ، فالحيـاة المثلى عنده تتجلى في ثلاث فئات ، الابل والبنات والخيل ، فالابل هي الثروة الرئيسية التي يقتنيها للمباهاة وقل ان ينتفع بها انتفاعاً مادياً يستحق الذكر ، اذ ان المتعة النفسية التي يجدها في تكاثرها امامه لا تعادلها متعة مادية اخرى ، وكلما كثر عددها ازداد جاهاً ونفوذاً بين اهله .. والبنـات – مصدر من مصادر متعته وسعادته ، ولهذا قل من تجد ذا زوجة واحدة من أثرياء البدويين وذوي الجاه منهم ، اما الخيل فهي مظهر الفروسية والشجاعة ، وبها تكتمل مظاهر الفتوة والقوة عند البدوي ، ولا شيء آخر في هذه الدنيا العريضة يعدل عنده الثلاث فئات ، الابل ، والبنات ، والخيل .

وفي الواقع ان كنوز العالم كلها لا تساوي عند البدوي هذه الابل التي يشقى

من اجلها ويجوب الفلوات خلفها بحثاً عن المرعى والمـــاء ، وكلما كثرت عنده شعر بالزهو والاطمئنان ، ويجد مشقة وعسراً عندما يعمد الى بيـع بعضها ، وهو لا يفعل ذلـك الا لدى الضرورة لمواجهة أهم الالتزامات المادية التي لا بد منها ، كدفع الضريبة السنوية المقدرة عليه وشراء مؤونته من الذرة لطعامه، والكسوة متى ما احس بضرورتها له ولأسرته .

وما حاجته للمال وهو لا يبني قصراً ولا يبغي ترفاً ، فبيته خيمة صغيرة من وبر ابله يحملها على بعير أنى شاء ، وحيث يطيب له المقام في ذلك الخلاءالواسـع ، وطعامه من لبن ابله او غنمـه وشيء من دقيق الذرة ، وثوبه واحد حتى يبلى . وقد لا يعرف الماءاليه سبيلاً ليغسله حتى يستحيل لونه الى لون التراب الداكن . كل هذا وهو يسوق امامه ثروة من الابل تقدر بألوف الجنيهات .

ومن طرائف ما اذكر ان شيخاً ثرياً من اقرباء علي التوم ، سألني مرة عن الحياة في المدن الكبرى ، ثم تطرق الحديث بنا فسأل عن (لندن) ما هي ومن يسكنها ؟ وكان قـد سمع بها عندما زارها الشيخ علي التوم عام ١٩١٩ مع اول وفد سوداني يذهب اليها مكونا من كبار السودانيين – رجال دين وزعمـاء عشائر لتهنئة ملك الانجليز بالنصر عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى . وكان كثر ما اهتم بمعرفته هذا الشيخ الثري ان يدرك شيئا عن ثروة ملك الانجليز ومم تتكون ؟ والثروة في نظره بالطبـع تعني قدراً كبيراً جداً من الابل يليق بملـك الانجليز ، فلما عرف مني انه لا يملك شيئاً منها بل انه لا توجد ابل قط في بلاد الانجليز ، ابدى دهشة بالغة وعجب كيف لا يكون الملك عظيم مرحات) عديدة من الابل وكيف يبلغ هذه المكانة بدونها ؟ !

ولا عجب ، فجمال الحياة وثراؤها ونعيمها كله ينحصر في هذه الثلاث فئات التي جاءت في الاغنية التي استشهد بها المستر لي والكل ما عداها باطل وقبض الريح .

قلت اننا ودعنا المستر لي وعدنا الى الحي ، واخذت اعد نفسي لهـــذه الحياة البدوية التي صارت تتكشف لي كل يوم عن جديد أجهله .

واقبل بعد فترة قصيرة عيد الاضحى ، وكنت متلهفاً لقدومه لاعرف كيف يحتفلون به ، وكنت قد سمعت شيئاً من عاداتهم في مثل هذه المناسبات ، وبالرغم من ان مركز سودري قد ابلغنا بثبوت الشهر وحدد يوم العيد كما جاء في نشرة قاضي القضاة الرسمية ، الا ان البدويين كانوا لا يأبهون بكل هذا ، فالشهر يثبت بالرؤية عندهم وحدهم ، ولهذا كانت اعيادهم تتأخر يوما في الغالب الاعم ، وكذلك بدء الصوم في شهر رمضان .

وأقبل العيد ، ومنذ الصباح الباكر كان نحاس الشيخ يقصف كالرعد ، معلنا عن العيد ، وجبال الحمراء من حولنا تردد الصدى فيزداد الدوي عنفا ، وتهيأت للذهاب الى المكان المعد للصلاة في واجهة الحي ، ومع ان المكان قريب جداً فقد عجبت اذ رأيت الاكثرية الساحقة تتجه الى مكان الصلاة على الخيل او الجمال ، وقل من كان يسعى بقدميه مثلي ، وازداد عجبي وانا أرى اسرابا من الفتيات والنساء وهن في أكمل زينة وأبهى حلة يتجهن ايضاً نحو مكان الصلاة . ! وقلت في نفسي ما شأن هؤلاء الحسان المزهوات بزينتهن وصلاة العيد ؟! .. وكن يتخطرن من هنا وهناك في ثياب زاهية ذات الوان صارخة ، مشرقات باسمات ، ووجدتني أردد مـــع ابي الطيب المتنبي قصيدته المشهورة : —

من الجــآذر في زي الأعاريب حمر الحلى والمطايا والجلاليب

ان كنت تــأل شكا في معارفها فمن بـــلاك بتسهيد وتعذيب

الى قوله : —

أفدي ظبـاء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبـغ الحواجيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البدواة حسن غـير مجلوب

ودنوت من مكان الصلاة ، في قضـاء رحب امام الحي ، وحولي جموع من الفرسان على الخيـول المطهمة ، وآخرون على جمال صهب خفيفـة الحركة ، ووجوه زهاها الحسن ان تتقنع ـ كما قال ابن ابي ربيعة ، فكشفن عن مفاتنهن دون خشية ، ومم يخشين ؟ وكلهم اهل وعشيرة .

ولا تسلني كيف وقفنا للصلاة في صفوف تتلوى كالثعبان ، والفتيات خلفنا قيد اذرع منا وهمساتهن وضحكاتهن المنغمة تعبث بمشاعرنا ، وعطورهن النفاذة تكاد تصعد بها انفاسنا .

وامنا شيخ من الفقهاء الذين نزحوا للبادية منذ عهد بعيد واستقروا بهـا يبيعون الرقى والتعاويذ للبدويين ، تزوج من البادية وصار واحداً من اهلهـا ، وخطب خطبة العيد من كتاب قديم ممزق بلغة عربية فصيحة مسجوعة ، واكاد اجزم ان احداً من المصلين لم يعرف ماذا كان يقول الخطيب . .

مهلا – نسيت ان اقول شيئاً هاماً ، ان اكثر المصلين من الشيوخ جاءوا بشيء عجيب ، ان كلا منهم كان يحمل معه بعض (بعر) ابله ويضعه امامه في احترام زائد قرب موضعه للصلاة ، وكنت ارقب هذا في حيرة بالغة ، وعرفت السر فيما بعد أنهم يتفاءلون بهذا ويعتقدون انه يجلب السعادة لهم فتزداد ابلهم وتتكاثر . . وما كادت الصلاة تنتهي حتى عمد كل منهم الى البعر الذي احضره وصار (يشمته) في اهتمام بالغ ! ، الم اقل ان الابـل هي كل شيء في حيـاة البدويين ؟ . .

وحسبت ان القوم سينصرفون الى بيوتهم بعد ان ادوا الصلاة ، وهنا بدأ سر هذه المجموعة من الفتيات والفرسان ينكشف لي رويـداً رويـداً ، فان

احتفالهم التقليدي بالعيد بدأ بعد الصلاة مباشرة .

اسرع الفرسان الى صهوات خيولهم ووقفوا صفوفاً في اول الميدان ، وفي مقدمتهم الشيخ علي التوم واخوانه وكبار شيوخ القبيلة وابناؤهم وكلهم على صهوات الخيل ودوي النحاس يرتفع في قوة وعنف في طرف الميدان ، وبدأ عرض الفروسية .. وخرج من صف الفرسان الشيخ علي التوم واخوه محمد التوم يعدوان عدوا منتظما بحصانيهما وتكاد تحسبهما على حصان واحد لشدة توافق خطوات العدو والتزام الفارسين ، ويسمى هذا العرض عندهم بـ (القلب) بفتح القاف واللام .

وتعالت زغاريد النساء والفتيات عندما برز الشيخ علي واخوه يبدآن العاب الفروسية . وتتابع الفرسان بعدهم ، كل اثنين معاً ، من اول الميدان حتى اخره في عرض فروسي رائع والخيل تركض بهم ركضا تحس فيه بالزهو والخيلاء اذ تحكم الفرسان فيها فلا يتجاوز حصان حصانا آخر .. وكلما اكمل الفرسان شوطا بدأوا شوطا آخر ،وكان يبدأ الشوط الجديد دائماً الشيخ علي التوم واخوه الشيخ محمد التوم ثم يتتابع الشيوخ والشباب بعدهم يكملون العرض ، وزغاريد النساء تعلو وترتفع والنحاس يوالي ايقاعاته التي كانت تساعد الفرسان على التحكم في عدوهم - او قلبهم - وفق هذه الايقاعات .

وانقضى هذه العرض الممتع ، وحسبت اننا سنعود الى الحي ، ولكن كانت هناك ايضاً مفاجأة اخرى لا تقل روعة عن تلك . واستطعت بعدها ان ادرك لماذا تجمعت الفتيات في ازيائهن الزاهية حول مكان الصلاة ، مثلما ادركت منذ قليل لماذا جاء الرجال للصلاة على صهوات الخيل والمكان قريب ! .

اسرعت الفتيات عقب انتهاء العاب الفروسية الى حلقات متقاربة وفي ذات الساحة التي شهدت صلاة العيد والعاب الفرسان ، وتعالت اصواتهن الندية بغناء جماعي شجي وسرعان ما تجمع الشبان حولهن ، وصارت لكل حلقة ، نصفها من

رجال ومثلهن الفتيات وارتفع من صدور الرجال كرير منغم مع صفقة موقعة بجسمهم وايقاع منتظم بارجلهم وانتظمت بهذا موسيقى بدائية حلوة الوقع ساذجة النغم ..

وبرزت الى منتصف الدائرة فتاة ممشوقة القوام، وقل ان ترى بين البدويات من اثقلها السمن – فنضت ثوبها عن رأسها وعنقها وجانباً من الصدر، واخذت ترقص على تلك النغمات تارة في هدوء وسجو، وتارة تقفز قفزات موقعة، ورأسها وعنقها وصدرها تهتز وتتثنى في انسجام وتوافق، وهي تدنو من الشبان الذين « يطمبرون » حتى لتكاد تلامسهم بجسمها وتخص كلا منهم « بشبال » تومىء به من شعرها ايماء على بعد خطوة او خطوتين من الشاب المعني، وهو يحني لها رأسه في اجلال رداً لتحيتها .. حتى اذا ما ارضت كل فتى من الذين يصفقون ويطمبرون، عادت الى اخواتها في خطوات راقصة وهي تتثنى وتتأود وقد تختتم رقصتها « بشبال » اخير تخص به الفتاة التي تقود الغناء في تلك الحلقة ..

وتعود فتاة اخرى الى الدائرة لتأخذ حظها من الرقص، وقد تحمل هذه مرة في يدها « سوطاً » يشاركها الاهتزاز والتثني .

وحول هذه الحلقات الراقصة يجتمع الفرسان على خيولهم وراكبو الجمال من خلفهم يتطلعون الى الرقص من على ظهور الجمال، وتراهم يتبادلون الانتقال من حلقة الى اخرى، اذ هناك اكثر من حلقة راقصة تعلن الابتهاج والفرحة بالعيد .. وتظل هذه الحلقات في رقص وغناء ومرح الى ما يقرب من منتصف النهار .

وفي الحي ترتفع رائحة الشواء حيث يقدمونه لبعضهم مصحوباً بشروب محلى يصنعونه من الدخن اقرب الى « المريسة » يسمونه ام شكة ويكاد لا يخلو منه بيت ولا يتردد احد في تناوله .. وقد يكتفون بهذا الشراب وحده عن اي طعام آخر .. ولا يقدمون في بيوتهم غير هذا الشراب والشواء والشاي الاسود .

وعند الظهيرة يركب « الشيخ علي » حصانه ومعه خاصة اهله حيث يطوف على بيوت الحي والاحياء القريبة مهنئاً بالعيد ، ولكنه قل ان ينزل عن حصانه ليتناول شيئاً من طعام او شراب الا عند بعض خاصته .

فاذا جاء المساء ونثر القمر شعاعه الفضي على تلك الرمال البيضاء تجمعت الفتيات مرة اخرى في حلقات وارتفعت اصواتهن الندية العذبة بالغناء ، وخف اليهن الشبان وتنتظم حلقات الرقص ، ويبقى هذا السامر البدوي في غناء ورقص ومرح حتى الهزيع الاخير من الليل .

وكنت اطوف مع شبان الحي – وقد انست اليهم وانسوا الي – على هذه الحلقات ، وكنت اعجب لمنظر الشيوخ وقد عبث الشيب بهم وتخددت وجوههم وهم يقبلون على هذه الحلقات في نشوة الصبا ومرح الشباب ولا يرون في ذلك بأساً .. وان حلقات الرقص هذه لا يتحرج احد مهما كانت سنه او مكانته من الوقوف عندها وان يأخذ حظه من الامتاع بمشاهدتها .. فهي اشبه بدور السينما والتمثيل في البلد المتحضر لا يخجل شخص من غشيانها .

وكان يعجزني ان اقف مثلهم طويلا لدى هذه الحلقات ، فاعود الى خيمتي مجهداً أحاول النوم – ولكن تلك الاصوات الحلوة الآسرة المنبعثة من تلك الحلقات تلاحقني بذلك الغناء الشجي الذي يصور عواطفهم الحرة الطليقة ، فتقض مضجعي وينفر النوم عني وأظل ساهراً حتى الهزيع الاخير من الليل وتخفت تلك الاصوات الرائعة .. ولكم كانت تهزني هزاً اغانيهم الساذجة الحلوة تتحدث عن عواطفهم المشبوبة وحبهم الجارف دون تورية او خداع .. ولكم كانت تلك الاصوات تشدو بمثل هذه الاغنية العاطفية :

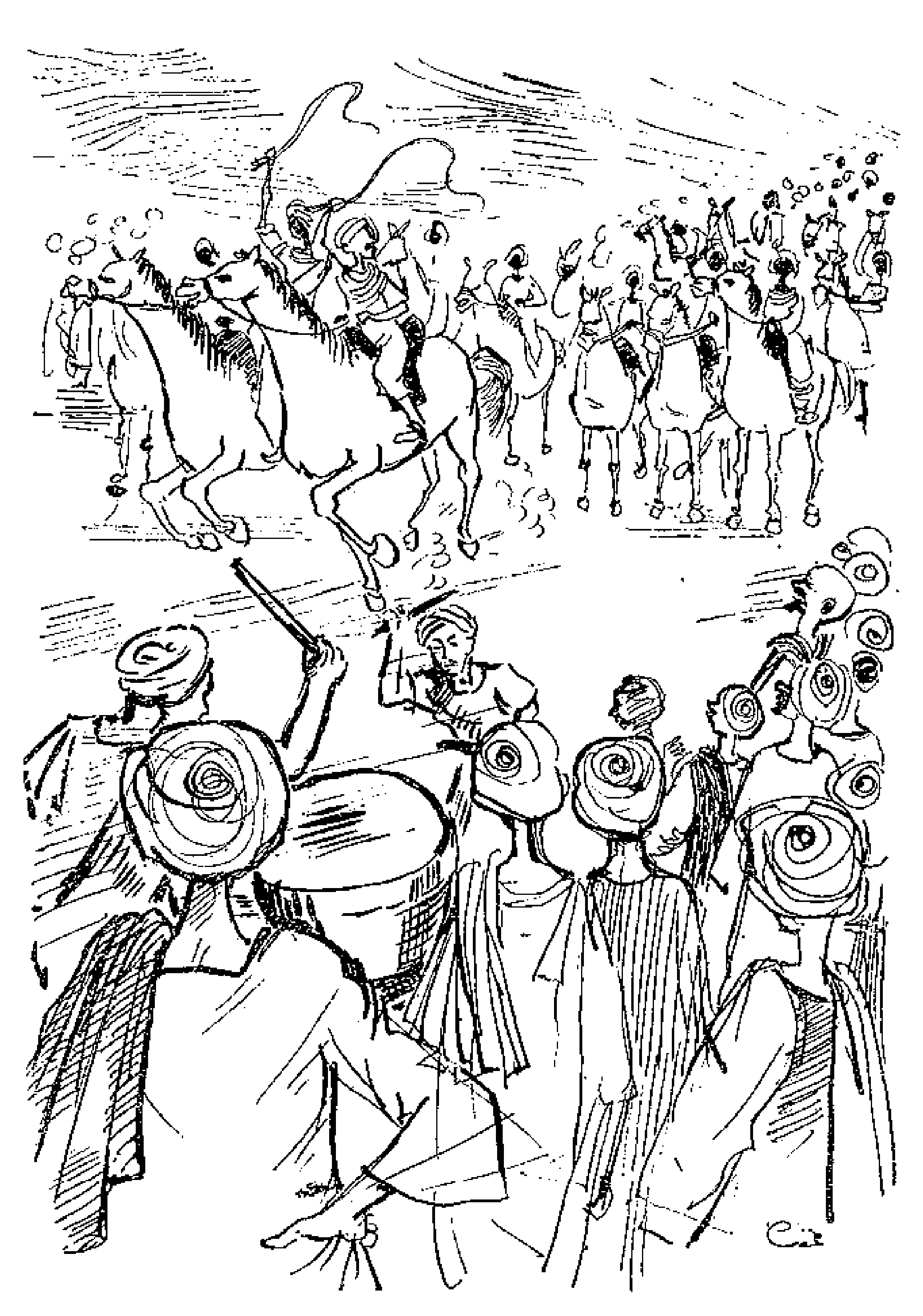
سرجه على مقافي
ودعته في العافي
يا تومي ما تجافي
عهدي المعاك صافي

اي .. لقد ركب الحبيب جمله موليا « مقافي » وودعته متمنية له العافية في العافي) .. فيا ايها الحبيب لا تجف (ما تجافي) فان عهدي الذي قطعته لك عهد نقي صاف لا خداع فيه ولا زيف .

لست ادري وقد مضت السنون وانقضى اكثر من ربع قرن على ذلك العهد الاخضر أما تزال ظباء الحمراء تحتفل بالعيد بمثل ذلك الغناء والرقص والمرح الدافق؟ والشبان والشيوخ على خيولهم وجمالهم يتحلقون من حولهن يرتوون من ذلك النبع الفياض بالسحر والفتون ؟ ونحاس الشيخ علي يدوي كالرعد يلهب المشاعر ويزيد من حيوية تلك الحلقات المرحة ؟

لست ادري .. ومن لي بأن ادري ، وانا كما يقول شوقي : -

وهب الزمان أعادها هل للشبيبة من يعيد ؟!



العيد، سباق وغناء ورقص

مع نيوبولد في البادية

ذات يوم ونحن ما زلنا في الحمراء ، او حمرة الشيخ ، كما يسمونها جاء الى الشيخ علي جندي من مركز سودري يحمل رسالة من المفتش تنبئه بأن المستر دوجلاس نيوبولد مدير كردفان آنذاك – في طريقه لزيارة الحمراء .

ونفح الشيخ – كعادته الجندي حامل البريد هبة مالية سخية وكتب للمفتش معرباً عن سروره بهذه الزيارة .

وفي الواقع كما ايقنت فيما بعد – ان بين نيوبولد والشيخ علي صداقة شخصية وثيقة العرى ، وان كل منهما يحمل للآخر تقديراً بالغاً . وما رأيت الشيخ علي يهش لزيارة اداري بريطاني كما كان يهش لزيارة نيوبولد ، وقد بدأت الصلة بينهما عندما عمل نيوبولد في اول عهده بالادارة مفتشاً لدار الكبابيش وتوثقت صلاته بالزعيم البدوي منذ ذلك العهد .

قلت ان الشيخ علي نفح الجندي الذي جاء بالبريد بهبة مالية سخية ، وهنا لا بد لي من ان أقف قليلاً لأتحدث عن كرم هذا الزعيم البدوي الكبير . فقد اشتهر بسخاء اليد وكان يقصده اصحاب الحاجات – ليس من اهله وحدهم بل من مختلف انحاء البلاد وخاصة من كردفان ويندر ان تشرق شمس يوم جديد

دون ان يكون في ضيافته عـدد من طلاب الحاجات وما كان يرد واحداً منهم قط ولم يضق بهم ذرعاً او يبدي تبرماً من كثرة تهافتهم عليه طوال فترة الاربع سنوات التي عشتها معه . وأذكر بصفة خاصة « الشناقيط » الذين كانوا يعبرون السودان في طريقهم لاداء فريضـة الحج اذ كانوا يتعمدون السير عن طريق دار الكبابيش التماساً لعون الشيخ علي، فكان يعينهم ويجزل لهم العطاء وكانوا يدعون له في مناسك الحج ويكتب له ذلك من يستطيع الكتابة منهم ويؤكده مـــن يعود بنفس الطريق .

وكان اذا ما قصد مركز سودري او باراً في مهمة رسمية – وهو قل ان يتحرك من باديته ما لم يكن هناك اجتماع رسمي يدعى اليه – أغدق العطاء على جميع الموظفين والجنود والمراسلات وكل من يعمل في « المركز » لا يفرق بـين كبير او صغير منهم ، كل حسب منزلته وكانوا يتقبلون ذلك منه كلما هل ركبه عليهم في تقدير كبير وولاء شخصي أكيد ولا يرى احد من الموظفين في هـــذا العطاء معنى من معـــاني « الرشوة » بل كانوا يرون فيه معنى من معاني الابوة النبيلة ، ولم يكن الموظفون والجنود والعمال وحدهم الذين يعينهم بعطائه بل كانت فترة بقائه زائراً في المدينـة فرصة للمعوزين وذوي الحاجات يقصدونه زرافات ووحدانا .

ومن الطرائف التي لن أنساها ما حييت ان صديقاً لنا كان يعمل (مساعـد حكيم) في مركز سودري وكان عمله يقتضيه ان يطوف على كثير من احياء بادية الكبابيش وخاصه حي الشيخ علي ليعالج المرضى هنـــاك مما جعله على صلة قوية بالشيخ ، وكان هـذا المساعد رجلاً لطيف المعشر واضح الشخصية – وذات يوم كان هو ومأمور المركز والصراف والمترجم يتآنسون عقب وصول البريد اليهم من بارا بالجمال .. ووصول البريد في تلك المناطق النائية حدث اسبوعي يترقبـه الموظفون والتجار في لهف وشوق لانقطاعهم عن أنباء العالم اذ لم يكن في تلـك الايام قد ظهر « الراديو » الذي ربط بين جميع أنحاء العالم .

وفي هذا البريد كانت تصلهم جريدة « حضارة السودان » التي كانت توزع مجاناً على المكاتب الحكومية بوصفها جريدة شبه رسمية — وقد بسطوا في جلستهم تلك جريدة الحضارة بينهم يقرأون اخبارها ويتناقشون في محتوياتها ، وكان في ذلك العدد حديث عن التعويضات التي اتفقت عليها حكومة السودان مع الحكومة المصرية لتعطي للأهالي الذين ستغمر مياه خزان جبل اوليا اراضيهم الزراعية والسكنية وذلك عندما تقرر بناء هذا الخزان باتفاق بين الحكومتين ، واحتدم النقاش بينهم حول هذه التعويضات التي اتفق عليها اتعتبر مجزية وكافية ام لا ؟..

وبينما كان النقاش محتدماً حول تعويضات خزان جبل أوليا ، وقف بالباب بدوي كباشي يسأل عن الحكيم يحمل رسالة من الشيخ علي ، وأدخل البدوي على المجتمعين ، وناول الحكيم الرسالة ففضها وشرع في تلاوتها .

بينما استمر الآخرون في نقاشهم ... وعلم صاحبنا من الرسالة ان الشيخ قد بعث اليه مع الرسول سبعة جنيهات ونصف الجنيه هدية خالصة له .. ولا يغيب عنا ان هذا المبلغ في ذلك الوقت يعد مبلغاً محترماً جداً ، اذ كان الجنيه الواحد ثروة غير يسيرة ، وشغل صاحبنا فترة من النقاش بهذه الهبة السخية التي يبدو انه جاءته في الوقت المناسب . ثم التفت الى أصحابه ليواصل النقاش معهم ، وكان من أنصار كفاية اعتماد التعويضات المقدرة .

وارتفع صوته الجهوري ليقول ، ويده تحاول اخفاء الرسالة في جيب الرداء .. (الحقيقة يا جماعة ان مبلغ سبع جنيهات ونصف كفاية جداً لاعتمادات جبل اوليا) ...

ودهش رفاقه ، ولكنهم ادركوا بسرعة فائقة ان في الخطاب سراً، فهجموا عليه وانتزعوه من جيب الرداء ، فعرفوا ان السبعة جنيهات ونصف الجنيه هي هبة الشيخ (للحكيم) وليست اعتمادات جبل اوليا فأغرقوا في الضحك وكان سعد الحكيم أكثرهم اغراقاً في الضحك !

ومنذ ذلك الحين اطلقوا على هبات الشيخ علي (اعتمادات جبل اوليا) فكان اذا جمعت الظروف احدهم بالشيخ ، او جاءهم زائراً للمركز ، سأل كل منهم الآخر .. كم كان اعتماد جبل اوليا ؟ .. وتتعالى الضحكات المرحة .

رحم الله الشيخ علي فقد كان (شيخ عرب) بكل ما كانت تحمله هذه العبارة عند آبائنا وأجدادنا من فضائل .

اعود الى زيارة نيوبولد ، فقد استعد الشيخ لاستضافته بنصب عدد من بيوت الشعر امام الحي بعدد الضيوف القادمين .. وجاء الموعد المضروب لوصول نيوبولد ، وقرع النحاس وخرج الفرسان كعادتهم للقاء الضيوف وفي مقدمتهم الشيخ واخوانه وأبناؤه وبنو عمومته ، وكنت ايضاً قد تأقلمت معهم ، فأحسنت ركوب الجمال والخيل ولم يعد يستعصي علي ان أعدو بالحصان او الجمل الى أقصى مدى ، بل صرت أحياناً اسابق شبان البادية وان كان يندر ان افوز بالسبق فقد كانوا أعتى واشد مراساً من ان يسبقهم دخيل على حياتهم البدوية الخالصة .

وكنت ارتدي بادىء بدء عند وصولي البادية (الجلابية) فقط ، وكانت كل ملابسي ناصعة البياض ، فكنت كلما خرجت من خيمتي رمقتني الاعين من كل جانب وخاصة من اولئك الذين لم تتح لهم زيارة المدن ويرون مثل لبسي هذا ، فكانوا يعجبون لهذا الجلباب الطويل الناصع البياض ، وكان هذا مظهراً نابياً بينهم . وموضع التندر عند بعضهم ، والبدوي الذي يبدو لك في المدينة اقرب الى البلاهة وتبلد الاحساس ، ذو ذكاء فطري ، حاضر البديهة ، مرح يرسل التعليقات الساخرة اللاذعة في سهولة ويسر .

ولم اجد بداً من ان ارتدي مثلهم ، سروالاً طويلا وقميصاً لا يتجاوز الركبتين ، والتفح بالثوب احياناً ..

خرجنا لاستقبال نيوبولد وانا معهم بهذا الزي البدوي على فرس بسرج

عربي ، حتى اذا ما ظهر موكب الزائر من بعيد ، انطلق الفرسان بخيولهم نحو الركب وصيحاتهم القوية تشق الفضاء ، فلما بلغوهم كبحوا جماح الخيل واحتاطوا بالضيوف من كل جانب .

واناخ نيوبولد الجمل الذي كان يركبه ، وفعل مثله الاداريون البريطانيون الثلاثة الذين كانوا يرافقونه ، وترجل الشيخ عن فرسه وفعل ذلك كل المستقبلين ، وتقدم كل منهما نحو الآخر وتعانقا في لقاء حار ، ثم تقدم نيوبولد من المستقبلين واخذ يسلم عليهم فرداً فرداً ، وقد لاحظت انه يعرف اكثرهم وخاصة الشيوخ منهم اذ كان يسلم عليهم بحرارة ويسأل عن ابنائهم بالاسم .. وقدمت اليه في تلك اللحظات ، فبدت عليه الدهشة وهو يراني مندمجاً مع البدويين مرتدياً مثلهم ، وصافحني محييا وهو ينظر الي نظرة فاحصة وعلى وجهه شيء من الدهشة التي غلفها ببشاشة واضحة .. وكانت تلك أول مرة أرى فيها نيوبولد الذي لمع اسمه فيما بعد في دنيا السياسة ولم يدر بخلدي وانا أراه في البادية في مستهل عام ١٩٣٣ انه سيقوم بذلك الدور الخطير في تاريخ بلادى ، اذ لم يكن يعني في نظري انذاك – وانا شاب متحمس في مستهل العمر غير مدير انجليزي يرهب الناس ويخيفهم ويحكمهم بالقوة .

وانتظمنا ركباً واحداً متجهاً نحو الحي ، وتقدم ركب المدير الجنديان حاملا العلمين المرفوعين وخلفهما نيوبولد والاداريون الثلاثة والشيخ علي وخلفهم قلة من جنود البوليس (الهجانة) والمستقبلون من حي الحمراء ، وكان موكباً كبيراً .

وبلغنا الحي ودوي النحاس يزداد ارتفاعاً كلما اقتربنا منه وحول النحاس عدد من البدويين الراجلين يعرضون على ضربات النحاس وعدد من الفتيات يغنين ويرقصن كما جرى التقليد في مثل هذه الاستقبالات .

ونحر الشيخ عدداً من النوق والخرفان تكريماً للضيوف ، وطعم الحي كله

من لحم الابل ، وظل يذبح يومياً عدداً من الخرفان اكراماً لضيوفه طوال الفترة التي قضوها معه .

ودعا الشيخ المستر نيوبولد ورفاقه الثلاثة الى الغداء التقليدي الذي اعتاد ان يعده لزواره ، ودعاني معهم ، واقبلنا على منزل الشيخ في موعد الغداء .. الارض كالعادة مفروشة بالسجاد ، ولا شيء سوى هذا ، وتربع نيوبولد عليها وفعل مثله الاداريون الآخرون ، وجلست والشيخ في مواجهتهم وفي مثل جلستهم ، واقبل الخدم يحملون جفان الثريد والشواء الذي تم انضاجه على الجمر مباشرة على طريقة البدويين المعروفة .. واقبل نيوبولد على الطعام بيديه ، تارة يأخذ حظه من الشواء وتارة يدفن يده في جفنة الثريد يلتهم منها، وكنت انظر اليه متأملاً ، فما رأيت عليه تكلفاً فيما كان يصيب من الطعام . ولم اره يتأفف من هذا الطعام البدوي الذي يتناوله بيده على غير مألوف عادته ، ومرة اخرى ازددت ادراكاً وفهماً لتفاني هؤلاء البريطانيين في اداء رسالتهم نحو امبراطوريتهم وتثبيت اقدامها .

على اني لحظت ان احد المفتشين الثلاثة ، ولعله لأول مرة يخوض هذه التجربة القاسية ، قد آذاه ما في الثريد من (شطة وملح) فما كاد يبتلع اللقمة الاولى حتى احمر وجهه وتوقف عن الطعام !.. ثم لحظت ان جاره يتحدث اليه همساً باللغة الانجليزية لكي يعاود التجربة حتى لا يسيء الى ضيفهم الكبير بالامتناع عن تناول طعامه ، فمد يده الى قطعة من الشواء وكنت اتابعه بدقة دون ان يفطن الي ، فما كاد يديرها في فمه حتى ازداد احمرار وجهه ثم ازدردها بسرعة ، وأخذ يتحدث مرة اخرى الى جاره ، وابتسم زميله ، وما شككت في انه كان يقول له انه لا يستطيع ان يمد يده مرة اخرى لهذا الطعام لأنه توقف بعدها عن مشاركتنا في الاكل ، وقال جاره معتذراً عنه ، بانه أحس بمغص مفاجيء !..

وفرغنا من تناول الثريد والشواء ، وجاء الخدم بالشاي الاسود في اكواب

الدجاج الصغيرة ، فتناولوه وقد اوقد كل منهم غليونه وظلوا في انس لطيف دار اكثره بين نيوبولد والشيخ عن مواضيع عامة بعضها عن بعض عادات الكبابيش ، وموقف المرأة الكباشية من الرجل .

ونيوبولد ربع القامة ، اقرب الى البدانة ، حاد الذكاء ، يفهم ما تعني قبل ان تكمل حديثك .. دعاني في زيارته تلك اكثر من مرة الى خيمته لأشرب معه الشاي ، وقد سألني اولاً عن عملي ومبلغ رضائي عن حياتي في البادية ولم اخف عنه مدى ما اعاني من صعاب في حياة البادية ، وقد كتب في رسائله التي صدرت في كتاب بعد موته عن هذا اللقاء معي ، وقد فهم من حديثي عن صعاب حياة البادية لشاب مثلي اني اريد تحسيناً في وضعي المادي ..

وقد تحدث معي ايضاً عن تاريخ العرب وتاريخ هذه المنطقة خاصة ، مستعيناً بدراسته في الاثار التي تحفل بها منطقة غرب كردفان ، وقد عرفت انه مولع بهذه الدراسات وان له بحوثاً تاريخية قيمة اثبتت في (السودان في رسائل ومدونات) وانه قام برحلات طويــــلة الى المناطق الاثرية في غرب كردفان ودارفور ينقب ويبحث ويسجل ، وكنت عند مجيئي لدار الكبابيش قد علمت انه كان قبل فترة في زيارة (لوادي هور) وهو واد يفيض بالماء في الخريف . يبدأ من جبل مرة ويشق الصحراء حتى دنقلا ، حيث يلتقي بالنيل هناك ويصب فيه وقد قامت حول هذا الوادي في الزمن الغابر حضارة تتحدث عنها آثارها التي لا تزل باقية من رسوم وصور ونقوش وآثار من الفخار وغير الفخار بقي منها ما يتحدث عن الحضارة التي كانت حول وادي هور رغم الآماد الطويلة التي مرت عليه منذ ان انتهت تلك الحضــارة .. ويبدو ان هذا الوادي ، الذي لا يفيض الآن بالماء الا في فصل الخريف ، كان نهراً دائم الجريان بدليل الحضارة التي كانت قائمة حوله عبر الصحراء .

ووادي هور ، هو الوادي الذي ألهم استاذنا الشاعر الكبير محمــــد سعيد

العباسي رحمه الله – قصيدته المشهورة – التي حملت اسم هذا الوادي – وكان العباسي ، وهو رجل مولع بالترحال ، قد سافر اليه بالجمال وقضى على ضفافه اياماً عديدة يستوحي مآثره وتاريخه ويتأمل حاضر البلاد وكانت آنذاك ترزح تحت نير الاستعمار ، فأنشأ قصيدته : –

بكرت تعاتب من بكر	اسوان نضو هوى أسر
يا قوم ما بي مـا يسو	ء فما لهنـد لا تسر

وفيها يقول : –

سبحـان ربي أين وا	دي النيل من وادي هور
وادي الجحـاجحة الالى	عمروه في خـالي العصور

وسأتعرض لها في شيء من التفصيل عندما أتحدث عن العباسي في البـادية .

لم ألق نيوبولد شخصياً بعد زيارته هذه للحمراء . الا مرة واحدة انقذتني – دون ان يدري هو من (ورطة) كنت اعاني منها كثيراً ، الا اننا التقينـا عن طريق ذلك الصراع المرير الذي خاضه الشعب السوداني ضد السياسة الاستعمارية التي قادها نيوبولد عندما صار سكرتيراً ادارياً للحكومة وتجمعت في يديه جميع خيوط السياسة .. ولكن الله الذي تعـالت قدرته ودامت حكمته وهب القوة والاستطاعة لهذا الشعب لينتصر في معركة غير متكافئة القوى فتتحقق حريتـه ويتم استقلاله .

شندي ونيوبولد والعقاد

قلت في حديثي السابق ان نيوبولد قد انقذني من ورطة كنت أعانيهـا دون
ن يدري بما أسدى اليّ من يد .

نقلت الى شندي في أواخر الثلاثينيات بعــد فترة خصبة عشتها في مدنى
ـتمت فيها مع رفاق أعزاء في تكوين الجمعية الادبية ذات الاثر المعروف في تاريخ
نث الحقبة ــ وشندي مدينة لطيفة لها في نفسي أطيب الذكريات وأبقاها التقيت
فيه بمجموعة فريدة من الاصدقاء الأوفياء جمع بيننا حب المعرفة والالتقـاء في
كثير من الافكار وعندما برز مؤتمر الخريجين الى حيز الوجود كان لا بد من ان
تجاوب مع العاملين له فكونا لجنة فرعيـــة باسم المؤتمر وشرفني اولئك الرفاق
باختياري سكرتيراً لهذه اللجنة وسكرتيراً للنادي، وكانت لجان الأندية والمؤتمر
نظهر الاجتماعي والوطني الذي يضم العاملين لخدمة البـلاد .. وكان مفتشو
مراكز .. وكلهم كانوا من الانجليز آنذاك .. يرقبون هذا النشاط الجديد لمؤتمر
خريجين ويعملون له ألف حساب ويهتمون بأمر القائمين به ويتتبعونهم في دقــة
وحرص .

وكان مفتش شندي في ذلك الوقت المستر ريتشارد ، وهو انجليزي خبيث
نظرية شديد الكراهية والمقت لأي نشاط يشتم فيه رائحة الوطنية ولهـذا كان

ينظر الي نظرة سيئة وكنت أتوجس منه شراً وكان ينظر الى جميع أفراد مجموعتنا نظرة توجس وتربص ولكن شاء حسن حظنا ان يكون بجانبه بعض الاداريين السودانيين ذوو الخلق والوطنية ، كان مأمور المركز المغفور له السيد عبدالرحمن رمضان ونائبه السيد مصطفى يوسف تكونه ، ثم حل الاخير محل الاول بعد نقله وكانا على صلة وثيقة بمجموعتنا ويناصران جميع ألوان النشاط التي كنا نقوم بها وخاصة في محيط المؤتمر ، وقد استطاعا بجهوداتها الخاصة ان يصرفا عنا شر المستر ريتشارد ويقلما أظفار غضبه علينا كلما نقل اليه شيء عن نشاطنا في الدعاية للمؤتمر .

وكان يزور مجموعتنا الحين بعد الحين بعض أصدقائنا العاصميين ذوي النشاط الواسع فيزيده ذلك حنقاً وسخطاً .. اذكر ان زارنا السيد أحمد خير وكان آنذاك موظفاً بمدني ومحور نشاط الجمعية الادبية وهو صاحب فكرة المؤتمر ، فاحتفينا به وقدمناه ليلقي محاضرة في النادي ، ومن شندي ذهب أحمد خير الى عطبرة فبورتسودان حيث حاضر في كل منهما .. وقد خلف في شندي أثراً حميداً عند جمهور المدينة ولكنه ضاعف من مشاكلنا مع المستر ريتشارد الا ان الأخ مصطفى تكونه كان يكبح من جماح شره .. ومع هذا فقد كان ريتشارد كلما التقى بواحد منا يشعره بما يعتمل في نفسه من شعور سيء نحوه .

وكنت أسكن بالقرب من محطة السكة الحديد ـ مما جعلني في أكثر الاحايين أستقبل القطارات الرائحة والغادية ، وخاصة القادمة من الخرطوم حيث ألقى صديقاً أعرف منه شيئاً عن اخبار العاصمة او اعثر على شيء من الصحف المحلية ، وأحمل ذلك للرفاق اذ كنا نجتمع كلنا للغداء معاً .. وذات يوم وأنا أسعى نحو القطار بالمحطة ، شهدت في مقدمته مجموعة من الاداريين والضباط البريطانيين كان من بينهم المستر ريتشارد يلتفون حول احدهم ، ولم اعرهم اهتماماً كبيراً وتخطيتهم مسرعاً نحو مؤخرة القطار حيث اعتدت ان ألقى المسافرين العاديين .. ولكن سمعت صوتاً يناديني باسمي في لكنة انجليزية من بين

مجموعة البريطانيين في تلك الحلقة ، والتفت نحو الصوت ولا أكاد أصدق سمعي ، ووقع نظري على المستر نيوبولد وهو يشير الي بيده ان ادنو منه ..وكان ذلك قد رقي الى منصب السكرتير الاداري لحكومة السودان وهو منصب يضع بين يديه القيادة السياسية والادارية في السودان ، فهو المحور الذي تدور عليه كل سياسة الحكومة ، واقبل الرجل يسلم عليّ في حرارة ، واخذ يتحدث بي عن اخبار الكبابيش في شغف ، ولم ينس شيوخهم فرداً فرداً ، وترك من حوله من الانجليز ليتحدث الي مليا عن تلامذتي في البادية . ولم يفته ان يحدثني عن الوفيات التي حدثت اخيراً .. وافاض في الحديث، وبما من شك انه عندما رآني جاشت في نفسه كل الذكريات العذبة عن دار الكبابيش التي كان يحبهـا ويؤثرها لفرط ما بينه وعلي التوم من مودة .. ولانها كانت موطن ذكريات مستهل حياته العملية . ثم ودعني في حرارة ملحاً علي ان ازوره عندما احضر للخرطوم .. كل هذا والمستر ريتشارد ينظر الي ساهمـا واجما .. وقد ادركت مدى الحيرة البالغة التي انتابته في تلك اللحظات ، وضحكت عليه في سري .! وقلت في نفسي الآن جاء دوري في الانتقام منه !.

وغادر القطار المحطة وعدت الى المنزل حيث تجمع الرفاق كعادتنا لتنـاول الغداء وسردت عليهم القصة وانا اغرق في الضحك، وقلت لهم اراهنكم ان المستر ريتشارد لن يهدأ باله اليوم ، وسيكون اول ما يفعـله في الغد ان يحضر الي في المدرسة ليستوثق من امر هذه الصلة ، وانه منذ اليوم سيبتعـد عن طريقي .. وصح ما توقعته . فقد جـاءني في الغد وعلى وجهه ابتسامة عريضة ـ وكان لا يلقاني الا متجهماً واضح الكبرياء ـ وتحدث الي متلطفاً عن بعض اعمال المدرسة ثم سألني عن معرفتي بنيوبولد واين لقيته !. وكان المفتشون يعرفون عن نيوبولد صلاته العديدة بأناس عاديين ، قد يكون احدهم موظفاً صغيراً او « شيخ حله » و « فكي » يعتقد فيه بعض الناس ، وكان حريصاً على صلاته بهم ، يتبادل معهم الرسائل في الشؤون المختلفة ويشجعهم على الاتصال به في أي حين .. وكان

المفتشون يخشون امثال هؤلاء المتصلين بنيوبولد ويعملون لهم ألف حساب خشية ان يتحدثوا عنهم بما يكره عنده .. ولم يكن ريتشارد يدري انني لم ألق نيوبولد الا في فـــترة قصيرة في دار الكبابيش ، ولكن حب الرجل للكبابيش وقوة ذاكرته وحدة ذكائه وحرصه على صلاته بمن يعرف جملتـــه يحرص على تحيتي عندما رآني في محطة شندي وأن يتحدث الي قليلاً عن تلك الفترة العذبة لكلينا في بادية الكبابيش ..

وكان المستر ريتشارد قبـــل ان يعين مفتشاً بالادارة مدرساً بكلية غردون القديمة واذكر انه عندما نقل من التدريس للادارة — وكان ذلك امراً طبيعياً في عهد الانجلـيز ان يعمـــل اي منهم مـــدرساً او مفتشاً او مديراً لمصلحة من المصالح — فهو يصلح لكل شيء — اقام له طلبة الكلية حفل وداع القى فيه الطالب الشاعر — الدكتور علي ارباب — قصيدة طويلة جاء في مطلعها : —

رأتني فتـــاة الخـــدر عيني تقطر	ودمعي على جفني يسيـــل ويحـــدر
فقالت وقد ازرى بها الشوق والهوى	فديتك هـــل لي من همومك مخبر
رويدك اني لست بالغيد مولعـــاً	ولا انا من يصبيـــه دن ومزهر
ولكنني في أثر من هو راحـــل	أودع ذكـــر المكرمات وأخـــبر

ومعذرة للصديق العزيز الدكتور عـــلي ارباب فكم سخطت عليه سخطـــاً لا مزيد عليه وانا اتلو هذا الجانب من قصيدته : —

أكيلة الخرطوم نوحي عليه مـــا	ترنمت الاطيـــار وانبثق الفجر
وكنت لنا براً رؤوفاً وملجأ	حفيـــا ومعواناً اذا نابنـــا الضر
فسر يا كريم النفس غير مذمم	الى مركز أسمـــى ومجـــد يعمر

ولم يكن رتشرد مفتش المركز بالرجل الكريم النفس مطلقاً ، وقد عانينا منه الامرين ، وعجبت للدكتور علي ارباب كيف يثني على مثله ويأسى لفراقه ،

وقد لقيني بعد ان نشر هذا في جريدة الثورة) عدد من زملاء الدكتور علي في عهد التلمذة ومنهم السيد امين زيدان بوزارة التربية والتعليم فحدثوني عن ريتشارد المدرس حديثاً جميلاً وقالوا انه كان مدرساً حقاً يحنو على طلبته ويعنى بأمورهم وانه كان موضع ثقتهم وتقديرهم ، وان الطالب علي ارباب قد عبّر عن شعورهم حقاً وهو يودع ريتشارد المدرس بقصيدته تلك ولكن ريتشارد المدرس ما كاد ينقل الى سلك الادارة ويعمل مفتشاً حتى لبس مسوح الحاكم المستبد وزاد من سوئه بطء فهمه اذ لم يكن من بين ذوي الذكاء الواضح .

وقد لقي مصرعه في ليلة هوجاء العواصف في حادث سيء ، فقد كان هو ومدير المديرية الشمالية (المستر لاش) ونائبه المستر كروفورد والمستر هرسون قاضي المديرية كان أربعتهم يسمرون في سينما عطبرة ، وبعد انتهاء سهرتهم قرروا العودة للدامر مقرهم الدائم ، ولما كان كبري عطبرة لا تسير عليه العربات فقد تركوا عرباتهم بالجانب الآخر – وعندما بلغوا الكبري عند عودتهم من السهرة بدأوا يعبرونه بأرجلهم حتى يبلغوا موضع عرباتهم ، وكانت الليلة حالكة الظلام هوجاء العواصف وبينما هم في منتصف الكبري دهمتهم قاطرة جاءت من عطبرة متجهة نحو الدامر ، ولما كانت الليلة مظلمة عاصفة ، فان السائق لم يرهم ومنعتهم هم شدة العاصفة وحلوكة الظلام من سماع صوت القاطرة تدنو منهم – وسقطت جثتا ريتشارد والقاضي هرسون في النهر وانتشلتا في اليوم الثاني ، ودفنتا في عطبرة في احتفال رسمي .

وأصيب المستر لاش مدير المديرية باصابات خطيرة ظل بسببها رهين المستشفى بالخرطوم امداً طويلاً – ونجا نائب المدير المستر كروفورد باعجوبة اذ احتمى باحدى الفجوات في الكبري ولم يصب بأذى . كان ذلك عام ١٩٤١ .

لم ألق نيوبولد بعد وقفتنا تلك في محطة شندي ، تلك الوقفة التي كفتني شر ريتشارد حيناً ، ولكن عندما زار الخرطوم الاستاذ عباس محمود العقاد وأخذنا

نتردد عليه ، شعرنا بمدى صلته الوثيقة بنيوبولد – وقد أشرت الى هـــذا في كتابي – ملامح من المجتمع السوداني – وكنا نبدي السخط كلما سعينا نحو العقاد في منزله وسمعنا انـــه في دار نيوبولد .. وكانت رحى الحرب الاخيرة دائرة وروميل في العلمين وجيوش ايطاليا في كسلا وكرمك .. وكانت النظرة السياسية تغلب على تفكيرنا وتلونـه .. وقد أهديت العقاد نسخة من كتابي – الملامح – ويبدو انه لم تعجبه اشارتي لزيارته لنيوبولد وابداء السخط عليها ، ذلك السخط الذي استوحيناه من طبيعة الفترة التي كنا نعيشها اذ كان نيوبولد يمثل في نظرنا الاستعمار البريطاني بكل عتوه وسيطرته ، وقد اسقطنا الجوانب الاخرى مـن حياة نيوبولد تلك الجوانب التي استهوت العقاد وجعلته يعجب به كل الاعجاب.

وأذكر أنني عندما زرت القاهرة اخيراً ذهبت الى دار العقاد في يوم ندوتـه وعرفته بنفسي .. فشاء ان يصحح مـا ذكرته عن صلته بنيوبولد في كتابي ، فأفاض بالحديث عن شخصية نيوبولد وعمق ثقافته وسعة افقه وقال عنه انه من طراز فريد من بين الرجال الذين عرفهم .. ويذكر القراء ان العقاد كتب راثياً نيوبولد بعد وفاته في الصحافة المصرية وأثنى عليه ثناء حاراً مشيداً بشخصيتـه وثقافته .. ومن أبرز صفات العقاد شجاعته في اعلان رأيه وان لم تخني الذاكرة فان العقاد في حديثه العابر عن نيوبولد في ندوته تلك أشار الى ان نيوبولد أهدى اليه جانباً من كتبه .

اعود قبل ان اضع القلم الى شندي وأذكر كيف كانت قبضة المفتشين الانجليز تشتد والحفنة المبـــاركة من دعاة الوطنية تعمل ودائرة عملها تتسع وخطط المستعمرين تتهاوى تحت ضربات المخلصين البررة ، ولم يستطع ريتشارد ومـــن خلفوه من أهله ان يمنع او يصد التيار الوطني الذي كان يزداد كل يوم قوة وعنفاً. ولن أنسى ما حييت يوم ان أعلن زعيم الجعليين المغفور له الحاج محمد ابرهيم فرح في شندي تبرعـــه لمؤتمر الخريجين بمائـــة جنيه مـساندة لدعوته لانشاء مال للتعليم لفتح مدارس اهليـــة ، في الوقت الذي أعلنت فيه الحكومة وحددت

سياستها التي تأمر بوجوب ابتعاد زعماء العشائر والنظار والعمد من المساهمة او المشاركة في اي نشاط لمؤتمر الخريجين العام ، وتلقت لجنة المؤتمر الفرعية بشندي هذا التبرع في فرحة طاغية وحملته الى المركز العام للمؤتمر بام درمان فاحدث هزة وطنية في قلوب المؤتمرين وموجات من السخط والاستنكار عند الحاكمين ، وقد أشاد بهـــذا الموقف الوطني الرائع شاعر المؤتمر صديقنا الكبير علي نور بقصيدة مشهورة جاء فيها : —

يا زعيم الجعليين ويا رأس القبيـــلة
يا فتى العباس قد أرضيت عما وخؤولة
جدت للمـــؤتمر السمح فشجعت ميوله
فارجع الناس الى الحق ففي الحق فضيلة
واغنم الحمد فان الحمد من شأن الجعولة
شعبة للعرب تنمى وهي في الأصل أصيلة
كلما يممــــها ذو حاجة أدرك سوله
فهي أندى الناس كفا وهي بالعرض بخيلة
انما مؤتمر الامــــة للخير وسيـــلة

لقد ذهب ريتشارد وذهب نيوبولد وانطوى عهدهما الى غير رجعة ، وبقيت الارض لاهلها ..

الشيخ يثور لكرامته

لئن فتن شاعرنا الفذ استاذنا محمد سعيد العباسي بدارة الحمـــراء بجبالها ووهادها ووديانها وهي مقر زعيم البادية في الصيف حيث تتجمع احياء بدوية عديدة حول الآبار ، فقد فتنتني كما فتنت البـــدويين كلهم (ام قوزين) تلك البقعة الخضرة حيث يتجمع البدويون حولها في اعقاب الخريف لينهلوا من ماء عذب فاضت به الامطار وامتلأت به هذه (الاضاة) التي يسمونها (ام قوزين) ولك ان تسأل ما هي الاضاة انها (الفولة) كما تسمى في اكثر مناطق كردفان الا عند الكبابيش فهي الاضاة وهي كلمة عربية فصيحة استعملهـــا العرب الاقدمون لهذا المعنى كما يؤكد ذلك القاموس ..

لقد فتن استاذنا العباسي بدارة الحمراء وانشد فيها روائع شعره كقوله :

قـل للغـمام الاربـد	لا تعد غور السند
وحي عني دارة الحمرا	وقـل لا تبعـدي
منازل يا برق اروت	امس غلة الصـدى
يا ويحهـا كم نظمت	شمل هـدى مبـدد

ولكن ام قوزين اذا ما قيست بالحمراء فهي جنة فيحاء وارفة الظلال سهلة

المورد ولا يجد فيها البدويون ذلك العناء الذي يقاسونه كلما هبطوا الحمراء في الصيف ، فالماء هنا تفيض به الاضاة سهلا ميسوراً لهم ولماشيتهم دون عناء .

اما في الحمراء فهم يمتحون من آبار بعيدة الغور .. آبار تتصل بأعمق تاريخ هذه البلاد ويسمونها (السواني) وهي آبار ليس للبدويين الا فضل اكتشافها بعد ان دفنتهـــا السوافي فهي تمت الى عهد ما قبل المسيحية حيث كانت تقوم تلك الحضارة الزاهرة والتي نرى آثارها اليوم منبثة في تلك الصحاري تشهد بمدى ما كان يمور فيها من حياة خصبة ينطق بعظمتها هذا القليل الذي بقي منهم .

فالسواني هذه قد حفرت الى عمق بعيد في ارض رملية تنهـــار لأقل دفعة وانك لتعجب كيف استطاعوا الوصول الى هذا الغور البعيد وكيف استطاعوا ان يحيطوا جوانب البئر من الداخل بهذا البناء القوي المتماسك من الحجارة الصلبة المنحوتة والتي ظلت قوية متماسكة آلاف السنين حتى عثر عليها البدويون فنزحوا عنها الرمال وبلغوا الماء ولم يجدوا انفسهم في حاجـــة الى اضافة حجر واحد الى جوانب البئر وما زالت السواني حتى اليوم مصـــــدر الماء للبدويين طوال اشهر الصيف وهي باقية كما انشأها اولئك العمالقة قبل عهد المسيحية في السودان .

ولما كانت هذه السواني بعيدة الغور جداً فقـــد صار من المستحيل ان يخرج رجال الدلاء من اعماقها بطريقة اليد المعروفة فلجأوا الى طريقة اخرى رائعـــة حقاً وذلك ان يربط رشاء الدلو على سرج جمل يركبه فتى او فتـــاة ، (وانا استعمل هنا كلمة (رشاء) — الحبل الدلو — كما يستعملها البدويون هنـــاك وهي كلمة عربية فصيحة وفي الواقع فان الكبابيش يحتفظون بذخيرة وفيرة من الالفاظ العربية الفصحى المهجورة الآن الا في المعاجم ويستعملونهـــا في سهولة ويسر في احاديثهم اليومية) . ويهطع راكب الجمـــل بعد ان يمتلىء الدلو ، شاداً الرشاء خلفه ويخرج الدلو بهذه الطريقة حتى اذا ما بلغ حافة البئر تناوله الرجال بأيديهم وافرغوه وعاد راكب الجمل مهطعاً ايضاً ليمكن الدلو من الهبوط مرة اخرى في

قاع البئر وانك لترى منظراً فريداً من الفتية والفتيات على ظهور الجمـال تغدو بهم وتروح حول البئر لتخرج الدلاء او تعيدها .

وللبئر عندهم أغان خاصة وبنغمة خاصة وتصاغ كلماتها عادة من وحي الحب الذي ينشأ من اجتماع شباب الجنسين حول البئر ، متشدين مثـلاً عن الحسناء الفارعة التي وردت البئر وصدرت بعد ان احرقت قلوب الشباب بحبها .. ولتلك الاغنيات نغم حنين آسر يتمثـل في ذلك المد الطويل في آخر كل مقطع فتحس بأنه يخرج من الأعماق اشبه بالآهة الطويلة لمكلوم يريد ان يتنفس .

ولا تخلو البئر من الوارد ليلا ونهاراً اطلاقاً كل اشهر الصيف ، ولهـذا أحب البدويون « أضاة » ام قوزين لأنها لا تعرضهم لهذا الرهق ، فتنطلق حولهـا اصوات الشباب مغردة من بين تلك الاشجار الملتفة حول الاضاة على طول امتدادها تعلن عن غبطتهم وتعلقهم بالحياة .

وفي أم قوزين هذه تعقد عادة المؤتمرات القبليـة التي يراد منها حل المشاكل التي تنشأ عادة بسبب الخلاف حول مناطق المرعى ، وقد تنظر فيها قضايا القتل التي تحدث لهذا السبب – التزاحم حول المرعى او المنـاهل – ويحضر هذه المؤتمرات النظـار والاشراف والشراتي والمشايخ والعمد الذين لهم صلة بالمشاكل المعدة للمناقشة كما يحضرها كبار الاداريين الانجليز ممن يعملون في هذه المناطق .. ويستضيفهم جميعاً الناظر الذي يعقد المؤتمر في داره ويبالغ في اكرامهم والاحتفاء بهم ، وقد يقيم معرضاً قبلياً او سوقاً للسباق ليكون المؤتمر حياً وممتعاً .. وكان الشيخ علي التوم يختار ام قوزين هذه لمثل هذه المؤتمرات عندما يكون هو المضيف.

وقد تعارف رجال هذه القبائل فيما بينهم على دفع (دية) لأهل القتيـل قد تبلغ نحو الثلثمائة جنيه ويطلق سراح القاتل وعادة تدفع الدية القبيلة كلهـا فداء لابنها السجين وقد تصر الحكومة احياناً على تنفيذ الحكم على القاتل عندما تكون جريمته مما يستوجب الردع كالقتل في حوادث النهب والسلب مثلا .

ولما كان الكبابيش من أثرى قبائل تلك المنطقة ولما يتمتع به زعيمهم من مكانة عظيمة ، فقـد كانوا اكثر جرأة على جيرانهم كلما احتربوا حول منهـل او مرعى .

ولقد احسست بهـذا الاعتـداد الواضح من اغـانيهم التي تصور حيـاتهم ومشاعرهم أدق تصوير .. ففي اغاني (الدابة)وهي اغان لا ينشدها الا الرجال اذ يقفون جماعة في صف واحد يمسك كل منهم بخصر الآخر يحوطه بيديه ثم ينحنون قليلاً (ويدبون) على الارض في خطوات موقعة فيها قوة وعنف ثم ينشدون مثل هذين البيتين مفتخرين معتزين بقولهم : —

نحن نقد   يا الممنوعة
وأبونا يسد   يا الممنوعة

اي نحن نفعل مـــا نشاء ونخرق كل وضع لا يعجبنا ، ولا خوف علينا فأبونا — ويعنون به الشيخ علي — سوف يسد ما خرقنا — اي ان له من القدرة ما يصلح به ما نفسد ... والممنوعة التي تتكرر في كل مقطع يعنون بها الفتاة الجميلة المتمنعة ، او التي حولها حراس اشـداء من أهلها يجعـلون الوصول اليها مستحيلاً .

وقبل وصولي للكبابيش بعهد قصير حدثت هذه القصة التي سأرويها وقـد جمعتها من مصادر شتى ، سمعتها من موظفـين عاصروها ، ومن بعض شيوخ الكبابيش ، وحاولت استقصاءها من الشيخ علي التوم شخصياً — رحمه الله — فروى لي الجانب الذي صدر من المفتش البريطاني بطل الحادث وضن علي كعادته بالجانب الذي يخصـه وان كان لم ينف ما تحدثت اليه فيه ، والشيخ علي قـل ان يتحدث عـن نفسه وعما فعل او يفعل . فكثيراً ما كان يدير الحديث الى ناحية اخرى اذا ما أحس من المتحدث انه يريد ان يجره الى حديث عن نفسه فيه ما يستدعي الثناء أو الاعجاب او المباهاة .

والقصة كما تجمعت لدي بكل أطرافها حدثت بين المستر جردان الذي نقل مفتشاً لدار الكبابيش والشيخ علي التوم .. ولنرجع الى الوراء قليلاً – ان الذين عاشوا في تلك المنطقة يعرفون جيداً ذلك التنافس الذي أدى الى نزاع طال امده بين قبيلتي الكبابيش والكواهلة المتجاورتين وهو نزاع طبيعي بين قبيلتين رعويتين في صحراء تقل مناهلها ومراعيها حيث تحاول كل منهما الاستئثار بالمنهل والمرعى .

ويمتاز الكواهلة بأن منهل (ام بادر) المعروف والذي تتجمع فيه مقادير ضخمة من الامطار تكفي للابل والبهائم والناس كل اشهر الصيف يقع في ارضهم – ولما كان الكبابيش يمتلكون عدداً كبيراً من الابل يتعذر بل يستحيل سقيها من آبارهم في الصيف فقد خصص لهم من قبل السلطات باتفاق مع الكواهلة جانب من ام بادر يستقون منه ولا يتجاوزونه .. ولكن بعض الكبابيش كان لا يخضع لهذا التحديد فيتجاوزه .

وكان هذا التحديد سبباً لنزاع لم تخف وطأته أمدا طويلاً .

وقبيل وصولي للكبابيش – ولعل ذلك في اواخر العشرينيات نقل المستر جردان مفتشاً لسودري وكان النزاع بين القبيلتين محتدماً ، وجردان كما يقول عنه كل معاصريه شاب معتد بنفسه الى حد الغرور بذيء اللسان كثير السخط على من حوله في تعال وكبرياء .

وعقب وصوله حدث شجار – كما كان يحدث دائماً – بين بعض الكبابيش والكواهلة حول منهل ام بادر أدى الى إصابات عديدة خطيرة .. وجاء المستر جردان الى ام بادر ليباشر التحقيق ويبدو انه قد كون فكرة سيئة عن الكبابيش واعتدادهم ، وانهم يتعمدون هذه الاعتداءات استناداً الى مكانة الشيخ علي عند الحكومة ، ولهذا لم يعودوا يحترمون القانون .. وربما امتد به سوء

الظن الى الشيخ علي نفسه وأنه يشجع أهله على هذه الاعتداءات ولا يثنيهم عنها. فانتوى أمراً : أن يخضد شوكة الكبابيش وان يخيف الشيخ علي التوم ويهدده ، فكان ان أرسل اليه من ام بادر حيث كان يستقر بجنوده ، رسالة ثائرة ساخطة مع احد الجنود وأمره ان يحضر لمقابلته في الحال بأم بادر .. وكان المفتشون يحضرون عادة لمقابلة زعيم الكبابيش في داره بالحمراء ولا يقسرونه على لقائهم في دار الكواهلة ما لم يكن هنالك اجتماع قبلي عام .

لست مستيقناً الآن عما اذا كان الشيخ علي قد استجاب للأمر فذهب للقاء جرداين في أم بادر ام لم يذهب وجـاءه جرداين في الحمراء حيث جرت بينهما مشادة كلامية ، وسواء تم اللقاء هنـا ام هناك فقد اتفق الرواة على ان جرداين بدأ الحديث في عنجهية وغلظة والشيخ ساكن ينظر اليه في هدوء ، وقيـل ان جرداين رمى الشيخ علي بانه قد اغتر للقب الذي منح له (سير) فظن انه فوق القانون ...

وترك الشيخ علي جرداين حيث كان هو في البادية وأعد ركبه متجهاً صوب الأبيض ليلقى مدير المديرية هناك ، ولعله كان في ذلك الوقت المستر جيلان الذي جاء بعدها سكرتيراً اداريا للحكومة ، وفي عهده تم التصديق بقيـام مؤتمر الخريجين .

وصل الشيخ علي للأبيض وكان يحمل معه نيشان القديسين ميخائيل وجورج الذي خول له حمل لقب (سير) اللقب الذي سخر منه بسببه جرداين وقابـل المدير ووضع بين يديه النيشان معلناً رده اليهم وهو يقول : لقد منحتموني اياه تكريماً وتقديراً وثقة منكم بشخصي وقلتم ان هـذا النيشان العظيم لا يعطى إلا لأفذاذ الرجال وان حامليه سيكونون دائماً موضع احترامكم وتقديركم وثقتكم ، ولكني عرفت الآن من المفتش جرداين غير هذه الحقائق ... وسرد للمدير كل كلمات المستر جرداين وأطلعه على خطابه الشديد اللهجة الذي بعث بـه اليه من

ام بادر يطلب فيه المثول امامه للتحقيق معه . وبعد ان انتهى من سرد موقف جرداين انهى حديثه قائلاً : انني استطيع ان اتخلى عن جميع ما منحتموني وأعود شيخاً عادياً بين اهلي وقبيلتي ، وان يستطيع جرداين قط ان ينتزعني منهم او ينتزعهم مني ، فتلك ارضي واولئك اهلي وعشيرتي و كفاني بهم .

وغضب المدير غضباً شديداً ، وأخذ يعتذر اعتذاراً حاراً وحاول جاهداً ان يسترضيه ويمسح الغضب من قلبه ... وارسل في الحال يستدعي جرداين من سودري على وجه السرعة واستبقى الشيخ علي معه أياماً حتى يصل جرداين ، وبالغ في الحفاوة به .

لا يستطيع أحد ممن رأوا الحادث وشهدوه ، ان يذكر على التحديد ماذا دار بين المدير ومفتشه ، ولكن الذي حدث على التحقيق ، هو ان المستر جرداين جاء في استجداء وضعف يطلب من الشيخ المغفرة والعفو ، واعتذر عما بدر منه اعتذاراً حاراً ... وقبل الشيخ الطيب القلب في نبل اعتذاره ...

ومن هنا يمكن ان نعرف شيئاً مما دار بين المدير ومفتشه – والذي حدث بعد هذا ان نقل جرداين في الحال كاتباً في سراي الحاكم العام بالخرطوم وأخرج من عداد رجال السلك الاداري .

وسمعنا بعدها بفترة قصيرة انه ترك العمل في السودان نهائياً ولسنا ندري أكان ذلك بمحض رغبته ايثاراً لكرامته ، أم ان لعنة خطئه مع الشيخ الكبير لاحقته فأمر بالاستقالة .

صورة حية لأولئك الرجال الذين عرفوا كيف يحتفظون بكرامتهم عالية في أسوأ الظروف الاستعمارية ، وبالرغم مما كانوا يتظاهرون به من صداقة مع الانجليز الا أنهم لا يسمحون لهم قط ان ينالوا من مراكزهم التقليدية او كراماتهم الشخصية ...

مدرستي وتلامذتي

كتبت عن كل شيء في البادية الا عن البراعم الصغيرة الحلوة العذبة اولئك الذين قطعت القفار على ظهور الجمال سعياً اليهم لأنير لهم طريق المعرفة، تلامذتي الذين علموني الكثير وأهدوا الي هذه التجارب الخصبة ، والجميل الرائع من الذكريات التي ما زلت أعيش عليها حتى نودع هذه الحياة غير الباقية لأحد .

لست أنساهم ما حييت في بساطتهم المحببة ، وحياتهم البدوية غير المعقدة وصراحتهم البريئة فهم لا يعرفون كيف يخفون ما في نفوسهم حيال كل شيء يرونه او يسمعونه .

أذكر اول يوم وصلت فيه البادية – وقد وصفت هذا اليوم في اول هذا الكتاب – اذ جئت في رفقة المستر لي مفتش دار الكبابيش ، ووصفت كيف استقبلنا الشيخ علي التوم ورجاله على ظهور الخيل المسرجة بالسروج العربية الفارهة والنحاس يدوي في الفضاء كقصف الرعد ، وذكرت كيف لقنت درسي الاول من تلامذتي الذين كانوا من بين الفرسان الذين استقبلونا والخيل تعدو بهم ، ولم أكد أستبين وجودهم على ظهورها لصغر أحجامهم وعلو حافات السرج العربية ، وظننت الخيول منطلقة وحدها بعد ان ألقت الفرسان على الارض ..

واستبنتهم بعد لأي لاصقين على ظهورها كالجن، وأرجلهم لا تصل الى موضع (الركاب) فعقدوا السيور قرب موضع السرج ودسوا أرجلهم الصغيرة القوية في تلك (العقدة) وتركوا الركاب يجول بين الجانبين !.

ولم أكن – انا مدرسهم – حتى تلك اللحظات قد ركبت حصاناً من قبل بل كنت ما ازال أعاني من تجربتي الاولى في ركوب الجمال في تلك الرحلة القاسية .

قضيت ليلتي الاولى في البادية مسهداً فقد كان كل شيء جديداً علي ، منه ما استطبته ووقع مني موقعاً حسناً ، ومنه ما نفرت منه وتأذيت .. وأخذت انظر بعين الخيال الى تلك المسافات الشاسعة التي قطعتها على ظهور الجمال حتى بلغت هذا المكان النائي بدار الكبابيش ، وتذكرت الجبال والوهاد التي اجتزناها بعد عناء ورهق شديدين، ولكم كان يخنقني السير كلما تراءى لنا جبل من بعيد.. فنحن نغذ السير نحوه ونظن انا سنبلغه بعد ساعات ، ولكنا نقضي أياماً حتى نبلغه .. ثم نخب ونغذ السير بمطايانا نهاراً وليلا ، وليلا ونهاراً وكلما أدرت بصري نحوه اراه ما يزال بجانبي أكاد ألمسه بيدي ..

والبدويون يستخفون بالمسافات البعيدة. فاذا ما ذر قرن جبل من بعيد على الأفق هللوا وفرحوا وقالوا : الحمد لله ، لقد وصلنا جبل كذا ، ولم يبق لنا من المسافة شيء يذكر ، وأفرح معهم ، فان السفر بالجمال في تلك الصحراء أياماً عديدة لممل ثقيل على النفس ، فأنت في حاجة لتسري عن نفسك وتخلق أملا منعشاً تعيش عليه فترة .. وظهور جبل من بعيد أمل جديد يبعث النشاط في القافلة ، ولكن هيهات ان نبلغه بتلك البساطة التي يتحدث بها البدويون . فالساعات تمضي بطيئة ويمضي النهار والليل والجبل يبدو كسحابة سوداء جاثمة لا تتحرك ، والجمال ترقل مسرعة ، ورجال القافلة يخففون من العناء بتبادل انشاد – الدوباي – ثم يعتريهم الكلال فلا تسمع صوتاً ولا همساً ، والجبل ما

يزال امامنا سحابة سوداء جاثمة لا تتحرك ، ونبلغه بعد مشقة ونفرح باللقـــاء ونحييه كما نحيي الناس الذين نلقاهم بعد فراق طويل ، ثم نغادره وتبدأ المأساة من جديد ، ولكنها هذه المرة من خلفنا ، فنسير أياماً وكلما أدرنا أبصارنا خلفنا لقيناه قيد اذرع منا . !

وما كنت اجد الراحة الا عندمـا نبلغ واديا من تلك الوديان التي شاءت رحمة الله ان يلطف بها تلك الصحراء ويثيب عابريها لقـاء ما تحملوا من مكاره السفر .. وفي الوادي تنطلق الجمال بعد ان تخلصت من احمالها لترعى في نهم وقد صبرت اياماً على الجوع .. ونهرع نحن الى ظلال الاشجار لنتفيأها ، وأضع سريري السفري الصغير تحت شجرة ظليلة لآخذ حظي من النوم الذي لم أذقه الا لمامـاً قبل ان نبلغ الوادي .. وقد نظل بالوادي اكثر من يوم قبـــل ان نواجه رحلة جديدة تطالعنا فيها الصحراء برمالها المتشابهة مد البصر ، وجبل يطل علينا من بعيد يرهقنا السعي اليه ولكنه على اي حال أمل جديد يحدونا لنجد المسير .

هذه صورة مصغرة لما كنت أعانيه في رحلاتي الى دار الكبابيش حتى أبلغ مقر الشيخ علي التوم في واد من أودية تلك المنطقة الفسيحة التي يعرفون كل شبر فيها .. ويسمون كل مرتفع او منخفض منها باسم خاص يعرفونه بـه كما يعرفون خاصة اهلهم وذويهم سواء بسواء ، فتلك هي بيئتهم التي تحيط بهم تحنو وتقسو عليهم وهم بها راضون ، بل كلفون .

لقد خلعوا على كل معلم فيهـا مهما كان صغيراً اسماً يعرفونه به ، فهذا الاسم لواد اخضر مرع يصلح للمرعى ، وذلك لجبل أجرد يتجاوزونه سراعاً ، وذاك لنهل صغير ، وآخر يطيب المقام حوله .. الخ .

قلت في مستهل كلمتي أنني قضيت ليلتي مسهداً ولم أنم الا بعد منتصف الليل فلأول مرة في حياتي أنام داخل خيمة لا باب لهـا ولا سور .. وذر قرن الشمس فسمعت داخل خيمتي اصواتاً تتهامس وتضحك في خفوت .. وفتحت عيني بعد

مشقة ، فقد كنت ما أزال متعباً وفي حـــاجة الى مزيد من النوم ، فرأيت في ركن الخيمة مجموعة صغيرة من الأطفال ينظرون الي وقد جلسوا القرفصــاء على الارض .. ولم أخطىء فهمهم ، انهم تلامـــذتي الذين رأيتهم بالأمس كالجن على ظهور الخيل عند استقبالنــا ، ومن اجلهم جئت الى هذه البــادية الجديدة على حياتي ومعرفتي ، ولعلهم تعجلوا الحضور ايضاً ليعرفوا ما هذه المدرسة الجديدة على معرفتهم وحياتهم .. فبكروا بالدخول على خيمتي ، ولم يدر بخلدهم اني نائم: فقد تعودوا – مثل أهلهم – الا تشرق عليهم الشمس وهم نائمون .. بل قل ان تشرق الشمس ولا يكون اكثرهم قد تناول وجبة الافطار ، عصيدة الدخن بأي ادام من لبن او قديد ..

وقد عجبوا اذ وجدوني نائماً وقد أشرقت الشمس .. فتهامسوا وتبـــادلوا الضحكات عجباً من مدرسهم الذي ينام حتى تلك الآونة . وكان هذا كافياً لأجعل برنامج الدروس منذ يومه الاول يسير حراً طليقـــاً من كل قيد زمني .. فنحن نبدأ في وقت مبكر لا تشاركنــا فيه مدرسة اخرى في السودان ، ونعود مرة اخرى في المساء لنستأنف الدراسة .

اما الجمعة فهي عطلة ، وهي ايضاً عيد صغير في الحي نصحو في الصباح الباكر على دوي النحاس ، اذ كان التقليد المتبع عندهم ان يروي النحاس بالدم كل جمعة ، ليس دم انسان بالطبع وانما يذبح عند الفجر خروف خاص بهذه المنـــاسبة ، ويؤخذ دمه ويرش به قطع النحاس الثلاث ، وقد أحاط بها شبان أشداء ، وسرعان ما يحملون العصي الغليظة ويوقعون على النحاس ضربات الفروسية التي تثير الحماس ، ويزغرد النساء من هنا وهناك تجاوباً مع هذا الدوي الحمــاسي .. ان لكل ضربة من ضربات النحاس معنى خاصاً يعرفونه ويترجمونه الى كلمات منغومة .. وأذكر توقيعاً حمـــاسياً كانوا يحبونه ويؤثرونه ويتغنون معه بهذه الكلمات التي تتمشى مع توقيع ضربات النحاس ـ كَـارْ جِدُّو ، وجِيدّ جِدّو ـ ويعنون بهذه عراقة المجـــد في بيت الشيخ فالمجد عنده طارف وتليد من جده

وأجداده القدامى ..

بدأت اعمل كما قلت في جو حر طليق فلا تقيد بزمان أو مكان للتدريس .. ليس في مدرستي مقاعد أو كنبات للتلاميذ ، كل عدتنا سبورة واحدة أعلقها على شجرة أو نشدها على حبـــال خيمة او بيت شعر ، وتلامذتي يجلسون على الرمال ملتفين حولي ، فلا مقاعد ولا حصائر الا مقعد صغير لجلوسي أحياناً ، حجرتنا هذه الطبيعة الواسعة المنبسطة حولنا نجلس منها حيث نشاء . اليـوم هنا ، وغداً هناك عند منحنى الوادي .. وقد تداعبنا الرياح فتحمل السبورة عنا بعيداً فنضحك كثيراً ويتسابق التلاميذ للحاق بها واعادتها الى مستقرها ، جذع الشجرة ، او حبال خيمة ! .

لا تسلني عن العطلات المدرسية ، فما شأننا بشم النسيم وعيد ميلاد او جلوس الملك ؟ ولـكم كنت أسخر عندما تصلني نشرة مصلحة المعارف محددة الاجازات السنوية ، فألقيها جانباً ولا اعمل بها ، لقد كانت لنا نحن ايضاً في باديتنا تلك ، اعيادنا الخاصة التي نحتفي بها وتشارك الناس من حولنا بهجتهم وفرحتهم بها .. فهذا مثلاً عيد أوبة الابل من مرعاها في فصـل الشتاء في منطقة صحراوية يسمونها — الجزو — حيث يظل الشبان مع ابلهم قرابة الثلاثة اشهر لا يعودون خلالها لأهلهم ، فاذا ما عادوا بها بعد هذه الغيبة الطويلة كان هذا يوم عيد يحق ، ويخرج الحي كله لاستقبالهم رجالاً ونساء واطفالا في فرحة طاغيـــة ، النساء يزغردن ويرقصن .. والنحاس يدوي كالرعد والبنادق يئز رصاصها ابتهاجاً ، والفرسان امتطوا خيولهم يتسابقون فرحاً بأوبة أخوانهم ويتصايحون .. ونقبل من العائدين من الجزو هداياهم من اللحم المقدد لبقر الوحش ، وهو اطيب ما يهدونه ، اذ يصيدون هذا البقر في الصحراء حيث يعيش هناك بكثرة ، ويهدوننا ايضاً — اللبن « القارص » — اي لبن الابل وقد حفظوه في السعون بعد ان اضافوا اليه — الحلبة — لتطيب نكهته .

ان الحي كله في عيد متصل والمدرسة في عطلة تشارك الحي بهجته ومسرته .. هذا مثل من اعيادنا .

فما شأننا بشم النسيم وعيد الكرسماس ؟.

ولنا عيد آخر ، عندما يدوي صوت النقارة في الصباح معلناً عن رحيلنا من البقعة التي نحن فيها الى مكان آخر ، فيشتغل الحي كله بتقويض خيامه قبل شروق الشمس ، وأقوض انا ايضاً خيمتي ، ونضع كل هذا على الجمال ، وتبدأ رحلة جديدة قد تمتد لبضعة ايام ، نسير من شروق الشمس حتى غروبها الى ان نبلغ دارنا الجديدة ، وتتعطل الدراسة فلا ألتقي بتلامذتي إلا بعد ان نستقر في موضعنا الجديد وننصب خيامنا وننظر في الطبيعة من حولنا لنختار مكاناً صالحاً ، نجلس اليه لنبدأ دراستنا من جديد ، فاذا لم يطب لنا، كان لنا في الفضاء الواسع من حولنا والاشجار الكبيرة المتناثرة خير بديل .

واشهد ان تلامذتي كانوا — او اكثرهم — على ذكاء مفرط ، ولكني كنت اجد عناء كبيراً في نقل صورة متكاملة لبعض ما يرد في كتب المطالعة من اشارة الى ما هو سهل واضح في المدينة ، فكلمات ، نهر ، قطار ، قصر ، كهرباء ، مثلاً ، اجد عسراً شديداً في تحديد مدلولها في أذهانهم ، وقد أخذت استعين بالكثير من الصور في بعض الحالات ، وما من شك في ان واضعي تلك الكتب كان في ذهنهم دائماً طفل المدينة ولم يدر بخلدهم مثل هؤلاء الاطفال البدويين الذين من المحال ان يتصوروا ما تعني هذه الكلمات عن طريق الوصف المحض .

وعلى مر الأيام تعدد تلامذتي وصاروا في مستويات مختلفة — أولى — ثانية — ثالثة — رابعة — وانا وحدي اعمل بينهم مقسماً وقتي وجهدي ، ففي حصة العربي مثلاً ، تجد بعضهم يطالعون سراً ويجيبون على أسئلة كتبتها لهم على

السبورة من القطعة التي يطالعونهـا ، — وفي جانب من السبورة ذاتها — وهي وحيدة عندي — قطعة املاء ينقلها آخرون على كراساتهم ، وأتجـه أنا للفرقة الثالثة أملي على تلامذتها قطعة املاء اختيارية ولا بأس أن تكون خلال هـذه الفرقة الرابعة مشغولة باجراء عمليات في الحساب ...

وافرحتاه ..! لقد وصلتنا (كفرات وأنابيب) لكرة القدم ، لقد تذكرتنا « المعارف » وأهدتنا ما يهدى لمدارس المدن لنلعب كرة القـدم في البادية !.. والتف حولي تلامذتي مذهولين وأنا أحدثهم عن هذا الشيء الجديد في حياتهم ، حدثتهم طويلاً عن هذه اللعبة ، وأخذت أعد الكرة أمام أعينهم ، أملأ جوفها بالهواء بالمنفاخ ، ثم أربطها ، كل هذا وأبصارهم عالقة بما أفعل في دهشة بالغة .. وأمسكت الكرة بيدي وقذفتها برجلي بعنف نحو الفضاء وكان لهـا دوي ، وأوشك بعض الصغار ان يهربوا فزعاً لولا ان طمأنتهم ! ، ثم أخـذت أشجعهم لكي يقذفوها وأن (يشوطوها) بأرجلهم كما أفعل ، وبعد قليل سرت نشوة اللعب بينهم ، وأخذوا يتقاذفون الكرة ويجرون خلفها بغير نظام وهم يتصايحون ويضحكون في مرح صاخب . وخرج أهل الحي يشهدون هـذا الشيء العجيب الجديد في عجب وإعجاب ، وشاركنا بعض كبارهم في اللعب اذ أعداهم منظر الصغار يتقاذفون الكرة !..

لقد شهدت الكثير من المباريات في كرة القدم ، وأشهد الله انها كلها مجتمعة لم تبعث في نفسي البهجة والمسرة كتلك التي بعثها منظر تلامذتي في البادية وهم يعدون وراء الكرة ، كل يقذفها بأي جزء من جسمه وقد سقطت ثياب بعضهم فانطلقوا مـع الكرة عراة لا يأبهون ، وآخرون (بالسراويل) فقط وكلهم منتش طروب !..

ليس لمدرستنا جرس يحدد مواعيدنا ، وما حاجتنا اليه ؟ لقـد حددت في مفكرة صغيرة حصص كل يوم ، دون أن أحدد الزمن ، فنحن ندرس في الصباح ،

وندرس في المساء ، وامامي اكثر من فرقـة تدرس . وليس لمدرستنا « طابور » نعد فيه تلاميذها ونحصي الغياب ، فإنا نتجمع تحت الشجرة التي ألفنا التجمع تحتها ، أو في ظل بيت شعر ما ، وبنظرة واحدة نعرف من غاب منا. والإجابة عن سبب غيابه حاضرة دائماً عند زملائه، وأكثر اسباب الغياب تعود الى أمرين قلّ أن يكون لهما ثالث ، إما ان تكون إبله قد وردت الماء هـذا اليوم ، فهو سعيد بها يعيش بجانبها حتى تعود الى مرعاها ، واما مريض ... ونحن ايضاً لا نتقيد بلبس معين كما تفعـل المدارس الاخرى ، فتلامذتي يعدون نموذجاً حسناً لكل أنماط اللباس في البادية ، فهذا يحضر ملتفحاً بثوبه فقط وليس على جسمه شيء سواه ، وذاك « بسروال » صغير وقميص ، وآخر بسروال فقط ، وقـد يجيء الصغار منهم عراة تماماً !..

وليس على الرؤوس غطاء ، وقد حلق شعر بعضهم بالموسى كله ، وبقي عند آخرين جزء من الشعر في مفرق الرأس ، وتدلت من رؤوس الآخرين ضفـائر للخلف واخرى الى الأمام حتى تكاد تجاوز الجبهة ، وقد يلبس بعضهم أحـذية وقد يجيء آخرون حفاة الاقدام ...

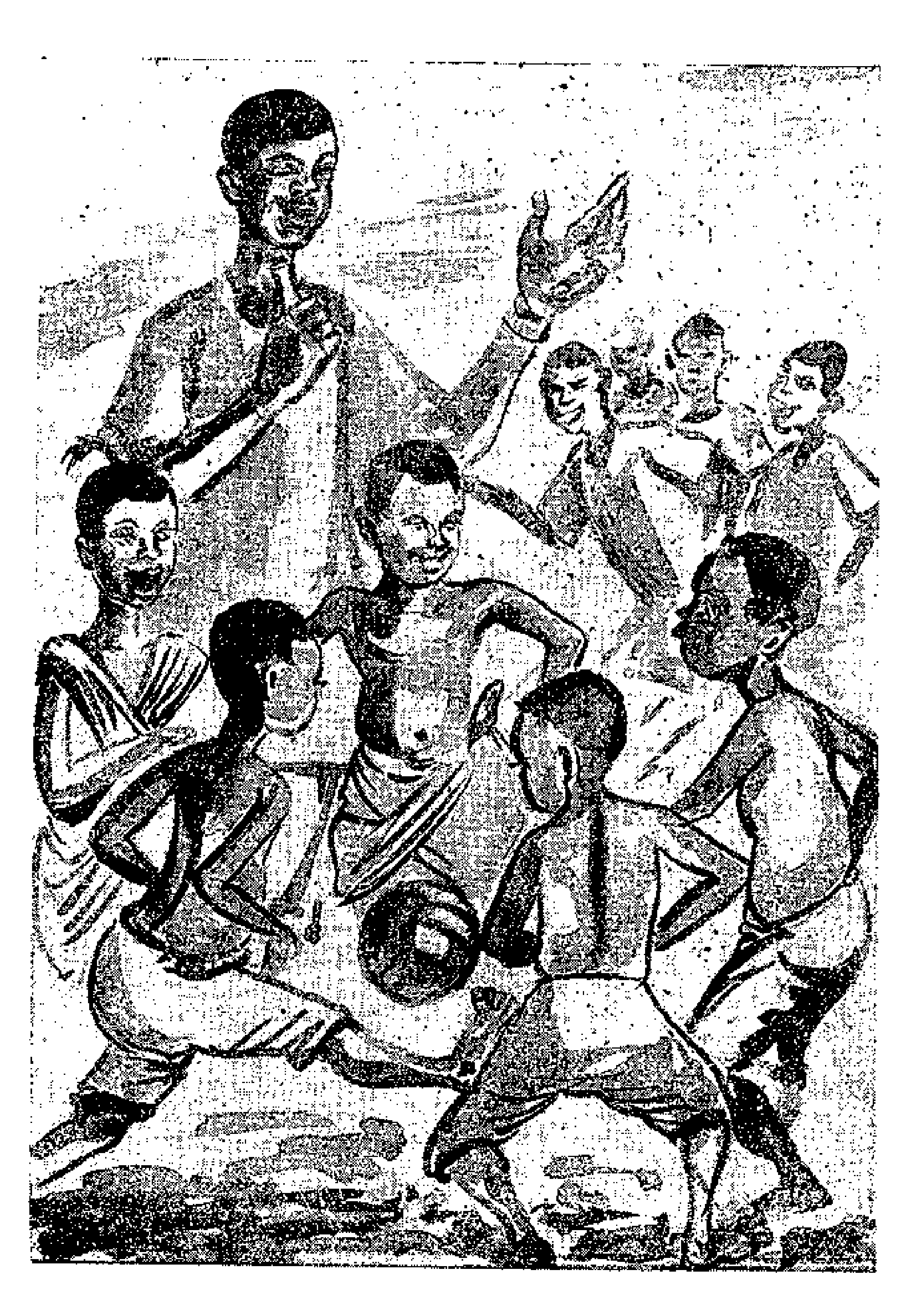
لقد أتيح لي بعد سنوات طويلة أن أعود في رحلة تفتيش على مدارس كردفان وكان لا بد ان اضع في المقدمة زيارتي لمدرستي المتنقلة بين الاشجار والخيـام ، فوجدتها تبدلت – ككل شيء في الحياة ، لقد بنيت على طراز حديث بالحجر ، وبنيت للمدرسين بيوت من الحجر فاخرة مثلها مثـل بيوت العواصم الكبرى ، وحفرت لهم بئر خاصة يرتوون منها ، ورحمهم الله من ذلك المـاء الآسن الذي كنا نشربه من الاودية الـتي تحتفظ ببقايا المطر ، ونرى في الحصول عليه ، على سوئه ، نعمة وافرة !.. والتلاميذ أعدت لهم داخليات ذات اسرة وعدد كثيرة وهم يجلسون اثناء الدروس على مقاعد وكنب ، كل شيء قد تغير ، لقـد صارت مدرستي المتجولة مثلها مثل مدارس المدن الراقية في كل شيء ، ولم يعد الوصول اليها سيراً بالجمال، وإنما بالسيارات التي تطوي الارض طياً في سويعات قلائل..

ولكن المدرسة الحديثة لم تبعث في نفسي شيئاً من البهجة والمسرة ، ولكم وددت لو وجدت خيمتي ما تزال هناك في ظلال الاشجار.. ولعلي في هذا غير منصف ، وإنما أفكر بعاطفتي لا بعقلي فأنا هنا كأبي الطيب المتنبي :

خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبا

لفارقت شيبي موجع القلب باكيا





مدرستي وتلامذتي

مورطاغية كتم

اعتدت عندما نكون في ام قوزين حيث الاشجار الملتفة الباسقة والطبيعة السخية في كل شيء حتى الماء الذي يعد من الكنوز الغالية في تلك البقاع ان اتخير بعض الاشجار الظليلة أتفيأها وتلامذتي ونتلقى الدروس تحتها وتحنو علينا بظلها الوريف .

وذات يوم وانا القي دروسي تحت ظل شجرة باسقة وتلامذتي ملتفون حولي وقد جعلوا من تلك الرمال الذهبية مقاعد لهم فرحين مقبلين واتخذت مكاني بينهم على مقعد صغير واتكأت السبورة على جذع الشجرة ظهر لنا من خلال الاشجار شخص يتجه نحونا متئداً وصاح تلامذتي ينبهوني اليه .
المفتش ! .. المفتش .!

والتفت حيث اشاروا فرأيت احد الاداريين الانجليز يسير نحونا وأدهشني ان اراه يحمل عصاً غليظة مما يسميه البدويون وعامة الناس (بالقرجة) ..

لم أعجب لظهوره بيننا فجأة في ذلك الوادي فقد كان في ام قوزين في تلك الاونة اجتماع قبلي حضره مفتشون من دارفور وكردفان وبعض النظار والشراتي كما هي العادة في عقد مثل هذه المؤتمرات القبلية سنوياً في مكان ما لحل

ما ينجم من مشاكل قبلية خلال العام ولتقريب شقة الخلافات التي يسببها النزاع حول المراعي والماء وهي المشكلة الاساسية الخالدة التي تتجدد بصور مختلفة ولا تمس الجوهر بشيء !! المرعى والماء ..

وكان الاداريون البريطانيون كلما كان المؤتمر في دار الكبابيش يحرصون على زيارة المدرسة مجتمعين أو فرادى ، وكان يعجبهم وضعها الفريد ، وتنقلها بين الخيام وظلال الاشجار .. وقد أتاحت لي هذه الظروف الفريدة ان اشهد انماطاً من الاداريين البريطانيين . وكان جو البادية الطلق ، وصراحة الناس وعذوبة البيئة كل هذا كان يوحي لهم بالتحلل من جو الرسميات الخانق ويحاولون ان يرسلوا نفوسهم على سجيتها جهدهم .

واقترب الاداري البريطاني منا وحيا بلسان عربي مبين ورددنا تحيته بعد أن هز يدي عدة مرات في حرارة على غير عادة اهله ، ثم حيا التلاميذ واحداً واحداً سائلاً كلاً منهم عن اسمه واسم ابيه فتعرف الى اكثرهم عن طريق ابائهم . ثم التفت الي وقدم نفسه .. (مور) مفتش كتم .

وكنت قد سمعت عن المستر مور هذا كثيراً من الذين حضروه في بعض المؤتمرات القبلية ، لما كان ينفرد به من تصرفات شخصية خاصة تلفت الانظار – كما سيجيء – وسمعت عنه ايضاً من بعض القادمين من كتم وهم يتحدثون عن مفتشها الذي يعيش مع الناس في مثل مستواهم .

وكانت في ذهني عنه صورة طريفة اكتملت فيما بعد عند زيارته هذه ..

كنا في نهاية يومنا الدراسي والتلاميذ يتلون علي بعض سور القرآن للمراجعة عندما جاءنا المستر مور هذا .. وقد سكت التلاميذ عن التلاوة عندما وصل وبعد ان تم التعارف وتبادلنا التحايا سألني ماذا تدرسون الآن ؟ قلت بعض سور القرآن .. قال اي السور ؟ .. وعجبت ماذا يفيد من هذا التساؤل وما

مبلغ علمه بالقرآن .. ؟ وقد لحظت ان لغته عربية سليمة حاول ان يدس خلالها بعض الكلمات الفصيحة ليؤكد لي مدى المامه باللغة الفصحى .. قلت انا نقرأ الآن سورة (الفجر) .. وفاجأني بان اكمل الآيات قائلاً ، والفجر وليال عشر والشفع والوتر ، هكذا نطقها في غير عجمة ، ولعله لحظ دهشتي ، فقد أخذت انظر اليه في كثير من الاستغراب ، فضحك وقال : اني احفظ بعض سور القرآن .

وانصرف التلاميذ بعدها ودعاني لأذهب معه الى خيمته وبلغناها واخذ يعتذر الي قائلاً بانه لم يعتد ان يصحب معه طباخاً في مثل هذه الرحلات وانه يأكل اي طعام يقدم له في طوافه وقال، انياستطيب (العصيدة بالملاح) .. وفي الواقع ان كل طعام البدويين يتكون اساساً من عصيدة الدخن فهم لا يعرفون هذه (الكسرة) التي نأكلها وليس بين نسائهم من تصنعها بل لا توجد لديهم ادوات صنعها اطلاقاً فالوجبة عندهم عصيدة من الدخن بأدام من الوبكة المطبوخة بقديد من لحم الصيد وهذا اطيب طعامهم ، وقد يكون الادام حيناً من اللبن حليباً (أو رائباً) او ماء عليه ملح وسمن دون ان يطبخ وان وجد معهما شيء من البصل كان ذلك متعة تستوجب مضاعفة الحمد والشكر .. اذكر هذا لأعطي صورة عن الطعام الذي يمكن ان يتناوله المستر مور ويعتمد عليه في ترحاله ولا يحب ان يرافقه طباخ يصنع له طعاماً خاصاً اكتفاء بما يجده عند البدويين .

وما كدنا نستقر في الخيمة حتى مد يده الى (جراب) صغير واخرج منه حفنات من البلح ودعاني لنأكل منه ، ورأيته يلتهم البلح في نهم دون ان يلتفت الى ما قد يكون عالقاً به من اوساخ .. وحدثني عن نفسه فقال انه كان يعمل لفترة طويلة في العراق وكان مجال عمله هناك بين البدويين وزعماء العشائر فاحب هذا الجو البدوي الخالص والفه بل واندمج فيه بروحه ومشاعره .. ولهذا فانه عندما اختير للعمل في السودان آثر هذه المنطقة لما يحسه فيها من

تشابه بحياته في العراق .. وافاض في ذكر مقارنات عديدة بين بادية السودان وبادية العراق دلت على عمق تفهمه للحياتين عن دراسة وخبرة ..

وجاء أوان الغداء فاعتذرت واردت ان اذهب لخيمتي ولكنه ببساطة البدوي قال انه طلب من الشيخ محمد التوم — الاخ الاكبر للشيخ علي — ان يعد له عصيدة للغداء . لهذا فهو يطلب مني ان نذهب معاً .. وبلغنا بيت الشيخ محمد — خيمة من الشعر — وفي بساطة غير متكلفة تربع مور على السجادة المفروشة على الارض وجاءنا الغداء ، عصيدة تملا قدحاً اسود ضخماً يعرفه كل من عاش في دارفور وبعض انحاء كردفان وقد فاض الادام حول العصيدة وامتدت الايدي تلتهم وهو يستزيد من (الملاح) كلما جف من ناحيته من العصيدة . وختمنا جلستنا تلك بعدة اكواب من الشاي الاسود ، خف بعدها الى خيمته وذهبت الى خيمتي وفي ذهني اكثر من سؤال عن هذا الانجليزي العجيب ! .

وظل مور معنا نحو الاسبوع يأكل عند الشيخ واخوته اذ كان بغير خادم للطبخ .. ورأيته ايضاً يحرص على شرب قدر كبير من اللبن اينما وجده وفي اي اناء يقدم له دون تأفف .. وحدثني عن حبه للبن وكيف انه اذا ما التقى بالرعاة في الوديان استوقفهم ليشرب (البيضاء) فيحلبون له اللبن في(الكبروس) وهو وعاء مستطيل من الخشب يحمله الرعاة معهم ليحلبوا فيه اللبن او يتناولوا فيه طعامهم ، يشبه الطربوش الا ان له يداً من الخشب . وهو الاناء الوحيد الذي يرافقهم في تجوالهم مع ابلهم انتجاعاً للمرعى .. وكان المستر مور يشرب من هذا الكبروس مباشرة على ما به من فقدان النظافة .. بل كان كثير من الاداريين الانجليز يرعون هذا التقليد فاذا ما مروا على الرعاة في الوديان استوقفوهم ليشربوا (البيضاء) ويعنون بذلك اكرامهم بقدر من اللبن ..

وخلال تجوالي مع مرافقي من البدويين كنت الاحظ بهجتهم وتفاؤلهم بان رحلتهم (سعيدة) كلما بلغوا مكاناً ترعى فيه الابل والرعاة حولها يصيحون بهم

عندما يبصرونهم من بعيد .. (البيضاء .. البيضاء) ويكرعون من اللبن الذي يمتلىء به (الكبروس)حتى يفيض ويستزيدونهم منه حتى يرتووا .. واذا رفض احد ان يشرب من البيضاء تشاءموا من ذلك وما يزالون به حتى يأخذ جرعات منه لمجرد الفأل ، ونادراً من كان يأبى .. ولعلي الغريب الوحيد الذي تعذر عليه اولاً ان يشرب البيضاء من ذلك الكبروس وقد ارضيتهم اولاً بجرعات .. اما فيما بعد فقد صرت اسابقهم كلما مررنا على إبل ترعى وتصايحنا مع رعاتها . عوك .. البيضاء .. فيهرعون الينا باللبن في الكبروس ووجوههم مشرقة سعيدة، ألا ما أحلى وأصفى تلك النفوس .

قلت ان مستر مور بقي معنا أياماً ولا طعام له غير ما كان يحمل من البلح وما يستضيفه به البدويون وكان يزورنا كل يوم في المدرسة ، وقد اضحكني تلامذتي الذين كانوا اذا رأوه قادماً من بعيد يحتقب عصاه الغليظة ، نبهوني ضاحكين قائلين .. المفتش .. ابو عكاز .. جانا .!

وعاد الى كتم ولم القه بعد ذاك ولكني كنت التقط انباءه في اهتمام كبير فقد كان يمثل لي لوناً فريداً من الاستعماريين ناعمي الملمس ، واذكر ان التقيت في سنجه خلال اجازتي بالسيد عثمان الخليفة ، وكان يعمل آنذاك مأموراً في مركز كتم فسألته عن مور وحياته في كتم فحدثني انه يعيش في بيته كما يعيش الشراتي هناك وكثيراً ما يقيم المآدب البلدية ويقدم العصيدة بالملاح .. وحدثني ان مور كان اذا ما جاء شهر رمضان صامه مع الناس حتى النهاية ولا يبيح لنفسه ان يفطر يوماً واحداً .. وكان اذا ما جاء أوان الافطار اعدت له مائدة مثلما يعدها المواطنون من حوله .. الآبري والبلح والعصيدة .

وكثيراً ما يدعو الناس للافطار معه ، كما كان يتقبل دعواتهم للافطار معهم في بيوتهم . وهو بالطبع لا يفعل هذا عن عقيدة دينية وانما امعاناً منه في الاندماج في البيئة التي يعيش فيها وليسهل عليه معرفة الناس ودراستهم عن كثب ..

ولكن المستر مور مع هذا التفاني في الاندماج بمن حوله قد جعل من مركز كتم سجناً كبيراً لا يسمح بالخروج منه او الدخول اليه الا لمن يشاء ممن يطمئن اليهم .. كان عدواً للتعليم والمدنية وكل جديد .. وكان يريد ان يعيش الناس في كتم كما هم بغير تطور مفيد .. وقد ظل يعمل مفتشاً في كتم منذ بداية عهده بالخدمة حتى خرج منها مفارقاً السودان نهائياً ولعل ذلك كان في الاربعينات ولعله ظل بكتم ما يقرب من العشرين عاماً لا يغادرها الا للاجازة ، ان لم تخن الذاكرة .

وعاش فيها كما يعيش عامة اهلها يتخلق بعاداتهم ويتحدث بلهجتهم ويتظاهر بالحدب والعطف عليهم وتحت ستار هذا الحنو والعطف فرض ستاره الحديدي عليهم وحال بينهم وبين التقدم في اي مجال وكان لا يسمح لاي زائر ان يبلغ كتم الا باذنه ومن يفعل رد رداً سيئاً ولا يسمح له بالبقاء .

ومستر مور هو صاحب الموقف المشهور من الصحفي الكبير المرحوم احمد يوسف هاشم عندما زار دارفور وكان يحرر آنذاك جريدة النيل وقضى فترة في زيارة للمديرية ، ومكث اياماً في الفاشر ولعله كان في ضيافة ابن عمه المغفور له محمد حاج الامين مأمور المركز وحاج الامين كغيره من الموظفين السودانيين في دارفور كان من الناقمين على تصرفات مور وعلى الحجر الذي فرضه على مركز كتم ولعله اوعز لاحمد يوسف هاشم ان يقوم بزيارة لكتم ليكشف سيئات مور .. وبالرغم من ترحيب سلطات مديرية دارفور بزيارة احمد يوسف وتمهيد السبل اليه الا ان المستر مور ابى في عنجهية بالغة السماح لاحمد يوسف ان يدخل مركز كتم ورفض رفضاً باتاً رجاء السلطات ان يسمح له بالزيارة ، وقيل انه رد رداً عنيفاً .

وعاد احمد يوسف للعاصمة ولم يصمت فأشهر قلمه القوي الجريء يتحدث عن مور والسد الذي اقامه حول الناس في كتم والاسلوب العتيق الذي يسير به في

الحكم ، وصب جام غضبه في عدة مقالات نارية هي التي سمى فيها حكومة السودان بحكومة المفتشين .. ونفس احمد بهذه المقالات عن نفوس كثيرة معذبة بحكم مور وامثال مور واستقبلت المقالات من القراء استقبالاً حافلا ولقيت تجاوباً عجيباً من كل قارىء كما لقيت نفس الاهتمام البالغ من كبار المسؤولين في حكومة السودان وكانت ذات اثر مباشر على المستر مور فقصمت ظهره بحق .. ولا استطيع ان اتذكر الآن ان مور قد ذهب مستقيلاً اثر هذه المقالات ام اقيل ، ولكنه حتماً لم يبق بعدها فترة تذكر ويبدو ان اسلوب حكومة السودان نفسه وقد رأت الوعي ينتظم البلاد لم يعد يحتمل تصرفات امثال المستر مور من غلاة الاستعماريين وعلى ما سمعت فان مدير دارفور نفسه لم يكن راضياً عن تصرفات مور وعن رفضه السماح لاحمد يوسف بزيارة مركزه .. وهنا لا بد ان يطل علينا وجه المرحوم محمد حاج الامين والدور الذي لا بد ان يكون قد اضطلع به مع المدير للقضاء على مور فقد كان ادارياً قوياً جريئاً اذا اعتزم امراً فلا بد من ان يبلغه .

لقد هوى مور من عليائه ولم يشفع له اندماجه في البيئة المحلية وتخلقه باخلاقها الى الحد الذي لم يبلغه اي بريطاني آخر وليس ادل على ذلك من انه لم يرض بديلاً عن بيئة كتم فظل يعمل بها منذ بداية عهده حتى نهايته .

ولقد لقيت المرحوم احمد يوسف هاشم عقب تلك المقالات التي شفى فيها الغليل ورمى فأصاب .. فوجدته حانقاً كل الحنق على موقف مور منه ورفضه لقبول زيارته لكتم في قحة .. وبالرغم من انه قد ثأر لنفسه وقومه الا انه كان ما يزال يعاني غصة من ذلك الرفض البغيض .

وان كانت مقالات احمد قد نزلت علينا برداً وسلاماً الا انها كانت ناراً محرقة بالنسبة لمور .

واذكر وانا في البادية عقب ان غادرنا مور عائداً بعد اسبوع قضاه كما

وصفت اني سألت الشيخ علي التوم عن رأيه في المستر مور وكان الشيخ – طيب الله ثراه – قد اطمأن الي كثيراً وصرنا نتبادل الآراء في كثير من الصراحة .. فقال لي : تراني اخاف من مثل هذا الرجل .. انه يدخل في حياتنا الخاصة اكثر مما يجب ، فلو ظل بعيداً بعض الشيء كاخوانه لكان خيراً له . وهكذا استطاع هذا الشيخ ببصيرته النافذة ان يتوجس شراً من هذا الاسلوب الذي انتهجه مور في حياته مع البدويين، والذي لم يزده قرباً منهم بقدر ما اثار ريبتهم فيه وعدم اطمئنانهم اليه .

ولست ادري ما رأي معاصريه في كتم في اسلوب مور هـذا الذي اختطه لحياته الادارية ولكنه قطعاً كان اسلوباً فريداً انتهى بـه نهاية سيئة لم يكن يتوقعها ولعله لم يكن يدري وهو يوصد ابواب كتم ويرفض زيارة احمد يوسف . ان قلم هذا الصحفي الموهوب سيكون من العوامل الهامة لوضع ختام مفاجيء لم يكن ينتظره لحياته في كتم كحاكم لا يرد له امر .

فسبحان مغير الاحوال .



مور طاغية كتم

مع الأغنية الكباشية

اما هذه المرةفاني أرجو ان نعيش لحظات مع الاغنية الكباشية ، واني ان استطعت ان أنقل على الورق كلمات هذه الاغنية فمن أين لي تلك الاصوات العذبة الرخيمة التي كانت تشدو بها في جذل ، وتلك الوجوه الصباح التي كانت ترقص عليها مرحاً ، فهن – مغنيات وراقصات – في مرح الغزلان وتأود الاغصان .

والغناء عنـد الكبابيش جزء هام من حياتهم لا يتحرج من ترداده أحد ، صغر ام كبر ، رجلا كان ام امرأة ، فهو يصور حياتهم ويعبر عـن مشاعرهم وأحاسيسهم ،يتبارى الرجال في إنشائه وانشاده مثلما يتبارى النساء والفتيات.. وللبارع في الصياغة والانشاد مكانة خاصة .

لست أنسى مـا حييت تلك الشادية المحبوبة التي كانت تنشيء الاغاني في سهولة ويسر وفي نظم منسق يدل على الفطرة السليمة والموهبة الخارقة .. زينة بت معافى ، وقد علمت أنها ما تزال حية وان نال منها الكبر – سنة الحياة.. وكنت ألم بخبائها كلما احسست بانقباض او وحشة .. احبت رجـلا واسعدتها الاقدار فتزوجت به ، ونعما معاً ثم قتل في حادث مفاجيء مؤلم .. ووهبت حبه

وذكراه حياتها فلم يدخل قلبها رجل آخر ، وذوبت مشاعرها اغانٍ موجعة تذكر فيها حبها الذي ومض في حياتها كبرق خاطف واختفى .. ووجدت في الأغاني التي كانت تبعثها جياشة تنفيساً لما تعاني من حزن عميق وكنت اذا جئت دارها تلقاني ابوها او اخوها، وامها في ترحاب بالغ صادق، واسرعت هي الي محتفية وجلسنا معاً .. وليس في البادية هــذا الانفصال الذي يتميز به المجتمع عندنا فالمرأة تستقبل زوار زوجها او اخيها وترحب بهم وتكرمهم ، وقد يجلسون جميعهم معاً فالدار واحدة ليس بها غرف منفصلة فلا خشية ولا سوء ظن .

كنت القاها في دارها بين اهلها، فتحدثني عن الأغاني ، وتشدو بها احياناً في صوت هادىء عميق يهــز المشاعر ... واسمع تلك الاغنيات احياناً في حلبات الرقص فأعرف انها لزينة اهدتها للسرب الراقص المرح من الفتيات .

وليست زينة وحدها في هذا المضمار، فالاغاني التي تنشد في حلبات الرقص تكاد تكون كلها من تأليف الفتيات ، وقــل ان يشترك فيها الرجال .. اما الرجال فيحتفلون باغاني الدوباي (وهو لا يختلف عن مثله في جميع انحاء السودان من حيث النهج والغرض مع تقارب في الاداء) وبأغان اخرى تقال حول البئر ، او وهم يقطعون الفلاة على ظهور الجمال .

فبجانب زينة اشتهرت «بنت عبد الخير» ، وعبد الخير هذا من اثرياء البادية المعدودين ، والثراء عندهم يقــدر بما يملكه الرجال من الابل ، وكان عبد الخير يذكر بعد الشيخ علي التوم مباشرة في الثراء، وليس للأثرياء ، هناك ما يميزهم عن غيرهم من حيث المظهر وقد رأيت عبد الخير هذا اكثر من مرة وليس في مظهره ما يوحي بأنه يملك ثروة ضخمة تقــدر في ذلك الحين بعشرات الألوف من الجنيهات اذا ما قدر ما يملك من الابل بالمال .. وكانت ابنته هذه من الحسناوات المعدودات في البادية ، وقد دفعها الزهو بالثراء للافتخار في اغانيها ، ومن من النساء من لا يزدهيها الثراء ويعجبها المال في اي صورة جاء ؟

ان ابنة عبد الخير اينا اتجهت ترى (القود) اي الابل من حولها ، فأمامها وخلفها (رد سيب القود) أي بمجموعات الابل ، فهي تعتز بأن ليس لها ولأهلها نصيب من السنين السود ، السنوات العجاف التي يضيق بها الناس ، إنها في نعمة تغنيها عن الضيق ، فهي تقول : –

نحن السنين السود
ما لينا فيهن عود
وجهي وقفاي مردود
من رد سيب القود

واخرى تزوجها فتى من غير حيها ، وجاء أوان رحيلها معه الى حيث يعيش أهله ، ولكنها تضيق بهـذا الرحيل ويهفو قلبها الى أهلها ، إلى – عرب ذوقها – أي أبناء حيها وأهلها الذين ألفتهم وأحبتهم ، بل إنها لتكاد تسمع على البعد انين نوقها تحن شوقاً اليها، فتخاطب صديقتها – دريجه – معلنة عن شوقها وانهم قد نووا بسوقها الى حي زوجها بعيداً عن اهلها – وهي تبكي ،

وتسمع نوقها تبكي معها حنيناً ، وهي تريد ان تعيش مـــع الذين الفتهم وارتضاهم قلبها : –

يا دريجه واشوقي !
نووا لي بالسوقي
بسمع حنين نوقي
دايره عرب ذوقي

وهــذه البدوية الكباشية التي تبكي ألفتها وتحن الى حيها ويشجيها فراقه تذكرني بأعرابية في مثل حالتها ، روت قصتها كتب الادب العربي، – يسمونها

وجيهة بنت أوس – انشدت هذا الشعر الموجع حنيناً وصبابة : –

وعاذلة تغدو عليّ تلومني على الشوق لم تمح الصبابة من قلبي
فما لي ان احببت ارض عشيرتي وأبغضت طرقاء القصيبة من ذنب
فلو ان ريحاً بلغت وحي مرسل حفيٍّ لناجيت الجنوب على النقب
فاني اذا هبت شمالاً سألتها هل ازداد صداح النميرة من قرب

واخرى استبد بها الشوق الى حبيبها الغائب مع إبله يرعاها بعيداً عن الحي فهي تستقبل – القبلة – حيث مرعى إبل الحبيب وتبكي – بلا سبلة – أي بلا سبب غير هذا الحب العميق ، ثم تحس بأنها تسمع حنين إبله من بعيد قادمة الى الحي وهو معها فيستبد بها الفرح والنشوة فتعلن أنها ستركب وتخف اليه لتلاقيه في منتصف الطريق قبل ان يبلغ الحي شوقاً ولهفاً الى لقياه :

بتقبل القبلة
وابكي بلا سبلة
بسمع حنين ابله
بركب بضارب له

وهذه تودع حبيبها متمنية له العافية وتدعو له بسلامة الاوبة وتؤكد لهحبها واخلاصها وان عهدها وثيق صاف من الشوائب :

سرجه على مقافي
وقدمتُه في العافي
يا تومي ما تجافي
عهدي المعاك صافي !

وأذكر ان جدلاً طويلا دار بين عدد من المفتشين الانجليز الذين كانوا يعملون

في الكبابيش ، اذكر منهم المستر لي ، والمستر واط الذي عمل ايضاً لفترة في بادية الشكرية ، والمستر دي بنسن الذي عمل اخيراً مديراً للخرطوم . وكان مدار الجدل ، هـل يتذوق البدويون جمال الطبيعة من حولهم ؟.. ام يفكرون فيه فقط من ناحية النفع المـادي ؟.. مثلاً اذا عثر بدوي على روضة ذات اشجار وارفة واعشاب نامية مخضرة ، وزهر فواح ، وماء غدق ، هل يتذوق جمـال هذا المنظر ويحس بروعته ؟ او ان اول ما يجول في ذهنه ان (يطلق) بهائمه لترعى العشب والزهر والشجر وتشرب الماء ؟

وقد كان لي نصيب في هـذا الجدل مع المستر دي بنسن ، وكان كل منهم يبحث عما يؤيد وجهة نظره في الاغاني البدوية التي تصور احساسهم علّه يجد ما يؤكد رأيه ...

وقد التقيت بعد سنوات بالمستر دي بنسن عندما كان يعمل مديراً للخرطوم في حفـل اقامه الصحفيون السودانيون للمستر آربر عند نقله مديراً للشمالية ، وكان الحفل في الفندق الكبير ، وبعد انتهـاء الحفل تجمع المدعوون الى بعضهم ورآني المستر دي بنسن من بعيـد واتجه نحوي .. والذين عملوا كموظفين في المناطق الصغيرة النـائية ، يعرفون جيداً مدى الالفـة القوية التي تنشأ بينهم في تلك الاماكن ، ولعل امتع الصداقات واعمقها اثراً تلك التي نشأت بين الموظفين وغيرهم في المراكز الصغيرة وخاصة النائية منها والتي تتميز بلون مغاير عن مألوف الحياة في المدن . ولهذا فان المستر دي بنسن ما كاد ينفرد بي في ذلـك الحفل في الفندق الكبير حتى نسي كل ما حوله واستغرق في حديث طويل عن ذكرياته في الكبابيش ، وفجأة تذكر ما كان يدور بيننا من جدل حول مدى إحساس البدوي بجمال الطبيعة من حوله ، وكنت غـير ذاكر لهذا في تلك الآونة ، فسألني قائلاً .. اذا جاء كبـاشي الى هذا المكان — واشار الى الحديقة والارض الخضراء التي كنا بها — فماذا يخطر ببـاله ؟.. وتلفت حولي باحثاً عن اجابة ، ولكنه بادرني بقوله وهو يضحك .. انه يفكر في شيء واحـد ، ان يسمح له

بأن (يطلق) بهائمه في هـذا المكان المخضر لترعاه كله ولا تبقي منه جانباً . !
وضحكنا معاً، وقلت له أنسيت الاغاني التي اودعوها حبهم للطبيعة من حولهم
وانتزعوا منهـا تشبيهاً للجمال ؟ وتذكرنا أغنية طال حولها الجدل ، وكانت
مؤكدة لاحساسهم بجمال الطبيعة من حولهم ، وان كانوا بحكم حياتهم البدوية
الرعوية يؤثرون ما يفيدهم مادياً على الجانب الجمالي المجرد .

والاغنية لبدوي يصف حبيبته وصفاً انتزعه من جمـال الطبيعة من حوله ،
فأسنانها بيضاء تضيء كالبرق ، وحاجبها كأنمـا عليه قطرات من الندى ، اما
العيون فلا يجد لها مثالاً الا (قلتة واي) التي يغرد « البلوم » اي القمري حولها،
و « واي » اسم موضع في البادية اما « القلتة » فهي بقعة صغيرة في جبـل او
حجارة تتجمع فيها المـاء – والقلات – جمع قلتة، كلمة عربية فصيحة وردت
كثيراً بهذا المعنى في الشعر العربي ، قال شاعر بدوي قديم يحب بلده ويقسم انه
لو يستطيع لمنع ماء القلات ، في بلده هذا عن كل لئيم :

لو كنت املك منع مائك لم يذق
ما في « قلاتك » ما حييت لئيم

والبدوي الكباشي يقول واصفاً حبيبته :

يا امْ فاطراً ضَوْاي
يا امْ حاجباً نـَدّاي
يا امْ عيناً قلتة وَاي
فوقها البلوم قـُوقاي

ومن مظاهر احساسهم بجمال الطبيعة هذه الاغنية لفتاة تصف حبيبها بفرع
شجرة من السنط (الدباغ) لم تكبر بعد ، وقد بدأ زهرها (الشبش) زاهيـاً
يجذب الانظار ، فهي تشبه نضرة شبابه وصباه بهذا الغصن الهش الذي يحمـل

(الشبش) أي الزهر . وتؤكد له انها تحبه حباً صحيحاً لا زيف فيه «دون غش» :

فرع الدبّاغ الهش
الشايــل الشبّش
بريدك ريد مــا غش
يا ديفْ امات ربَش

و « ديف امات ربش » اي يا ابن الظباء النافرة .

وكيف لي ان انسى وانا اتحدث عن اغاني الكبابيش تينك الاغنيتين العذبتين اللتين سجلتهما في كتابي (ملامح) وقد هزتا شاعرنا الكبير محمد سعيد العباسي فصاغهما شعراً عربياً سلسلا .. الاغنية الاولى لفتاة تتحدث الى العرافة (الختاتة) تسائلها ان تخبرها كيف حال حبيبها وقد سافر الى بلد بعيد وتمدها بأنهـــا (ستكريها بي مجيدي) اي ستهب لها ريالاً مجيدياً والريال المجيدي كان هو العملة السائدة في غرب السودان ويساوي عشرين قرشاً ، تقول الاغنية :

ختّاتة ُختّي زيدي
بَكْرِيكِ بي مجيدي
شوفي لي حبيبي
في البلد البعيدي

وقال استاذنا العباسي :

عرافةَ العُرْب زيدي
ومن نداي استزيدي
فكيف حــال حبيب
أمسى بقفر بعيــد

والاغنية الثانية يخاطب فيها الفتى حبيبته قائــــلا : يا ذات اللون الاسمر والحديث الحلو كالتمر ، اني تائه (دوار) ابحث عنك فمتى يجمع الله شملي ؟

يا اب لوناً سمْري
واب حديثاً تمْـري
الدُّوَّار اني (انا)
يا الله تجمع شملي !

وقال العباسي :

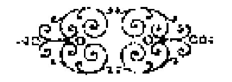
الـــلون لون الذهب
والقول حلو الرطب
لي أرب في ذا الرشا
فالله يقضي اربي

ولا اضع القلم قبل ان اذكر هذه الاغنية الرائعة التي تتحدث فيهـــا الحبيبة الوالهة الى حبيبها ، يا طبق المطر ، اني احبك حباً صحيحاً صادقاً فهل جفوتني؟ أصدقني ! « كلمني بالنصيحة » !

يا طبيق الريحـــة
الريدة ليك صحيحة
انت كان جافيت
كلمني بالنصيحة !

لقد استطعت ان انقل اليك ايهـــا القارىء بعض كلمات الاغنية البدوية ،

وحاولت جاهداً ان اقرب معانيها الحلوة الساذجة الى الاذهان ، ولكنني مـــا زلت افتقد فيها – وانا ارويها – تلك الاصوات التي تهز المشاعر وترقص القلوب معها طرباً وهي تشدو بها في جذل ومرح ، وترقص على انغامها حيوية الشباب ونضرة الصبا وزهو الجمال .





حول البئر

من مذكرات نيوبولد

أريد ان اقف قليلاً في هذه الذكريات عن بادية الكبابيش عند ماكتبه السير دوجلاس نيوبولد في مذكراته التي طبعت بعد وفاته عن الشيخ علي التوم خاصة والكبابيش عامة ، وقد عمل نيوبولد في مستهـــل حياته العملية مفتشاً لدار الكبابيش ثم مديراً لمديرية كردفان ، وقد لقيته هناك في زيارته التي تحدث عنها في هذه الرسالة التي انشرها اليوم، وكنت من مستقبليه كما ذكرت في مقال سابق.

ورسائل نيوبولد التي تحدث فيها عن علي التوم اليوم والكبابيش تكشف النقاب عن كثير ، وتعد مرجعاً تاريخياً هاماً .

الرسالة الاولى

كتب نيوبولد هذه الرسالة من حمرة الشيخ – عاصمـــة البدويين صيفاً – في ١٩٣٣/١/١٣ وقد بدأها بوصف موجز عن أستقبال علي التوم وأهله فقال :

ركب علي التوم واهله لملاقاتنا وقد صحبهم ثلاثون من الخيالة ودخلنـــا حمرة الشيخ يحف بنا صفان من راكبي الجمال الذين يبلغ عددهم نحو المائة .

كان استعراضاً عربياً جميلا مؤثراً تخللته ضربات النحاس وشهدته الجمـــال والخيول والكلاب في مضارب للخيام السوداء .

كان علي التوم – معفراً – ولكنه منشرح الصدر كالعادة وحسن الهندام . قد تحدثت معه منفرداً من الساعة الحادية عشرة حتى الثانية والنصف فذكر أن علاقاته مع الهواوير كانت حسنة وان – الميدوب – هادئون – والكواهلة – طيبون وقال ان الكواهلة والكبابيش يعيشون الان بعلاقات احسن مما كانت عليه في اي وقت من الاوقات ، فهم يختلطون بصورة افضل من اي وقت ... وقال ان محمد الصياح ملك الميدوب رجل طيب وله سلطان على قبيلته .

ثم التفت الى تطورات الادارة الاهلية في غرب كردفان ومركز بارا وقد استمع إليّ علي التوم باحترام واوضح لي أن هذه السياسة لم تشرح له من قبل ، وقال ان رجال قبيلته يكرهون المناضد والكراسي وكتب الحاكم .. الخ تلك الاشياء التي يستخدمها الاداريون السوفسطائيون !

قلت له ان هذه هي عادة اهل المدن ، ولكنه أصر على الطبيعة العربية الادارية وأمل ألا تسحب الحكومة مساعدتها له .

وقال لي علي التوم انه لا يريد كساوي شرف اكثر مما نال ولكنه يحتاج الى استمرار المساعدة الحكومية .

قلت له يجب ان تنشأ بيننا علاقات أوسع فأجاب بالطبع ، ولكن ليست علاقات خاصة أو عفوية بل يجب أن تكون منظمة ، وقد وافقت على ذلك ..

الرسالة الثانية

وبعد ثلاثة ايام اي بتاريخ ١٩٣٣/١/١٦ كتب نيوبولد وهو ما يزال في حمرة الشيخ يصف في ايجاز ايضاً الغذاء الذي تناوله مع الشيخ علي في خيمته البدوية – وكنت من بين شهوده – وقد وصفته في مقال سابق وفي الرسالة إشارات الى سلطات علي التوم ومحاولات الحد منها على النحو الذي سأتناوله في التعليق على هاتين الرسالتين :

« تغدينا مع علي التوم فراخاً جيدة جداً وحمـــلا مشوياً وبصلا وعصيدة وكانت كلها أطعمة نظيفة وحسنة » .

وتحدثنا عن نفوذ النساء فقال ان هذا خطأ لا وجود له .. وتحدثنا كذلك عن حوادث القتل التي تتم داخل الكبابيش وقد فوضت مساعد مفتش سودري (وكان يجب ان يكون هذا التفويض كتابياً) ان يسمح لعلي التوم بتسوية قضايا القتل بالدم أو بالنقود بدون توقيع عقوبة السجن على شرط ان يكون :

١ – كلا الطرفين من الكبابيش .

٢ – والا يكون الضحية عبداً .

٣ – والا تكون جريمة قتل عمد .

٤ – وان يكتب علي التوم محضراً للقضية بأسماء المتخاصمين .

وان يرسل مندوباً موثوقاً منه ليمكن استجوابه ..

وغنا في الصحراء نحو ساعتين وكان ذلك جنوب الآبار بعد أن تفقدناها .

وكانت هذه بداية الزيارة الثانية، فالسهل ما زال هناك ولكن تغطيه أشجار كثيفة ، وتضفي التلال على المكان فخاراً وجلالا بقممها الصخرية التي تعلوهـــا عشش خلايا النحل في جبال النوبة ..

انتهت رسالتا نيوبولد..والرسالتان تجددان في نفسي ذكريات عذبة وتعيدان الى ذهني صورة ذلك الرجل المهيب علي التوم وهو يذود عن تقاليد اهله وعشيرته ويرفض إدخال المحاكم الاهلية بصورتها المعهودة في ذلك العهد .

وكان علي التوم – شيخ عرب بكل ما لهذه الكلمة من معان ومن واجبات وحقوق ، وعندما جئت داره في اول عام ١٩٣١ ، كان مطلق السلطات في قبيلته يحتكمون اليه وحده ولا يعرفون مركزاً حكومياً خلافه ، فاذا ما اصدر

حكماً بالغرامة كانت له ، وان كان سجناً ضم السجين الى عماله يطعمه ويسقيه من عنده ويطلب اليه اداء بعض الاعمال وأهمها سقي الابل في الصيف – وقد حاولت الحكومة عندما أسست نظام المحاكم الاهلية ان تدخل هذا النظام في الكبابيش ، فوقف الرجل سداً منيعاً .. ونيوبولد في رسالته يذكر محاولته لارضائه ، وقد قبل ذلك بشرط الا يكون لها مظهر المدن من مناضد وكراسي وكتب ، ساخراً من كل ذلك ،مؤكداً أن طبيعة البدويين تنفر من هذا الوضع .. وقد قبل ان يسجل احكامه في دفاتر خاصة وأن يورد الغرامات للمركز ، على ألا يغير الاسلوب الذي درج عليه في نظر قضايا اهله .

ولقدشهدته يجلس في مجلسه العام على عنقريب صغير وأهله من حوله يجلسون على الارض الرملية يستمعون كلهم الى قضايا المتخاصمين ويبدي كل رأيه كما يشاء، وقد يحاول لأحد المتخاصمين ان يسر له بحديث لا يرضى ان يسمعه الآخرون ، فيأخذه من يده وينتزعه من مجلسه ليجلس به على الارض بعيداً عند ظل شجرة ان كان الوقت نهاراً ، او في الفضاء الرحب ان كان مساء ويفضي اليه بكل ما عنده ثم يعودان معاً ليجلس كل منهما حيث كان .

وكانت قضايا القتل بين افراد القبيلة تحل عادة بدفع الدية من اهل القاتل لأهل القتيل بعد ان يحددها علي التوم في مجلسه ويبدو من رسالة نيوبولد انه وضع قدراً من القيد لم يمس الجوهر على هذا الوضع بل لقد شهدت بعض قضايا بين الكبابيش والقبائل المجاورة تحل عن طريق – الدية - بعد التراضي بين الطرفين .

وانظر الى نبل هذا الرجل ، والمدير يسائله عن رجال القبائل من حوله - ومنهم من لا يطيب له جواره لما يلقاه منه من ضيق في المرعى والماء - فيمتدحهم ويثني عليهم ، ولا يفتح له ثغرة يستغلها بوصفه مدير المديرية ، وانه لدرس ارجو ان يعيه الكثيرون .

ويرفض علي التوم في اباء وشمم اغراقه في مظاهر التكريم الرسمية ويقول انه قد نال ما يكفيه ولا يريد المزيد وذلك عندما تحدث اليه نيوبولد عن كساوي الشرف وغيرها، ويصر الا تكون هنا علاقات خاصة او عفوية بينه وبين الحكومة وانها تكون منظمة وهو يرمي الى هدف بعيد الا يفاجأ بوضع للبادية لم يقره فهو يريد ان يكون الامر في يده وبمشورته أولاً ..

وقد عجبت لنيوبولد يذكر في رسالته انه أكل فراخاً جيدة جداً على مائدة علي التوم ! وما اذكر قط ان حوت المائدة فراخاً ، وقل ان يعنى البدويون بتربية الدجاج وخاصة الأثرياء منهم الذين يتسابقون في الاكثار من الابل .

وما زلت اذكر ونحن جلوس على الارض وقد بسط عليها السجاد في خباء علي التوم ونحن نأكل الثريد والشواء بأيدينا وأنا أرقب نيوبولد وزملاءه يمدون بأيديهم الى القصعة ويلتهمون الثريد او الشواء الذي جيء به من النار ساخناً على طريقة البدويين .

ليس لعلي التوم مطبخ وأوان عديدة كما هي في بيوت الأثرياء ، وانما كان يعيش كما يعيش البدويون من حوله .. وله خادم يدعى - الصافي - علمت انه ما يزال حياً يحسن اعداد الطعـــام البدوي ، ويمتاز بمعرفته لصنع « الرقاق » ويصب عليه المرق واللحم ، هذا بجانب (العصيدة) والملاح اللتين يجيد صنعها ولا شيء سوى ذلك يحسنه من الطعام ولا تتطلب حياة الشيخ اكثر من هذا ..

اما أواني الطعام فهناك الجفان السود من الخشب وهي طابع المائدة الرئيسي ، وقد يقدم الثريد عندما يكون هناك ضيوف ممتازون على صحون كبيرة من - الطلس - ولم اشهد في البادية قط صحناً من الصيني - وهذا طبيعي لأن كثرة تجوالهم وبساطة حياتهم لا تجعلهم في حاجة اليه .

أشار نيوبولد اشارة عـابرة الى حديث دار في تلك الجلسة عن نفوذ نساء

الكبابيش على ازواجهن وقد نفى له علي التوم هذا الزعم ، مع ذلك فاني لم أرَ مثل البدوية في قوة شخصيتها ونفوذها على زوجها ، ربما كان مصدر هذا ان كثيراً من المسؤوليات تقع على عاتقها، وكثيراً ما كنت اشعر في غشياني لبيوتهم مستأنساً بحرارة لقاء الزوجة ومبادرتها للترحيب متى كان الزائر معروفاً لدى الاسرة بل كثيراً ما رحبت المرأة بالضيف والزوج غائب فتكرم وفادته أحسن اكرام في نطاق استطاعتها وما تجود به الحياة البدوية من حولها .

ليل ونهار

انحدرت الشمس للمغيب وأخذت ظلالها الشاحبة تختفي رويداً رويداً والظلام يزحف نحو الحي وأخذت أرقب البدويين حولي كيف يستقبلون ليلهم حيث لا توجد وسائل الترفيه التي تعرفها المدينة من دور للسينما وأندية مختلفة ومقاهٍ عامة، بل حيث لا توجد شوارع او أزقة او اسوار تخفي النـــاس وتستر بيوت الشعر المتناثرة في العراء في غير تنسيق او نظام يربط بينها فكل منهم وضع بيته حيث طاب له ان يضعه .. قرب شجرة او في ربوة او عند منحنى الوادي لا تطاول في البناء ولا تفاوت .. فالناس جميعهم سواء في أزيائهم وبيوتهم وما يتنـــاولون من طعام، اتحدت مشاعرهم وطباعهم وعاداتهم ولا حجاب بينهم رجالاً ونساء.

وأدمت النظر للحي وهو يستقبل الليل .. وعلى مدى البصر حيث تتنـــاثر بيوت الشعر ، وضعت امام كل بيت كومة من الحطب أُوقدت فيها النـــار ، ولا يوقد البدوي سراجاً داخل بيته قط ، انه يكتفي بهذه النـــار التي يوقدها امام البيت فتضيء داخله اضاءة خافتـــة هادئة .. وترى الحي من بعيد والنيران تتقد امام كل بيت كأنمـــا انتثرت النجوم خلاله تهدي السارين فلا يضلون الطريق نحو الحي .

ومن قديم كان البدويون يعتزون بهذه النار ويفخرون بهـا انها تهدي اليهم الضيوف ليطعموا ويشربوا ويواصلوا سيرهم ولهذا سموها نار الضيف .

وفي اشعار قدامى البدويين في البلاد العربية الكثيرة عن هذه النار لا يخطئها اولئك الذين عاشوا مع الشعراء العرب الذين هاموا بالبادية وخلدوها في اشعارهم، ومن الذي لا يذكر – من قراء الأدب العربي – قصـة الشاعر الاعشى ونار « المحلق » وقد خلدها الشاعر في قوله :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة	الى ضوء نار في اليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانـهـا	وبات على النار الندى والمحلق

وقد زوجت بنات المحلق . وكن عوانس بسبب هذه الابيات . !

وقال اعرابي يسمى المرار الفقعسي يفخر بهذه النار :

آليت لا أخفي اذا الليل جنني	سنى النار عن سار ولا متنوّر
فيا موقدي ناري ارفعاها لعلها	تضيء لسار آخر الليل مقتر
اذا قال من أنتم ؟ ليعرف أهلها	رفعت له باسمي ولم اتنكر !
وماذا علينا ان يواجه نارنا	كريم المحيـا شاحب المتحسر

وشيء آخر بجانب هـــذه النيران الموقدة ، هذه الكلاب العاوية الضارية الكثيرة التي لا ينقطع نباحها عن الاذان ابداً ، والبدويون يعنون بهذه الكلاب عناية فائقة ، ويستولدونها من سلالات عرفت بينهم بالضراوة وشدة الفتك ؟ .. وهم يتحدثون عن انسابها وانساب الخيول والابل في دقة مذهلة .

ولكل نسل من انسال هذه الكلاب خصيصة او خصائص يتميز بها ويكون التفاضل بين هذه السلالات بقدر ما تمتاز به من سرعة وضراوة .

والكلب في حياة البدوي ضرورة لازمة ، مثل الغذاء وكل ضرورياته الاخرى ، فهو يستعين به على الصيد الذي هو جزء هام من حياته ، وقل ان يمر عليه اسبوع ، او دونه ولا يقوم برحلة صيد تتبعه كلابه التي دربها على ذلك . وأحب ايام الصيد عندهم عقب نزول المطر حيث يتعذر على الصيد ان يعدو بكل قوته فيسهل ان تبلغه الكلاب وهو يستعين بهذه الكلاب ايضاً في حراسة داره عندما يترك اهله وحدهم ويتبع ابله انتجاعاً للمرعى ، فلا يستطيع احد ان يقترب من الدار الا بإذن من اهلها وفي حراستهم حتى لا تنوشه كلاب الدار .

وكما تهدي النيران المتقدة الى الحي ، كذلك تفعل هـذه الاصوات التي لا تنقطع ابداً طوال الليل ، اعني نباح كلاب الحي الذي يسمع من بعيد ، وكما خلد شعراء العرب من قبل نيران أحيائهم بوصفها مرشداً للسارين ليغشوا دورهم ويكرموهم انشدوا ايضاً الشعر العذب يصورون فيه كيف يقود نباح كلابهم اولئك السارين ، وكيف كانوا يهشون للقائهم ويقدمون لهم القرى .. وكان من عاداتهم – اذا ضل احدهم الطريق بالليل – ان يقلد صوت الكلب حتى اذا ما سمعته كلاب الحي تعالى نباحها فيتجه اليهـا ويهتدي الى الحي ويسمونه « المستنبح » .. هكذا جاء في اشعارهم . كقول هـذا الشاعر البدوي الذي يفخر بأيوائه احد هؤلاء السارين الذين ضلوا فهدتهم ناره وكلابه ، وأنها لصورة ما تزال على قدم العهد حية باقية :

ومستنبح بعد الهدوء دعوته بشقراء مثل الفجر ذاك وقودها
فقلت له اهلاً وسهلاً ومرحباً بمـوقد نار محمد من يرودها
فان شئت اثويناك في الحي مكرما وان شئت ابلغناك ارضاً ترودها

واعرابي آخر يقول :

ومستنبح تهوى مساقط رأسه الى كل شخص فهو للسمع أزور ..

يصفقه أنف من الريح بارد ونكباء ليل من جمادى وصرصر
حبيب الى كلب الكريم مناخه بغيض الى الكوماء والكلب يبصر
حضأت له ناري فأبصر ضوءها وما كان لولا حضأة النار يبصر ..
دعته بغير اسم ، هلمّ الى القرى فأسرع يبوع الارض والنار تزهر

ومن خير ما يصور هذا اللون من الحياة الذي عرفت به البادية من اقدم عهودها حتى اليوم -- النار والكلاب وضيوف الليل يقطعون الفلوات على ظهور الأبل -- ما جاء في قصيدة اعرابي من باهلة :

وداع دعا بعد الهدوء كأنما يقاتل اهوال السرى وتقاتله
دعا يائساً شبه الجنون وما بـه جنون ولكن كيد امر يحاوله
فلما سمعت الصوت ناديت نحوه بصوت كريم الجد حلو شمائله
فأبرزت ناري ثم اثقبت ضوءها واخرجت كلبي وهو في البيت داخله
فلما رآني كبر الله وحـــده وبشر قلباً كان جمّاً بلابله
فقلت له اهلاً وسهلاً ومرحباً رشدت ، ولم اقعد إليه اسائله
وقمت الى برك هجان اعده لوجبـة حق نازلٍ انا فاعله

ومما ينشدونه مفاخرين قولهم :

وما يك فيّ من عيب فإني جبان الكلب مهزول الفصيل

وهو ذم اريد به المدح ، فجبان الكلب تعني ان كلبه قد انس للضيوف لكثرة ما ترددوا عليه فلم يعد ينبحهم وينوشهم -- ومهزول الفصيل يعني بذلك انه يحلب لبن نوقه للضيوف ولا يترك للفصيل ما يرضعه فيهزل جسمه .

ومن طرائف ما روي، ان الشاعر عبد الله بن مصعب لقب «بعائد الكلب» وذلك بقوله :

مالي مرضت فلم يعـــدني عائد منكم ، ويمرض كلبكم فأعود !

وهو عتاب حبيب موله يغفر لأحبابه ان لم يعودوه في مرضه ، وهو يعود كلبهم اذا مسه داء ! .

والبدويون قل ان يناموا بالليل ، وخاصة الشبان منهم ، فانك تسمع تحركات ارجلهم تجوب الحي والكلاب في اثرهم وهم لا يكترثون لها . ومن العيب الفاضح عندهم ان يبدي الرجل خوفاً او انزعاجاً من هجوم الكلاب عليه ، بل عليه ان يسير قدماً دون ان ينظر خلفه اليها وهي تعدو في اثره تبلغ قيد خطوة منه تعوي في شراسة وحفز للنهش ! .

ولكن يظل في سيره هادئاً دون التفات ، والا كان موضع سخرية الفتيات خاصة وقد يضعن له اغنية ساخرة لا يستطيع بعدها ان يطوف بالحي ! . ولهذا كان يطيب لهن ان تحيط الكلاب الضارية بأحد الشبان وتطل رؤوسهن من كل بيت باسمات متهللات ليرين كيف يخرج من هذا المأزق ؟ .. ولكم لقيت الأمرين من مثل هذه المواقف كلما طفت بالحي نهارا ، اما في الليل فقد كان ذلك مستحيلاً ! ..

ولكم ذكرت متعجباً في أمسى شاعر العربية الفذ أبا الطيب المتنبي . يصف زوراته التي هي أدهى من زورة الذئب الى حبيبته في البادية بين الاعراب والليل يشفع له ويستره فلا يراه احد وينثني وبياض الصبح يغري بـــه ويكاد يفضحه فيقـــول :

كم زورة لك في الاعراب خافية
أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليـل يشفع لي
وأنثني وبياض الصبح يغري بي ؟

رحم الله المتنبي وغفر له ، فلعل بدوياته الرعابيب لم يكن مخفورات بمثـــل هذه الذئاب الضارية التي تنهش العراقيب والافخاذ !

ولا تحسبن الليل في البـــادية كلاباً تعوي ونيراناً تتقد ، فالبدويين لهوهم وسمرهم ، انه الغناء والرقص ، وما أروعه في الليالي المقمرة ونسيم البادية يسري رخاء فيضاعف من النشوة والبهجة .

انظر الى الفتيات يخرجن على موعد من هنا وهناك ، حيث تنطلق أصواتهن مغردة تغريد البلابل في غناء وشدو يخف لسماعه الشبان من كل جانب وسرعان ما تتكون منهن حلقة الرقص التي قد تستمر الى قرب مطلع الفجر .

ولا تسل ما مناسبة هذا الغناء والرقص ؟ فالبدويون ليسوا في حاجة لمناسبة خاصة لكي يتجمع شبابهم ليغني ويرقص ، فقد يدعوهم لذلك جمال الليل المقمر ، او مجرد رغبة عابرة من بضع فتيات او فتية .. وقـــد تكون اوبة لبعض الرعاة من المراعي البعيدة.. فالغناء عندهم شيء طبيعي في حياتهم ، كالطعام ، والشراب ولا حياء فيه !.. فالرجـــل يغني ملء حنجرته .. قد يكون شيخاً هرماً وهو على ظهر بعير يقطع الفلاة ، او خلف ابله ، او وهو يستقي من منهل او بئر او مع رفاقه في حلقة انس ... الخ .

والفتاة تغني ملء حنجرتها وهي تجني من الشجرة بعض الثمار التي تعينهـــا في حياتها المنزليـــة ، وتغني وهي سائرة نحو المنهل على ظهر حمـــار « الراوية » او الجمل !

وتغني وهي خلف اغنامها متجهة نحو المرعى القريب من الحي — ان اصوات الغناء الحلوة العذبة لا تنقطع من اذني قط ليلا او نهاراً .. والغناء يمثـــل جميع ألوان حياتهم الاجتماعيـــة المحدودة ، فالفتاة تغني معبرة عن حبها وتصف من تحب بالشجاعة والنخوة والغنى ، والغنى يتمثل في كثرة ما يملك من الابـــل ..

والفتى يغني معبراً عن حبه واصفاً فتاته بالجمال والعفة والتفوق عن سائر الفتيات ويزهو ويفخر بشجاعته وكيف يجوب الفلوات مع ابله ويرتاد بها اصعب المسالك.. وستكون لنا وقفة مع هذه الاغاني فنفرد لها حديثاً خاصا ... وتشرق الشمس بعد ان نودع الليل بنيرانه وكلابه ورقصه وغنائه وعبث سماره ، وتدب الحياة من جديد في الحي . ولا يبقى من صور الليل الا هذه الكلاب التي يخيل اليك انها تفوق الانسان عدا ، لا ينقطع عنك نباحها ولا وجوهها التي تشبه الثعالب بألوانها المختلفة فهي تطالعك اينما اتجهت .

وبشروق الشمس تدب حياة جديدة ويتناول البدويون عادة وجبة الافطار الشاي الاسود قبل الشروق احياناً او عند الشروق اذا تأخروا . ثم يخرجون زرافات لأداء اعمالهم اليومية القليلة والتي يقوم النساء بأكثرها — ويجتمع الرجال في البيت الكبير — الذي خصصه الشيخ علي التوم لاجتماعاتهم اليومية العامة وهو أشبه بدار المحكمة المفتوحة ، وهي محكمة يعتبر كل حاضر من الناس عضواً فيها يشارك بالرأي ويبدي ما يريد من القول .

وفي هذه الاجتماعات يتحدثون عن كل شيء يتصل بحياتهم مثل أنباء المراعي وقصص العائدين ، من اسواق المدن وكيف باعوا بهائمهم ، وينضم اليهم خلال النهار ذوو الحاجات الذين يقصدون الشيخ من احياء اخرى بعيدة يحملون بجانب مشاكلهم انباء الحياة من حولهم ويقصون كل شيء على الشيخ والمجتمعين حتى ما يبدو تافهاً لكنه جدير عندهم بأن يسمعه الشيخ ليلم به .

واظرف ما يحدث في اجتماعات النهار هذه تحرش اصحاب الخيول المعروفة بسرعة العدو او اصحاب الجمال ذات الشهرة في قوة الاحتمال والسرعة ببعضهم ، ولا بد من ان ينتهي هذا التحرش الى سباق جديد يجرونه في الحال ويحدد له مكان الابتداء الذي يجتهد كل من المتسابقين في ان يكون بعيداً تعجيزاً للآخرين اما نهاية السباق فهي عادة عند البيت الكبير في مقدمة الحي . وما يكاد يخرج

المتسابقون على خيولهم ليبدأوا السباق حتى ترى منظراً عجيباً فالحي كله يمور بالحركة ، وتخرج النساء والاطفال والرجال يقفون في اماكن مختلفة تمكنهم من مشاهدة السباق ، ويعتلي بعض الصبية فروع الاشجار العالية لتمكنهم من رؤية المتسابقين عن بعد ، وبعض الرجال لا يكتفي بالوقوف بل يمتطون خيولهم او جمالهم ليرافقوا المتسابقين من اماكن مختلفة وليكونوا شهوداً صادقين على السباق خطوة خطوة ، كيف بدأ وأي الخيول كان في المقدمة ، وأيها في المؤخرة . ثم كيف وأين تقدم هذا وتأخر ذاك وهكذا حتى يبلغ السباق مداه ، وعندما يقترب المتسابقون من البيت الكبير يخرج الشيخ من مجلسه ومعه كل مجالسيه ليستقبلوا الفائز حتى اذا ما بلغهم تعالت ضجة الرجال استحساناً ، وانبعثت زغاريد النساء عالية تحييه ، والفائز « يبشر » بكلتا يديه مزهواً بالنصر ولا تكاد الارض تسعه لفرط اغتباطه ، ورفاقه يحيطون به في ضجة من الفرح والزهو .

وفي الليل عندما، تبدأ حلبة الرقص، من الجائز ان تسمع من الفتيات اغنية جديدة وضعت تكريما لهذا الفائز في السباق وخاصة اذا كان من رجال الحي ذوي النفوذ والسلطان !

وأغاني الفتيات تتعرض في أكثر الاحايين الى تصوير وتسجيل احداث الحي الهامة فهي أشبه بالصحافة اليومية غير ان هذه تسجل الاحداث الهامة نثراً وأولئك يسجلنها غناء وشدواً .. واعذب اغانيهن واوقعها عند الشبان ما يصور التنافس بينهم في مثل هذه المجالات ، فان الذين هزموا في السباق مثلاً واستمعوا لأغاني النصر تنبعث من الفتيات تهنئة للفائز ، لن يرضيهم إلا ان يدفعوا الفائز لاعادة السباق اكثرمن مرة حتى ينال النصر فارس آخر، وهكذا دواليك ويعيش الحي اياماً على قصة السباق يروي تفاصيلها ويتحدث عن اصول الخيول المتسابقة وقد يجترون ذكريات سباقات جرت بين آباء هذه الخيول المتسابقة وكيف ورث هذا او ذاك عن ابيه كذا وكذا من محاسن الخيول .

وكنت أقرأ في التاريخ عن حرب داحس والغبراء التي نجمت عن سباق كهذا وظلت عهداً طويلا تزهق فيهـا الارواح وتراق الدماء ويذكي أوارها الشعراء وكنت أشك في كل ما اقرأ ، وأستبعد ان يقود سباق بين الخيل الى حرب قاسية يتطاحن فيها الفرسان وتراق الدماء آمداً طويلا .. حتى شهدت كيف يحتفي البدويون بهذه السباقات وكيف تؤثر في مشاعرهم وكيف تفعل اغنيات الفتيات في نفوسهم اضعاف ما كان يفعله شعر الشعراء قديماً ، ولولا ما بينهم من اواصر القربى ، واختلاف الحياة اليوم عن حيـــاة البدويين في عهد داحس والغبراء لسالت الدماء انهاراً عقب كل سباق !

يا لي من هذه الذكريات العذاب ، قد مضى ذلك العهد الحبيب فلـكم سحرني ليل البادية الساجي وغناء الفتيات الذي يهز مشاعري ودبيب الفتية في الظـلام يلتمسون لحظات من الحب البريء ، والكلاب تعوي حولهم في عنف وشراسة وتطاردهم في ضراوة ثم يصبحون بقصص يضجون لها بالضحك في براءة وسماحة نفس .



الليل والنهار

الغفل وأخواتها

كلما هممت بالحديث عن المرأة في الكبابيش ومكانتها في ذلك المجتمع البدوي برزت امامي صورتان انطبعتا في اعماق قلبي ، رأيت من خلالها الفتاة والمرأة في البادية على طبيعتها دون تزييف .

الصورة الاولى لفتاة اسمها (الغُفُل) . والغفل كلمة عربية فصحى ، تطلق على كل ما ليس له علامة مميزة ، وللغفل هذه حظ من اسمها ، فقد ترك وجهها دون تحديد (شلوخ) فكان وجها طبيعياً كما خلقه الله جميلا الى حد الروعة . لقيتها أول مرة في اشهر الصيف ، وهي أشق الشهور بالنسبة للبدويين ، اذ يضطرون الى السكنى حول الآبار يستقون منها ويسقون بهائمهم ، ويعتبر يوم سقيا الابل من أشق الايام واعسرها على الاسرة فهي تقضي الليل بطوله بجانب البئر ، ينشلون الماء ليملأوا الاحواض التي تستقي منها الابل والصبية والفتيان يعاونون في تلك العملية الشاقة ، كل بالقدر الذي حدد له .

ومن عادتي أن أزور الآبار في كثير من الامسيات لأشهد صوراً من حياة البدويين ذات طابع خاص حول هذه الآبار .. ورأيتها هناك ، حسناء فارعة لفت الثوب حول خصرها وجانب كتفيها حتى لا يشغلها عن واجبها ، وهي

تدور هنا وهناك حول إبل الاسرة وقد برز صدرها نصف عار ، وتركت نهديها يمرحان في حرية . كانت تدور حول الابل ، تدني بعضها من حوض السقي ، وتمنع بعضها خشية التزاحم ، فهي دائبة الحركة ، بادية النشاط وعلى وجهها ويديها وعنقها غبار لم تكلف نفسها بازالته ، وكيف تستطيع ، وكل ما حول البئر غبار متصل تثيره الأبل ، وحول البئر فتية وفتيات ، وكلهم مثلها يؤدون ما تؤدي من عون لأهلهم وهم يستقون ، وانطبعت صورتها الحية في ذهني ..

وبعد فترة قصيرة ، هلّ عيد الأضحى ، وكعادة البدويين فان أول مظاهر احتفائهم بالعيد واهمها حلقات الرقص التي يعقدونها في مختلف الاحياء ، ويتحلق حولها الفتية والفتيات ، والكهول والشيوخ يأخذون حظهم من هذا اللهو البريء والمرح العذب . وفي احدى هذه الحلقات وكان اصدقائي من البدويين يحرصون على ان ارافقهم لأشاهدها معهم ، رأيتها يانعة انيقة ، تحلت بثوب جديد ذي لون صارخ ، والبدويات يكرهن الالوان الهادئة . ولبست بعض الحلى اتماماً لزينتها ، وتوسطت الحلبة ترقص وفي يدها سوط تثنيه وتتأود . ! وتلك أول مرة أرى فتاة ترقص وفي يدها سوط . ويقولون ان هذا لا تقدم عليه الا البارعة المفتنة في الرقص ! .

ومضت أيام غير قليلة ، وكان من عادتي أن اصحب الصديق محمد الكامل بخيت احياناً في جولة حول الاحياء للترفيه ، وهو شاب كان يعمل كاتباً عند الشيخ علي التوم وكان اثيراً عنده ، زوجه احدى بنات بني عمومته ، واندمج الشاب معهم حتى صار « كباشياً » في كل شيء ، وقد سره مقدمي الى البادية اذ رأى في وجودي بجانبه صورة من حياتـــه الاولى التي افتقدها في البادية ، وتوثقت بيننا الفة قوية فكنا قل ان نفترق .

كنا نخرج للصيد على الخيل احياناً وبالجمال احياناً أخر ، ولم يكن يهمنـا كثيراً اصبنا صيداً أم لم نصب ، فقد كان في تجوالنـا بين الاودية والكثبان

راحة ومتعة ، ولما نلقى من الاعراب المنبثين خلالهـــا من صور لطيفة ترتاح لها النفس .

وفجأة ونحن نعلو كثيباً أغبر ، برزت لنا فتاة على جمل (أصهب) وقــد احست بنا فتوقفت عن المسير لترى من القادم . وللبدويين فضول عجيب في تنسم الاخبار والتعرف الى كل جديد حولهم . وعرفنا الفتاة ، انها الغفل ، لفت ثوبها على خصرها في احكام وتركت رأسها وعنقها وجانباً من صدرها دون دثار .

ونهداها يمرحان في حرية فهي لا تلبس قميصـــاً كأكثر البدويات ، وسال شعرها على سالفتيها ، وامتدت ساقاها السمراوتان المكتنزتان على عنق البعير والتفتا متعانقتين .. وفي يدها اليسرى رسن الجمل وفي اليمنى سوط ، ليس للرقص هذه المرة وانما لتحمل به الجمل ليغذ بها السير .

وعجبت ماذا تريد في هذا المكان منفردة ؟ وسألها صديقي بعد ان حياها عن وجهتها ، وكان بطبيعة حياته الطويلة بينهم ، يعرف أهلها وهي ايضاً تعرفه — وأجابت بعد ان ردت التحية .. ضل بعير أهلي وأنا ابحث عنه . قالت هذا في بساطة ويسر — ونظرت اليها ملياً ، وانا أعجب في نفسي لفتاة دون العشرين تؤدي كل هذه المهام ، فهي بالامس حول البئر تعاون في سقي الابل وتعدو حولها هنا وهناك ، مغبرة لاهثة — وهي الآن وحيدة في هذا القفر تبحث عن بعير ضال .. وهي في ساعات المرح راقصة بارعة تحتفي بجمالها وتجلوه لتأسر قلوب الشبان من حولها ، وهي امامي الآن فتـــاة اقرب الى الفتى شدة مراس وبأس لا تخشى الوحدة في القفر فتجوبه منفردة .

وكانت هي تنظر الي كشيء غريب لا يشبه أهلها ولا مجتمعها ، ولعلهـا انكرت علي ركوب الجمل وشكت في مقدرتي على ذلك . !

فقد سألتني في ابتسامة ماكرة ، أتحسن ركوب الجمال ؟ وضحك رفيقي وهو

ينظر الي ويقول .. أتسابقها ؟ .

وظللت صامتاً لحظات وسمعتها تقول : لنتسابق الثلاثة !

وتهيأنا للسباق ، واشرنا الى مكان النهاية ووقفنا ثلاثتنا عند خط الابتداء كما اتفقنا عليه وانطلقنا ، ومرقت كالبرق الخاطف من بيننا ، وأشرت الى صديقي بعد مسافة قصيرة ان نتوقف ونتركها وحدها .. ولم تلتفت هي للخلف ، فقد كان جل همها ان تسبق ، وأن تثبت تفوقها على هذا الدخيل على حياة البادية ، فتشبع غرورها واستعلاءها ، وكانت تعدو بسرعة لم أشهد لها مثيلاً ، حتى اوشكت أن تغيب عن أبصارنا ، ثم توقفت والتفتت الينا لتجدنا بعيداً عند نقطة الابتداء ، فلوحت بسوطها في فرحة المنتصر ثم انطلقت كالسهم وابتلعها القفر بكثبانه ووديانه تلتمس البعير الضال .

لقد أرتني الغفل صورة حية للفتاة البدوية ، صورة ما زالت تعيش في اعماق نفسي زاهية براقة .

والصورة الثانية التي لن أنساها ما حييت ، والتي اكدت لي مدى شجاعة البدوية وقوة احتمالها وأثر التقاليد عليها ، كانت لامرأة تعاني عسراً في الولادة .. كان خباؤها قريباً من خيمتي ، وبحكم هذا الجوار عرفتها وعرفت أهلها ، فحياة البدويين الطليقة لا تعرف الحواجز الاجتماعية بين الرجال والنساء . وذات يوم أيقظني زوجها من النوم ليقول لي في أسى أن فلانة – ويعني زوجته – تعاني منذ أيام عسراً في الولادة وتتألم ألماً شديداً ، ورجاني ان كنت املك شيئاً من الدواء يخفف عنها بعض ما تعاني .

وكنت املك صندوقاً صغيراً به بعض الادوية اعتادت مصلحة المعارف ان تزود به المدارس البعيدة عن المستشفيات والشفخانات ، وكان لا يحمل غير بعض المراهم ، وحبوب الكينا وقطرة للعيون .. وكان هذا الصندوق اذا خلا مما بـه

نرسله لأقرب مستشفى ليملأ من جديد، ولكنني كنت استفيد من المساعدالطبي لمركز سودري عندما يقوم بزيارته السنوية التقليدية للبادية فيزودني بالكثير مما يسهل علي الانتفاع به .

وقد اعتدت ان أعالج بعض الحالات الخفيفة لتلامذتي وأهلهم ، كالجروح ، والتهابات العيون .. ولهذا فقد ظن صاحبي أني أملك لتلك المعذبة التي تعاني من عسر الولادة ما يعينها ، ولو كنت أملك شيئاً لما ترددت ، وكان أقصى مـــا استطعت ان افعله ان اعطيه حبتين من الحبوب المسكنة للصداع ، من فصيلة الاسبرين وهي كل ما عندي فاخذهما وخرج شاكراً ، وظن انه حصل على شيء ذي نفع . !

وظلت المرأة أياماً معذبة مؤرقة ، والنساء من اهلها يحطن بهـا ساهرات بجانبها وزوجها يغدو ويروح في قلق عليها ، كل هذا وانا لا اسمع من خبائهـا صيحة ألم واحدة .. ولا ترتفع لها أنـّة يسمعها من هو خارج الخبـاء على قيد أذرع .. كانت تتعذب في صمت .

وعجبت لهذه الشجاعة الخارقة وتذكرت النساء عندنا ، كيف يملأن الجو صراخاً في مثل هذه الحالات ، بل فيما هو اقل منها ألماً حتى ولو كان الوضوع سهلاً دون عسر ، وكنت أوالي السؤال عن تلك المرأة اشفاقاً وحزناً على مأساتها وهي تعاني ما تعاني بعيدة عن عون الطب ، حتى سمعت ضحوة يوم صوت الزغاريد يرتفع عالياً من داخل الخباء ، فعلمت ان الله كشف عنهـا الضر ، ووهبها غلاماً اذ ان الكبابيش كسائر السودانيين – لا ترتفع زغاريد نسائهم الا اذا كان المولود ذكراً – وخف اصدقاء زوجها وفي ايدي اكثرهم « البنادق » يطلقون رصاصها فرحاً وابتهاجاً كعادتهم في مثل هذه المناسبات .

وسألت من حولي من البدويين ، كيف تعاني المرأة ما تعاني من آلام الولادة ولا يند لها صوت ولا تسمع لها أنـّة ألم ؟ فقالوا انه من العار عندهم ان يرتفع

صوت المرأة مهما عانت من آلام الولادة ، فان ذلك يؤذي أباها واخوانها واهلها ويجلب لهم العار بين اهل الحي . فهي حفاظاً على كرامة اهلها واتباعاً لما سار عليه مجتمعها لا يرتفع صوتها بصراخ أو أنين مهما اشتدت عليها آلام الطلق !

ترى أيمكن للمرأة عندنا ان تكون في مثل شجاعة اختها البدوية فلا يرتفع صوتها مولولاً جازعاً يبلغ أبعد الآذان كلما جاءها ألم المخاض ؟ .

لقد اهدتني جارتي البدوية وهي تلد طفلها في صمت وشجاعة خارقة رغم ما كانت تعاني من حالة العسر التي اسهرتها عدة ليال ، أهدتني درساً في الشجاعة لا أنساه، وانا اهديه بدوري لفتياتنا المتعلمات المتطلعات الى مجتمع نسائي جديد.

وظاهرة بدوية اخرى اهديها لهن ، ذلك اني لم اجد بين سائر البدويات من تعرف (الزار) او سمعت به .

وكنت حريصاً لاعرف هل لهذا الداء الاجتماعي ، مكان بين البدويات ، وعشت اربع سنوات بين البدويين ابحث وانقب وارصد ، ولم اسمع ان فتاة او امرأة مرضت بالزار ، بل لا وجود اطلاقاً في كل البادية لمحترفات قرع طبول الزار واعداد حفلاته فالمرأة البدوية في عافيــة نفسية كفتها شر الزار ، فهي تعيش في حياة اجتماعية غير معقدة تجد فيها حريتها وشخصيتها الواضحة .

والعنوسة بين البدويات امر نادر الحدوث ، حتى الدميمات منهن يجدن من يتزوجهن ، ذلك لان الزواج سهل ميسور ، ولان الفتيان يتسابقون اليه في سن مبكرة ويندر بينهم من يتخطى الحلقة الثالثة ، دون ان يتزوج ، بل ان الكثير منهم يتزوج دون العشرين .

شيء واحد احسست فيه بغبن للمرأة وخروج على قواعد الشريعة ، ولكني عندما بحثته وتتبعت اصوله وجدته ينبع من عادة اجتماعية مستحكمة لها مبرراتها.

ذلك الشيء هو حرمان المرأة من الإرث – والمرأة البدوية نفسها اول من يحترم هذه العادة ويرعاها – فإذا مات الاب مثلاً ورث ابناؤه الذكور كل ما لديه من الإبل وهي مصدر الثروة الاساسي عندهم – اما البنات فيخصص لكل منهن جمل واحد تحمل عليه هودجها عندما يترحلون من موضع لآخر ، فاذا مات الجمل او مرض او عافته لسبب ما ، استبدل بآخر ، على ان يقوم اخوتها باستجابة كل مطالبها الاخرى مما يكفل لها العيش ..

اما ان يكون لها ارث معلوم من ثروة ابيها فذلك ما لا سبيل اليه .

فالبدوية تأنف ان تقاسم اخوتها الذكور ما خلف ابوها من ابل وترى ان تعيش في اكنافهم كما كانت عند والدها .

ربما كان مرد هـــذه العادة الى ما تستوجبه رعاية الابل والحفاظ عليها من مشاق لا تقوى عليها المرأة ، ولذا ترك امرها للرجال فهم اقدر على التنقل بها من مرعى الى آخر بين الصحارى ، والتعرض للاخطار الجسام من جراء هذا التنقل ، اذ كثيراً ما يسطو عليهم قطاع الطرق او المغيرون من رجال القبائل الاخرى التي تنافسهم في مناطق المرعى وتدور رحى معارك دموية يسقط فيها كثير منهم صرعى الرصاص أو السيوف .

فالهجوم على الابل لأخذها عنوة لا يعـد في بعض مجتمعات تلك المناطق سرقة او لصوصية تستدعي الاحتقار ، بل عمل بطولي يدل على الشجاعة وتتغنى به النساء ويفخر به الرجال .

واذكر وانا في الكبابيش في مستهل الثلاثينيات ان حكومة السودان اضطرت الى انشاء نقطة بوليس حول بئر العطرون في طريق الاربعين الصحراوي المعروف وذلك منعاً لحوادث النهب التي كانت تقوم بها بعض القبائل المتاخمة لحدودنا من الغرب وكانت تدور في هـذا المكان معارك دموية بالرصاص

بين المغيرين والبدويين ، وينهب فيها المنتصرون ابل المهزومين .

هذه الاخطار التي يتعرض لهـــا رعاة الابل منذ عهد بعيد هي مبعث هذه العادة ، الا ترث المرأة ، وان يترك للرجال وحدهم حق التصرف في الارث لأن المرأة لا تستطيع ان تحمي هذا الارث من الضياع والنهب .

فالى (الغفل) التي اهدتني صورة الفتاة البدوية الحسناء التي تبني مجتمعهـا في شجاعة .. والى جارتي التي اهدتني اروع صور الأمومة الباسلة ، اليهما على البعد اهدي تحية قلب لا يخف وجيبه حنيناً ..

١

* * *



القفل وأخواتها

الحسن يظهر في شيئين رونقه

كنت أعجب لأبي العلاء المعري ، الذي أحب بغداد فتمنى ان (يفنى دجلة بالجرع) شوقاً ، وان إماء بغداد افصح عنده من البدويات الرعابيب ، وقد جاء ذلك في قصيدته المشهورة : —

نبيٌ من الغربان ليس بذي شرع   ينبئنا ان الشعوب الى صدع

كنت أعجب له ان يفتن ببيوت البدويين التي يقيمونها من الشّعر (بفتح الشين) فيقول ان الحسن لا يظهر رونقه الا في بيت من الشّعر (بكسر الشين) او بيتٍ من الشّعر (بفتح الشين) .

والحسن يظهر في شيئين رونقه   بيت من الشِّعر او بيت من الشَّعر

وجئت البادية ، وشهدت بيوت الشعر بين الكثبان والوديان ، شهدتها في زينتها البسيطة الساذجة فأسرتني وبهرتني .

لست أنسى يوم ان دخلت لأول مرة بيتاً بدوياً وتأملت زينته وبساطته ، ففي وسط البيت ، سرير واحد من الجريد قوائمه من عيدان الشجر بغير تشذيب او تهذيب الا بالقدر الذي يجعلها صالحة لحمل السرير ، وليس على هذا السرير فرش مما عرفنا او ألفنا ، وانما تتدلى عليه من جانب البيت جلود بمثابة السجاد

تغطي السرير كله ، وهي من جلود البقر ، تم دبغها محلياً (بالقرض) ويسمونها (الهِدَب) بكسر الهاء وفتح الدال ، وعلى جـانب السرير تقبع حشية او حشيتان من الجلد ايضاً تم حشوها بنبـات هش طيب الرائحة وعلى هذا السرير الواحد تنام الاسرة كلها ، وقد ينام معها ايضاً ضيف عزيز اذا لم يكن من بد ، والا فللضيف فروة من الجلد يفترشها على الارض ... وقد تجد في بعض البيوت سريراً صغيراً آخر للضيف او لمن كبر من ابناء الاسرة .

وافتنت المرأة في تجميل جوانب خبائها بألوان من الجلد ، صنع بعضها سيوراً رقيقة رصعت بالودع ، وبعضها قطع مثلثات او مربعات على شكل أهلة ودوائر ومثلثات من الودع او القصدير او هما معاً .

وترى في جانب آخر شيئاً مضفوراً بالسعف على هيئـة هرم صغير ثبت في أعلاه قدر من ريش النعام .

وأينا اتجهت لجانب من جوانب البيت رأيت زينة لطيفة ساذجة ، كلها من صنع المرأة البدوية وحدها ، فلا أثر ليد نجار او بنّاء او حداد !. والبدوية تحب هذا البيت حبـاً يملك عليها اقطار نفسها ، ولا ترى له مثيلا ، ولكم من مرة سخرن مني عندما يجرنا الحديث الى المدن وبيوتها ، فكن يقلن في سذاجة محببة .. ويحكم ! - ألا يؤذيكم ان تسكنوا في مكان واحد طوال حياتكم ؟!.

ذلك لأن البدويين لا يسكنون في مكان واحد من الارض ، فهم اذا مـا أحسوا بالضيق من مكان ما او استنفد اغراضه ، كأن شح ماؤه او نفذ كلؤه ، هبوا سراعاً وحملوا بيوتهم على ظهور الجمـال وانتجعوا مكاناً مرعاً ، واكثر ما يضيق به البدويون ان يمكثوا في مكان واحد أمداً طويلا .

ولهذا فهم لا يتصورون اطلاقاً كيف يطيق الناس في المدن السكنى في قطعة واحدة من الارض ولا ينتقلون منها ابداً .. ويزداد عجبهم واستنكارهم عندما

يشيرون الى (ناس المــدن) بأنهم يقضون الحاجة داخل منازلهم الامر الذي لا يفعله البدويون ابداً ، فهم يقضون الحاجة نساء ورجالاً في الخلاء بعيداً عـــن منازلهم .

ولعل حب البدوية لبيتهـا مبعثه انها هي التي صنعته كله بيديها ، فهي التي دبغت الجلود وقصتها وزينتهـــا بالريش والودع والقصدير ، وعلقت في بعضها اجراساً مختلفة الاحجام لها اهمية بالغةعندما يحين يوم الرحيل ، اذ تجمل هودجها بأكثر ما هو عالق بجوانب الخباء وفي اولها هذه الاجراس .

وهي التي صنعت (الشملة) او الشمال التي يتكون البيت منها ومن وبر إبلها .

ولقــد ذكرني ولع البدوية ببيتها واعتدادها به قصة الاعرابية الحسناء التي قيل ان معاوية فتن بها وتزوجها لكنها كرهت قصور الامارة ، وطعام المدنيــة الرقيق ، وحنت الى بيتها البدوي ، وطعامها الخشن الجاف ، فطلقها ، وعادت الى اهلها وهي تنشد : —

لبيت تخفق الارياح فيه	أحب اليّ من قصر منيف
وكلب ينبح الطراق دوني	أحب اليّ من قط أليف
ولبس عباءة وتقرّ عيني	أحب اليّ من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في عقر داري	أحب اليّ من أكل الرغيف !

والقصيدة طويلة يعرفها قراء الادب العربي القديم وترويها كتب ادبية كثيرة ..

وفي هذا البيت الواحد تجتمع الاسرة وضيوفها يتناولون طعاماً واحــداً او يشربون الشاي الأسود الذي يولعون به ولعاً شديداً . ولن تجد أثراً للقهوة بينهم بل أكاد اجزم ان كثيراً من البدويات لم يشهدن « البن » في حيـــاتهن .. وحسناً فعلن . !

وليس من الاكرام عندهم ان تعزم الرجل على تناول الشاي مثلاً متى كان هذا الشاي أمامك تشرب منه ، بل عليك ان تكرمه بصنع شاي جديد ، انهم يسمون ما يقدم من أكرام لم يخصوا به ـ الصّدَف ـ أي انه إكرام جاء بالصدفة ولم يقصدوا به ، وهم يكرهون هذا ويعيبون به الرجل .

وبيت البدوي تكاد تكون أكثر مسمياته عربية خالصة ، فهذه (عمد) البيت التي يقف عليها ، وتلك « الحبـــال » التي يشد بها على الارض يسمونها « الطنائب » وواحدتها طنيبة وهي كلمة عربية فصيحة ، تذكرني ببيت المتنبي المعروف : ـ

هام الفؤاد بأعرابية سكنت بيتاً من القلب لم تمدد له طُنُباً

وعندما وصلت البادية اول مرة ـ كان ذلك في فصل الصيف أقسى الفصول وأبغضها لديهم ويسمونه فصل (الدّمر) اذ يضطرون للبقـــاء شهوراً بجانب الآبار ، فوجدتهم في لهفة وشوق لفصل الخريف حيث تبدأ رحلاتهم حول موارد الماء المعروفة لديهم هي أحب الرحلات الى قلوبهم .

وكنت اشد ما اكون شوقاً لكي اشهد جانباً من هـذه الرحلات التي كانوا يغالون في تصوير متعتها وبهجتها . وما كادت علائم الخريف تبـــدو في الافق واطل « الرشاش » ، كما نسميه لطيفاً منعشاً ، وظهرت في السماء سحب الخريف الاول التي يسمونها (ام بَشّار) حتى تأهب البدويون للرحيل ، وتغنت الفتيات في حلقات الرقص يستقبلن الخريف بقولهن : ـ

من طيرة امْ بشار
جاني السّلَف قطّار
اتلموا يا عُمّـــار
فرق الموالف حار

اي منذ بدأت تباشير الخريف تظهر ، جاءني (السلف) اي ركب جماعة من الشبان في طريقهم الى مناحي الرعي المختلفة ، وهي تهيب بهم ان يتجمعوا في مكان واحد حتى لا تتعذب بفراق من تحب (فرق الموالف حار) .

وجاء يوم الرحيل ، وقبل شروق الشمس دوى صوت النقارة عالياً مؤذنا بتقويض البيوت وشد الرحال .. وخرجت من خيمتي أشهد الحي وقد تجمع الرجال والنساء كل حول بيته يقتلع اوتاده ويقوضه ، والجمال حولهم متأهبة لحمل البيوت والعتاد .. وقد انهمكت النساء في وضع هوادجهن على ظهور الجمال ، وكا كن يتبارين في تزيين بيوتهن من الداخل ، فهن اليوم في مباراة كبرى لتظهر كل منهم ابهى زينتها في تجميل هودجها والجمل الذي يحملها اذ تضع على رأسه باقة من ريش النعام ، وتجمل الهودج بسيور مختلفة تتدلى من الجانبين رصعت بالودع وثبتت عليها اجراس مختلفة الاحجام ، حتى اذا ما تحرك هودجها احدثت هذه الاجراس رنينا حسن الوقع في الآذان ، وما كان اعذب هذا الرنين على مسمعي عندما انتظم الركب وسار الحي كله والهوادج تتهادى بيننـــا ورنين الاجراس ينبعث من كل جانب ... وقد حرصت كل صاحبة هودج ان تنشر في واجهته اجمل ثيابها ذات الالوان الصارخة – فهذه تنشر حول الهودج ثوباً لطيفاً من الحرير الاحمر ، واخرى تأبى الا تنشر على واجهة هودجهـــا ثوباً من (القرمصيص) الجديد ... وهكذا ..

وقوض اعوان الشيخ خيمتي وحملت على الجمل ، وركبت جملاً وسرت مع الركب ، انهم يسمونه (الظَّعَن) ولست في حاجة لاقول انها تسمية عربية فصيحة .

وانتشرت الجمال تحمل هوادج النساء المزخرفة على مد البصر ، ورنين الاجراس يقرع الآذان من كل جانب .

اما الرجال فقد انقسموا قسمين ، قسم وكل اليه حراسة الظعن ، فهو يسير

في المؤخرة حتى اذا ما حدث حادث ما ، كأن يسقط حمل الجمل مثلاً – اسرعوا فأصلحوه ..

اما القسم الآخر ، فهو حر طليق ، وقد ركب افراده الخيول استعداداً لما يلاقيهم من صيد ، وما أكثر ما يفزع الصيد مضطرباً في تلك الفلاة والوديان والالوف من الجمال والخيول تحمل الهوادج والرجال على مدى عدة كيلو مترات.

وما تكاد تبرز ارنب حتى تنطلق الخيول نحوها وتعدو الكلاب في اثرها والشبان يتصايحون بأعلى اصواتهم وهم يعدون بخيولهم ، حتى تسقط المسكينة في لحظات بين ايديهم . وقد يبرز غزال من بعيد ويبدو مضطرباً فلا يكون مصيره خيراً من الارنب اذ قلّ ان يفلت من مطاردة هذا الجيش الظعن اللجب الكاسح من الفرسان والكلاب وقد انتشروا مد البصر .. وقد تبدأ المطاردة من جانب بعيد للظعن فترى الغبار ونسمع الصياح من بعيد ويضطرب الصيد فلا يعرف اين يتجه ويقوده اضطرابه الى الدخول في وسط الظعن ، فترى الخيول والكلاب تعدو نحوه بأقصى سرعتها من كل جانب وتحاصره وتقضي عليه بين الضحكات العالية وصراخ الفوز .. وقد أطلت النساء من بين هوادجهن يتتبعن المعركة في اعجاب وغبطة ، وكل تتمنى ان يفوز بالغنيمة زوجها او ابوها او اخوها او يصرع بجانب هودجها فيهدى اليها بحكم التقاليد .

ويظل الظعن سائراً اليوم بطوله ، حتى مغيب الشمس ، وطوال هذه الفترة فان النقارة – وقد وضعت على جمل خاص . توقع ضربات رتيبة متباعدة حتى اذا آن وقت النزول وقعت ضربات سريعة قوية متلاحقة ، فيعرف الركب الظاعن ان « الشيخ » يأمر بالنزول في هذا المكان وتظل النقارة توالي ضرباتها القوية المتلاحقة حتى يتأكد الحي ان ليس هناك احد ضال ، اذ ان بعض الشبان يوغلون في الصيد ويبتعدون عن الظعن حتى يرخي الليل سدوله ، فتكون ضربات النقارة هذه خير هادٍ لهم لمكان الحي الجديد .

وقد تسأل كيف يطعمون ويشربون وهم سائرون منذ الصباح الباكر حتى مغيب الشمس ؟ ولا عليك ، فلدى كل امرأة على هودج طعام وشراب من اللبن او ماء او (ام شكة) وهو نوع يشبه الآبري عندنا ولكنه مسكر اذا اكثرمنه .

فاذا احس اي منهم بجوع او ظمأ فانه يميل الى اقرب هودج ليتناول منه طعاماً او شراباً ، وأحبه اليهم (ام شكة) هذه لوفرة الغذاء فيها ولأنها لا تحتاج منهم الى عناء في تناولها .

لا تظن انهم عند نزولهم ، يضع أي منهم انى شاء ، فهناك نظام دقيق متعارف ، فحيث ينزل رحل الشيخ ويعرف ذلك من صوت النقارة الذي ينبعث من الموضع الذي حل فيه – وينزل الآخرون في أوضاع معينة بالنسبة لمكان نزول الشيخ ، فهذا غربه ، وذلك في الجانب الشمالي منه ، بعد فلان وفلان ، وذلك في الجانب الجنوبي بعد فلان وفلان مثلاً ، ولهذا ما يكاد الحي ينتظم في مكانه الجديد حتى يسهل عليك التعرف الى أخبية من تشاء متى ما عرفت اين ينزل الشيخ .. وقد يكون هناك تغيير طفيف في هذه الاوضاع ولكن يندر ان ينتقل حي من الجانب الشمالي للشيخ مثلاً الى الجانب الجنوبي ..

هـــذا وينزل على يمين الشيخ وشماله ابناؤه ثم اخوانه فأبناء عمومته .. ولا يسمح لأحد كائناً من كان ان ينزل في واجهة بيوت الشيخ من الشرق ، فكل الاحياء تنزل على جانبيه ومن خلفه .

وطيلة اشهر الخريف ، وحتى نهاية آخر قطرة من الماء في الوديان الكبيرة التي تحتفظ بمـاء المطر فترة طويـلة ، فهم في تجوال دائم ، بهـذا الوصف الذي ذكرنا ، وهم اكثر ما يكونون بهجة وفرحاً لا ينغصها عليهم الا تذكرهم انهم بعد قليل عائدون الى (الدمّر) حول الآبار عندما يحل الصيف وتجف مياه الوديان ..

وقـد لا يستمتع برحلات الخريف هذه قليـل من الفقراء الذين لا يملكون

إبلا ، وانما يملكون قليلاً من الغنم يعيشون عليها في شظف ويندبون سوء حظهم.
ومن هؤلاء انتشرت اغنية لفتـاة من اسرة لا تملـــك ابلا ، وقد رأت عندما
تلاطمت سيول الخريف ان (النعيم سرب) والنعيم تصغيرة كلمـة (نَعَم) او
أنعام ويعنون بها الابل ، وهي عربية فصيحة .. سَرَب ، أي تحرك ، أي ان
اصحاب الابل قد ظعنوا بأبلهم الى حيث أمواه الخريف وسيوله ، وبقيت هي
وحيدة مع الغنم في (الكرب) وعجبت كيف لم يصب الله هذه بالجرب
ليزيحها ! : —

الليلة النـعيم سَرَب

لحـل السيل قلب

المعز الفي الكرب

ما صَادِن الجرب

ولها ان تبكي سوء حظها ، فمن شهد البدويين في رحلات الخريف، والهوادج
مزخرفة مزينة ، والفرسان على ظهور الخيـل يطاردون الصيد بمختلف أنواعه ،
والارض سندسية الوشي ، والمـــاء سهل المورد ، والفتيات في أبهى زيناتهن في
مرح وغناء ورقص ، فقد شهد موكباً رائعاً للجمال .

كلاهما من تراب

ودعت في هذه الحياة أحباباً كثراً وقفت عند قبورهم حزيناً موجعاً ، وما زلت عليهم حزيناً موجعاً كلما ذكرتهم - وما اكثر ما أذكرهم - ولكني لم اشعر قط بتفاهة الانسان وحقارته ازاء الموت مثلما شعرت بهـــذا في بادية الكبابيش .

لست أنسى يوم تعالى صراخ نساء الحيّ من حولي يبكون احد رجال الحي الاعزاء ، فأسرعت الى خباء الرجل حيث تجمع عدد غير قليـــل من النساء والرجال تحت ظلال الاشجار بعد ان فاض بهم الخباء الصغير ، ونواحهم يصم الاذان .. وكانت تلك أول مرة احضر فيها مأتما بدوياً .

وجلست مع بعضهم على الارض الرملية تحت ظل شجرة باسقة - ولعلي كنت من القلائل الذين قدموا للعزاء دون ان يعلو صوتهم بالنواح ، فقد كان كل من يقدم يبدأ في البكاء بصوت مرتفع من بعيد قبل ان يبلغ الدار وقد غطى عينيه بيديه وطرف ثوبه .. ولعل سبب هذه التغطية للعينين الا يكشف امره ، أسالت الدموع من عينيه ام انه يصرخ باكياً لمجرد واجب العزاء ؟ فان العزاء عندهم لا يكون الا هكذا ، نواح متصل كلما قدم قوم جدد على ظهور الخيل او

الجمال حتى اذا قربوا من الدار هبطوا من دوابهم وأوثقوها ثم اتجهـــوا نحو المكان للعزاء وقد تعالت اصواتهم بالنواح وايديهم تغطي عيونهم باطراف ثيابهم !

كنت جالساً ارقب كل هـــذا واسائل نفسي ، ترى كيف يحملون جثمان الفقيد ؟ واين يوسدونه الثرى ؟ وكان لا بد ان تدور هذه الاسئلة في ذهني وانا لم أشهد كيف يدفنون موتاهم من قبل ، واعرف ان ليس في خيامهـــم – الا نادراً جداً – هذه (العناقريب) التي تملأ بيوتنا ونحمل عليها موتانا .. وقد بدا لي الامر مستعصياً ، ففي داخل بيوتهـــم لا توجد غير تلك الاسرة الضخمة المصنوعة من الجريد والتي لا تصلح ابداً لحمل الجثمان ، واعرف ايضاً ان ليس هناك مقبرة بالمعنى المتعارف عليه عندنا ، ذلك لانهم قوم رحل ، لهم في كل آن مستقر جديد في تلك الصحراء المديدة ريثما يتركونه لغيره .

ولم تطل بي فترة التساؤل فقد جيء بجمل ضخم يبدو عليه الهدوء ، ورأيت بضعة رجال يحملون « قرفة » – كبيرة فارغة – والقرفة هـــذه تشبه الخرج عندنا الا انها اكبر منه ، تصنع من الياف الشجر او جلد البقر . ويعتمدون عليها عادة لخزن حاجاتهم من الذرة خلال تجوالهم – ولم اكن ادري لم جاءوا بالجمل والقرفة ؟ – وزاد عجبي عندما رأيتهم يملأون القرفة بالتراب ، ثم احكموا ربطها على صفحة الجمل ، وجاء بعضهم « بحويتين » ربطها على صفحة الجمل الاخرى وترك فراغها الى اعلى . حتى اذا تم ذلك دخـــلوا الى الخباء وعادوا يحملون الجثمان بأيديهم الى حيث كان يبرك الجمل . وفي هدوء وضعوا الجثمان على الحويتين المربوطتين على صفحة الجمل الاخرى وضعـــاً محكماً : – ووضحت لي الحقيقة الساخرة والتي لم اكن انتظرها هكذا . ! فعلى جانب الجمل الايسر عدلة من التراب ، وعلى الجانب الايمن ، الجثمان ..عدلتان على ظهر الجمل كلاهما من تراب.. تراب طبيعي لا يحس بنا ندوسه بارجلنا ونستخف به ، وتراب سوّي انساناً كانت له حياة زاخرة صاخبة كحياتنا ثم انتهت وتلاشت كأن لم تكن وعادت تعادل كومة من التراب على ظهر جمل يهطع بها الى المقر الاخير . !

وتواثبنا الى جمالنـــا وخيولنـــا لنسير خلف الجثمان ، وسار القليل منـــا على ارجلهم والاكثرية الساحقة على ظهور الخيل والجمال ، ذلك لأن من عاداتهم دفن موتاهم بعيداً عن الاحياء مما يقتضي ان يسير المشيعون راكبين لبعد المسافة ومشقة المسير اذ ليس هناك طريق معبد .

وركب على ظهر الجمل الذي يحمل الجثمان ابن المتوفي او شقيقه ، لست اذكر بالتحديد . وانما جرت العـــادة ان يكون اقرب الناس للميت ، وشد ما كان يحزنني نواحه على طول الطريق . وأكاد لا أزال احس بلدغ الحزن في قلبي كلما طافت بذهني تلك الصور الحزينة الموجعة لذلك الفتى ينوح من اعمـــاق قلبه باكياً وهو على ظهر الجمل الذي يحمل الجثمان ويردد .. وو ... وو .. الخراب جاني .. وو .. الحزن جاني ..! وهو يمد في احرف الكلمتين في نغم حزين ، وأي خراب أبشع واوجع من الموت !

وفي كل ما تمهم كنت أسمع هذا النواح الموجع يرددونه رجالاً ونساء.. وو.. الخراب جاني .. وو .. الخراب جاني .. وينغمونها في نواح يفطر القلوب ... ولكم شرقت عيناي بالدمع تأثراً بهذا النواح الموجع .. وهـــل حياتنا مهما امتدت وحفلت بالسرور والمرح الا الى الخراب ؟؟ وهـل نحن مهما كنا الا الى التراب ؟.

لقد أحسن البدويون بفطرتهم السليمة اختيار (قرفة) مليئة بالتراب يعادلون بها الانسان يحملونه الى نهايته فلا شيء قط غير هذا التراب يعدل الانسان .

وبلغنا الى حيث ارادوا ان يوارى الجثمان ، ليست هناك مقبرة بالمعنى الذي نعرفه ، وانما هناك منذ عام كذا ، وعندما كان الحي ينزل قرب هـــذا المكان ، ان دفن فلان او فلانة ، عند تلك الاشجار او قرب ذلك التل الصغير ، فلا بأس ان يجاورهم اليوم هذا الزائر الجديد ..

ان لهم على امتداد الصحراء العريضة من حولهم احباء أعزاء أودعوهم ثراها ثم رحلوا عنهم منتجعين مرعى آخر.. حتى موتاهم لم يكتب الله لهم ان يجتمعوا في مقبرة واحدة ، انهم مثلهم تفرقت قبورهم في البيداء حتى لم يعد يعرفها احد الا القليل النادر الذكر منهم .

وصلي على الجثمان — لحسن حظ الميت — ووري الثرى ، ولا جديد هنا الا ما رأيتهم يفعلونه عقب الدفن ، اذ عمدوا الى الاحجار الضخمة — يردمون بها القبر ولم يتركوا جانباً منه الا غطوه بالاحجار الثقيلة ، وسألت لم يفعلون هذا ؟ ونظر الي من أجابني وتجلت الدهشة على وجهه لجهلي وهو يقول .. انها الضباع والذئاب يخشون منها ان تنبش القبر وتنهش الجثة ان وجدت الى ذلك سبيلا !.

الا ما احقر الانسان واهون امره وان ظن في نفسه القوة !. وتذكرت اني في البادية حيث نقاسم الحيوان سكناه ، وطافت بذهني صور من ذلك الصراع الدموي بين البدوي وجاره الحيوان فأيها ظفر بالآخر صرعه وأكله ، لا اختلاف بينهما في هذا. وترحمت على المتنبي عندما أشار الى هذا الجوار الذي لا حرمة فيه ولا رعاية لود او اخاء .

جيرانها وهم شر الجوار لها وصحبها وهم شر الاصاحيب

وعدنا أدراجنا وقد خلا الجمل من عدلتيه ، اودعت احداها بطن الثرى ، وأفرغت الاخرى على ظهره .. وسكن النائح الحزين سكون عزاء او سكون لغوب .. ولن يعود احد ليرى هذا القبر ، وقد يذكرونه مرة بعد عهد طويل اذا قدر للحي ان ينزل حول هذا المكان وأصاب الموت احدهم . واخذوا يتشاورون فيما بينهم اين يدفنونه ؟.. سيقول بعضهم — كما قالوا اليوم — لقد دفنا عام كذا فلاناً عند أجمة السدر تلك ، او خلف (الزليطات) تيك ، فلو حملناه الى هناك لجاوره !.

وانتابني انقباض شديد وانا انظر خلفي الى ذلك القبر الموحش حيث دفن الرجل وتخيلت الضباع والذئاب تحف بقبره وتحاول زحزحة الاحجار عنه ، انه - حتى اذا ما سلم من الضباع والذئاب ، فسيظل قبره دون انيس من حوله عندما يشد الحي الرحال من هذا المكان ، وانهم لفاعلون ذلك غداً او بعد غد فما يطيق البدويون البقاء في مكان واحد ابداً .. وساءلت نفسي ترى ماذا اذا ما حانت منيتي هنا واودعت هذا القبر الموحش حيث لا يعودني احد ، ولا انيس من حولي وقد أكون نهباً السباع ؟.. ان المقابر في المدن والقرى تجاور الناس ، ومن يدري . فقد يؤنس الموتى دبيب الحياة من حولهم وبعض ذاكريهم يلمون بهم احياناً - اما هنا فلا طارق الا من الحيوان الضاري والا هذا الصمت الموحش .. وكدت ارثي نفسي كما فعل مالك بن الريب الذي قيل انه صحب سعيد بن عثمان بن عفان عندما ولاه معاوية خراسان ، وكان مالك كارهاً لهذه الصحبة التي ستبعده من اهله في بادية البصرة - وفي الطريق أناخوا للقيلولة فلدغته أفعى ، فأحس بدنو أجله وجزع ان تعاجله المنية في ذلك القفر الموحش بعيداً عن زوجته وبناته واهله ، فرثى نفسه بقصيدة مشهورة تعد من روائع الشعر العربي ، استهلها بتساؤل اللهيف الملتاع .. وادي الغضا أتراه يعود اليه ويبيت فيه ليلة وينعم به ؟.

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

ويلتفت مالك حوله فلا يجد من يبكي عليه في ذلك القفر سوى سيفه ورمحه وفرسه الاشقر ، وقد تخيله يجر عنانه ليرد الماء بلا ساق بعد ان فقد صاحبه !

تفقدت من يبكي علي فلم أجد   سوى السيف والرمح الرديني باكيا
واشقر خنذيذ يجر عنانه   الى الماء لم يترك له الدهر ساقيا

ويقول لصاحبيه من حوله : ان دنا الموت فانزلاني برابية ولا تتعجلا مفارقتي بل ابقيا معي يوماً او بعض ليلة . .

ويطلب اليهما ان يحفرا قبره بأطراف الأسنة وان يوسعا له في الارض ذات العرض فلا يكون قبره ضيقاً !

فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا ... برابية أني مقيمٌ لياليا
اقيما علي اليومَ او بعض ليلةٍ ... ولا تعجلاني قد تبين ما بيا
وقوما اذا ما استل روحي وهيئا ... لي السدر والأكفان ثم ابكيا ليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي ... وردا على عينيَّ فضل ردائيا
ولا تحسداني – بارك الله فيكما – ... من الارض ذات العرض ان توسعا ليا
ولا تنسيا عهدي خليليَّ بعدما ... تقطع أوصالي وتبلى عظاميا
يقولون (لا تبعد) وهم يدفنونني ... واين مكان البعد الا مكانيا !
غداة غدٍ يا لهف نفسي على غدٍ ... اذا أدلجوا عني وخلفت ثاويا

ولم يمت مالك بن الريب من لدغة الثعبان تلك ولست ادري أكان ساخراً عندما قال انه باع الضلالة بالهدى وسار في جيش ابن عفان :

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى ... واصبحت في جيش ابن عفان غازيا؟

ولكني كنت أردد هذه المرثية كلما شهدت قبراً في ذلك القفر الموحش ، وكلما شهدت ثعباناً من حولي . وما اكثر الثعابين حولنا . فكلما نزلنا مكاناً جديداً وأقمنا خيامنا نفرت حولنا ثائرة ، فيلقى الواحد منا اكثر من ثعبان كل يوم بالقرب منه او في سريره او حذائه او في طريقه ، واني لأعجب حتى اليوم كيف سلمت من لدغتها وقد تعرضت للمئات منها خلال سنوات عملي هنساك ، ولكن عناية الله ودعاء من خلفنا وراءنا يذكروننا في صلواتهم وقرآنهم بقلوب عامرة بالايمان، أثابهم الله الجنة، وانهم لمن اهلها فقد نزلوا في رحاب كريم تواب.

ولنعد الى الحي بعد ان تركنا القبر موحشاً في قفر يباب ـ وكعادة المآتم عندنا جلس الرجال يتقبلون العزاء ويحملون طعامهم في جفان سود من الخشب ، تتوسطها تلال صغيرة من عصيدة الدخن يختلف ادامها ولا تختلف هي ، فبعض الادام من اللبن او « الروب » وبعضه من « الشرموط » والويكه وبعضه ماء ساخن عليه سمن طيب النكهة .. وفي خباء مجاور تجمعت النساء بمثل هذا ..

وتدار على الجالسين أقداح الشاي الاسود ـ فكلما كان الشاي أقرب للسواد في لونه ، والى العسل في طعمه كان اثيراً لديهم حبيباً الى نفوسهم ، وكلما قدم فوج للعزاء رفعوا اصواتهم بالبكاء من بعيد وهم يمشون نحو الخباء .. فاذا ما بلغوه جلسوا القرفصاء يواصلون نحيبهم وقد غطوا وجوههم بايديهم واطراف ثيابهم ، ويظلون على هذا الوضع وفي جلستهم تلك حتى يدنو منهم احد الأقربين للميت ويطلب اليهم ان يكفوا .

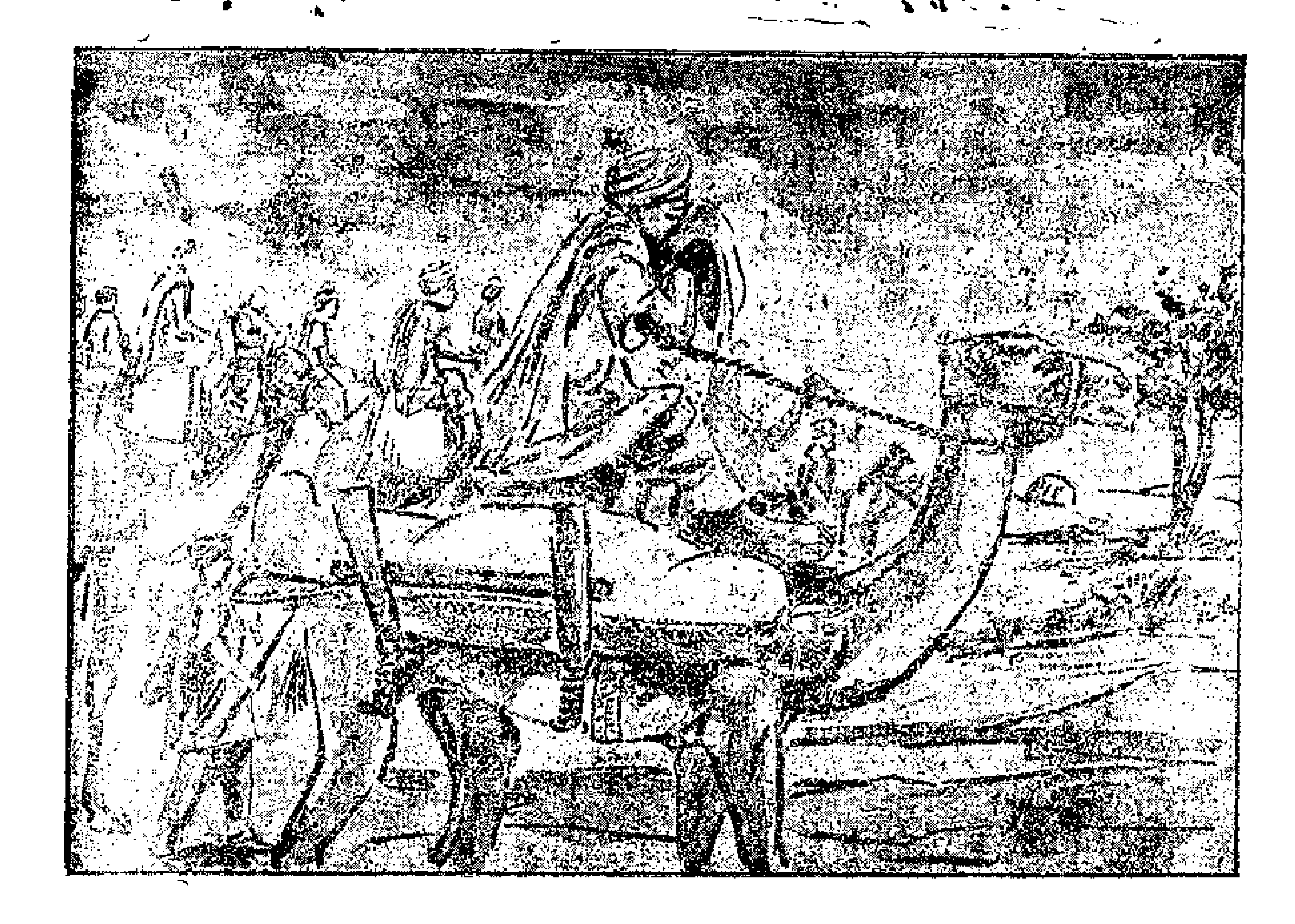
وكعادتنا جميعاً فأنهم ـ ينصرفون ـ في اليوم الثالث او الخامس ويذبح اهل الميت ما يستطيعون وفق مكانتهم فقد يكون خروفاً او ثوراً او بعيراً او كلها مجتمعة ولكنهم قل ان يجدوا الفقهاء الذين يتلون القرآن في مثل هذه المناسبات وقد يكون بعض الاحياء محظوظاً لوجود فقيه فيه وهو ليس من البدويين قطعاً .. وبمناسبة الفقهاء اذكر ان البدويين بحكم تجوالهم ليست لديهم بالطبع مساجد للصلاة ولا يعرفون صلاة الجماعة ، وتكاد لا تكون هناك شعيرة دينية تجمعهم الا صلاة العيدين ..

ومن اطرف ما اذكره ان جاء مرة فقيه من شنقيط يطلب عون الشيخ علي التوم رحمه الله ـ فلما جاء اوان صلاة المغرب توسط الحي واخذ يؤذن للصلاة ـ وكانت هذه اول مرة يحدث فيها هذا ، فخرج بعض الاطفال والنساء ينظرون اليه في دهشة ، ويتساءلون فيم يصيح هذا الرجل ؟ وماذا يعني ؟ وسألني تلاميذي عن موضوع هذا الفقيه ، وكانت فرصة حسنة لأحدثهم عن الاذان

والمساجد ، ولماذا خلت باديتهم منها ؟ وبالطبع فإن اكثرية الرجال من البدويين يعرفون الاذان وقــد سمعوه عند ترددهم على المدن الا المقيمون هناك وخاصة النساء والاطفال .

معذرة اذا جاء حديثي حزيناً قاتماً وقــد عودتكم ان اقف بكم عند الصور الزاهية المشرقة عند البدويين ولكن متى كانت الحيــاة كلها زاهية مشرقة ؟!





كلاهما من تراب

سباق سنوي

ليس احب الى البدويين من فصل الخريف ذلك لأنه يوفر لهم المرعى والماء وينقذهم من مشاق الآبار التي كثيراً ما يشح ماؤها وينضب معينها وقد تحلقوا حولها يرقبون ما تجود به على فترات متباعدة والخريف يجعلهم ينطلقون في آفاق الصحراء الفساح يوماً هنا ويوماً هناك وبعد غد في غيرهما لا يملون الترحال ولا يرتضون البقاء في بقعة واحدة وقد اخضرت الارض وسالت المياه في كل واد فأبهجت واروت ، فيغريهم جمال الطبيعة من حولهم وسخائها بانتهاب كل محاسنها والارتواء منها .. لا يثنيهم عن الترحال والتجوال مريض يرقبون شفاءه فهم يحملونه معهم في تجوالهم حتى اذا حانت منيته بأي ارض مكثوا له يومين او أكثر بقليل ، على قدر مكانته في الحي ، ثم ساروا عنه وخلوه في مكانه مقبوراً .

واذا اشتد الطلق بامرأة حبلى ، ظلوا ريثما تلد الجنين ، ثم حملوها على هودجها وانطلقوا حيث شاءوا .. !

ويسمون رحيلهم وتجوالهم في فصل الخريف.. (النشوغ) وما أبأس البدوي الذي لا (ينشغ) مع العرب لعلة ما . ! انه كمن فقد الجنة .. وقد سمعتهم

اذا اراد احدهم ان يدعو على آخر بالسوء والشر، يقول له .. انشاء الله «تقافى» الخريف .. أي تجعـل الخريف وراءك – في قفاك – فلا ترحل لنشوغ مع العرب .. وهذا أقسى ما يمنى به احدهم من الضر والاذى .

فاذا ما انتهى الخريف ولم تبق قطرة ماء في واد من الاودية لم يكن هنـاك بد من ان يتجهوا عائدين الى الآبار ويكون ذلك عادة في اعقاب فصل الشتاء .. ويسمون مناطق سكناهم حول الآبار « الدَّمَر » بالدال المشددة المفتوحـة والميم المفتوحة ، كما وصفت من قبل .

وبالرغم من انهم يتجهون الى الدَّمَر وهم مكرهون اذ يعودون الى مشقة متح الماء من البئر بعد ان كانوا يردونه سهلاً ميسوراً في الاودية ، فانهم لا ينسون مرحهم وولعهم بالسباق وهم يتجهون نحو « حمراء الشيـخ » مقرهم الصيفي ..

فقد درجوا ان يقيموا سباقاً ضخماً بين الجمال عندما يقتربون من الدمر ، وهو سباق لا يحـدث الا مرة واحدة كل عام ، عند عودتهم من « النشوغ » .. تشترك فيه مئات الجمـال التي اشتهرت بينهم بالأصالة ، وانهم ليعرفون اصولهـا كما يعرفون اصول بعضهم ، وخاصة تلك التي استجلبت او استجلب آباؤها او امهاتها من شرق السودان حيث توجد اشهر الجمـال في السودان .. وقبيلة « البشاريين » تحظى بالنصيب الاوفى منها : واليها ينسب الجمل « البشاري » الذي يعتز به بدويو غرب السودان ، وفي مثـل مستواه الجمـل « العنافي » .. ويسمون الجمل الهجين الذي يجيء من اب من الشرق وام عادية من الغرب بالجمـل « البشندي » بفتح الباء والشين ، وهو يصلح لتحمل عليه الاثقال ولا يصلح للسباق .

وقد اعتدت عندما نقـترب من نقطة بدء هذا السباق الكبير ، ان اسبقهم ليلة الى حمراء الشيخ منطقة نهاية السباق ..

ويبدأ السباق من مسافة قد تبلغ العشرين كيلو متراً ، ويشترك فيه الرجال من مختلف الاعمار وقد أطلت النساء من هوادجهن يرقبن البداية، والجمال تنطلق كالسهام من كل جوانب الركب ، والرجال يتصايحون بالمتسابقين يحثونهم .. والنساء يزغردن بعثاً للحماس .

ومنذ ان يتجه الركب نحو المراء ولا حديث لهم إلا عن هـذا السباق .. والتكهنات عن نتائجه ، وأي الجمال يفوز بالسبق .. ويعددون المشهور منها ، وما كان له فضل السبق في جولات اخرى ، ويطول النقاش ويتشعب اشبه بما يدور بين انصار كرة القدم هنا عندما يعلن عن مباراة بين الهلال والمريخ مثلا ، فالناس يزنون لاعبي كل فريق ، ويتكهنون بالفوز ، ويقدرون عدد الاصابات .. والسباق في بدايته شبيه بهـذا .. يزنون الجمال المتسابقة ويقدرون النتائج ، وقليلا ما يخطئون .. كنت ارقب نهاية السباق كما ذكرت اذ كنت اسبقهم الى هناك عند تاجر صديق يعيش في كوخ من القش ، سمح له بالبقاء هناك لبيـع بعض الحاجيات الضرورية للبدويين .

ومن بعيد تتراءى لنا طلائع المتسابقين وقد اصاب الجمال الاعياء ، بعد ان استنفدت قوتها تلك المسافة الطويلة للسباق ، ويبلغنا السابق الاول وهو يلوح بسوطه مزهواً بالنصر ، ويحاول جاهداً ان يزيد من سرعة الجمـل حتى اذا ما بلغ موضع نزول الحي ، نزل عنه وأشهد الحاضرين ممن سبقوا الى هذا المكان .. ويتوالى وصول المتسابقين احياناً ، وعلى دفعات متقاربة حيناً آخر ، وقـد اصابهم الاعياء ونال إبلهم الكلال ولكنهم جميعاً فرحون مستبشرون يتقدمون الى السباق مهنئين . ويدور اللغط بينهم عن اسباب تخلف جمل فلان او فلان ممن كان يرجى منها ان تفوز بالسباق ، كل يروي كيف قعد به الحظ وعاقه عن الفوز ..

ومن بعيد تبدو طلائع « الظعن » ويبلغنا رنين اجراس الهوادج وهي تقترب

من المقر الجديد ، والنساء والرجال الذين كانوا بالظعن يتساءلون في لهفـة عن نتيجة السباق وأي الجمال فاز ؟ مثلما يتلهف عشاق الرياضة الذين لم يسعدوا بمشاهدة المباراة بسؤال من شهدوا المباراة عن نتيجتها وسير اللعب فيها ومن اجاد ؟ ومن تخلف ؟ !

وتحط الجمال رحالها ، وينتشر النساء يعملن بمساعدة ازواجهن او اخواتهن في نصب بيوت الشعر ، ولا تمضي ساعات حتى تكون البيوت قـد نصبت ، واستقامت لهم حياتهم المألوفة .. حتى اذا اخذ الحي حظه من الراحة ، وتجددت الرغبة بين الشبان والشابات لاقامة حلقات الرقص ، نسمع من بين الاغنيات الجديدة اغنيات تشيد بالفتى الذي فاز بالسباق وتمجد بطولته ، وتكبر اصالة الجمل الذي سبق .. ! ويزهو الفتى السابق بهذا الثناء ، ومن حقه ان يزهو به اذ يظل محتفظاً بالبطولة عامه كله ، فاذا ما جاء الخريف وهبوا الى النشوغ ، مرة اخرى ثم عادوا الى الدمر واقتربوا من حمرة الشيخ عاد السباق قوياً عنيفاً ، وفاضت الصحراء بمئات الجمال – الرجال على ظهورها وقد لفوا ثيابهـم على بطونهم وصدورهم كل منهم يأمـل في الفوز .. وفي اغاني الفتيات تشيد به .. !

وما رأيت كالبدويين في قوة ملاحظاتهم ودقتها ، وان بدا لك انهـم كالبلهاء وان لهم لسخرية مريرة بكل شيء لا ينتمي اليهم ..

وتبدو قوة ملاحظاتهم ودقتهـا اكثر ما تكون وضوحاً في تتبـع اي اثر لحيوان او انسان .. انهم يصلون في هذا حدا يبلغ الاعجاز ... يكفي ان ينظر احدهم الى اثار جمال في الطريق ليقول لك انها تحمل شيئاً ثقيلا وتسير ببطء وقد يقول انها خفيفة الحمل سريعة الخطو ، يعرف هذا من ضغط خف الجمل على الارض ومن المسافة بين خطواته .. وكنا اذا نزلنا في ظل اجمة من الاشجار ووجدنا اثار قوم قبلنا ينظر احدهم الى حيث كانت تبرك جمالهـم

والى بعض (بعرات) يسحقها بيديه ، ليحدد لك متى كانوا هنا ، ومتى تحركوا ، بل يستطيع ان يحدد اذا كانوا يحملون مع ابلهم شيئاً ام ذهبوا خفافا ، ومدى سرعتهم في السير ولا يخطىء في هذا ابدا ، وقد يمضي الى ابعد من هذا فيحدد اين كانوا من قبل وفي اي واد كانت ترعى الابل ، وهذا يعرفه من سحقه للبعر ليستدل على نوع الشجر او النبات الذي رعته .

اذكر قصة طريفة ، حضرت وقائعها في احدى جلسات المرحوم الشيخ علي التوم فقد افتقد احد البدويين بعيراً من ابله ، وبحث عنه طويلاً ولم يجده .. ولكنه لم ييأس ، فقد درج على ان يمعن النظر في آثار كل ابل تعترضه عسى ان يجد اثر بعيره المفقود بينها .

وبعد سنتين كاملتين ، كان يرد بأبله البئر ، وكعادته اخذ يطوف حول البئر ممعناً النظر في آثار الابل التي وردت وصدرت .. وبينما هو يدقق النظر في آثار مراح من الابل وقعت عينه على اثر بعير ما شك في انه بعيره المفقود . وسرعان ما ترك ابله حول البئر مع اخوته ، وركب جمله وسار في اثر ذلك المراح الذي وجد اثر بعيره معه . وبعد فترة بلغ المراح ، واتجه اليه باحثاً بنظره هنا وهناك ، حتى وقع على بعيره المفقود . واتجه اليه دون تردد وساقه امامه .. واعترضه صاحب المراح الذي لم ينكر انه وجد البعير ضالا وضمه الى ابله دون ان يعرف صاحبه .. وأبى ان يسلم البعير لصاحبه الا امام الشيخ .. وجاءا معاً الى مجلس الشيخ ليفض هذا النزاع .. وروى صاحب البعير المفقود قصته ، وكنت من بين الجالسين ، واستمعت اليه مذهولا وسألته : اعرفت اثر بعيرك الضال بعد سنتين ؟ ومن بين مراح تجاوز عدده المائتي بعير ؟ ! . ونظر اليّ ساخراً ، وعجب من سؤالي وشاركه في السخرية والتعجب كل من كان في مجلس الشيخ ، وقالوا كيف ارى في هذا ما يستدعي التساؤل والعجب ؟

وضحك الشيخ علي رحمه الله ، وقال لي : ليس في هذا غرابة بل الغرابة الا يعرف اثر بعيره مهما طال به العهد ؟

ولقد شهدت بعض اطفال البدويين الصغار يرعون الماعز حول الحي ، وكان يطيب لي كلما لقيت احدهم ان اختبر ذكاءه فكان اكثرهم يعجز عن ان يعد من واحد الى عشرة او عشرين عندما اطلب منه ذلك ، ولكن متى ما سألته عن غنمه التي يرعاها كم هي ؟ وكيف يفتقدها اذا ضاع منها شيء بسط اصابعه وبان عليه التحدي وهو يذكرها بأوصافها وانسابها واسمائها وامهاتها وبناتها.. قائلا: حميرة وبناتها الثلاث ، وام قرون وامها ..! والربدة واختها !.. وهكذا لا يترك من مراحه واحـدة إلا ذكرها بوصفها وما ينتسب اليها غير ناس حتى ما ولد منهـا حديثا !.. حتى اذا ما أكمل عدها بهذا الاسلوب الساذج البارع نظر الي نظرة المنتصر المعجب بنفسه والواثق من معرفتـــه لدقائق مسئوليته ... ذكاء فطري لماح .. ما أكمله لو وجد تعليماً وتهذيباً وتوجيهاً .



سباق سنوي

عرس بدوي

ألا ما أبهج الايام التي قضيتهـا مع البدويين في أعراسهم وافراحهم وكل من حولي منتش طروب تغمره الفرحة والبهجة، وانا سعيد مغتبط بينهم بما يتكشف لي من عالم جديد في العادات والطباع لم اعرفه من قبل في حياتي التي ألفتها قبل ان ألقى البدويين واعيش بينهم وتنشأ بيننا هذه الالفة الوثيقة التي جعلتني واحداً منهم اشاركهم كل ما يستقبلون من الوان المرح او الحزن والغضب .

كنت كثير الاستطلاع والسؤال عما يقع عليه بصري او اسمع عنه او يثار في حضوري ولا أكون على علم به من قبل .

وكنت أتطلع شوقاً لحضور حفل عرس بدوي من بدايته حتى نهايته، حتى سنحت الفرصة بزواج شاب من حي الحمراء حيث صارت تربطني بكل سكان الحي صلة قوية ومعرفة وثيقة حتى لكأنني واحد منهم .

ودعينا منذ الصباح الى دار اهل العريس ، وأخليت لنا عدة اخبية ليجتمع فيها الرجال يسقون فيها ويطعمون ، وتجمع النساء في اخبية مجاورة وقد شغلن باعداد الطعام والشراب للرجال ، ولا تظن ان هناك حائطاً او ستاراً بين النساء والرجال وانما هي بيوت شعر في العراء كالخيـام ، لا ابواب لها ولا نوافذ تغلق وتفتح .

وتجمعنا في خباء مطنب ، اي تشده الطنائب (الحبـــال) تعلو اصوات المتحدثين ولا تخضع للنظام ، وجاء اهل العريس بقدر كبير من — المريسة — وهي الشراب الذي يقدم في كل مناسبة وفي كل يوم ، منها ما يشرب للسكر ، ومنها ما يشرب للاشباع اولاً والسكر ثانيـاً .. اذ انها تصنع على عدة الوان ، وكان عزوفي عنها امراً غريبـاً لديهم ، فهم يلحون ويلحون وازداد اصراراً على الرفض وألح في الاعتذار ، حتى يعفوني منهـا بعد جهد جهيد ، وعلى وجوههم معاني الرثاء لهذا المحروم من شرابهم الهنيء الذي لا يكاد احدهم يتركه يوماً الا مكرهاً او معدماً !

ويجيء الشواء وهو أشهى ما يقدم في البادية ، فآخذ حظي منه بشهية ، ثم يقبل علينا بجفـــان سود عليها (كبدة الابل نيئة) اذ لا بد ان يذبح اهـل العريس — بجانب الغنم — ناقة على الاقل اذا كانوا من اثرياء البـــادية .. ومرة اخرى احاول جاهداً ان أجاملهم وأتنـــاول قدراً من كبدة الابل النيئة فلا استطيع .. كنت حديث عهد بهذه الحيـاة ، ومرة اخرى أرى على وجوههم الكثير من معاني الاشفاق على هذا المحروم من اطيب نعم الحياة عندهم.. المريسة وكبدة الابل النيئة ! —

وانظر اليهم وهم يأكلونها في نهم ، وينـادون احد اهل العريس ليزيدهم من (السَّعْدَانة) ولا اعرف ماذا يعنون بالسعدانة هذه حتى يقبل الرجل وفي يده جفنة فيها قدر من شحم زور الناقة ، فأعرف انها السعدانة !. وهي من أشهى الطعام عندهم ..

وأشاركهم الطعام عندما تقبل علينـا جفان فيها كبدة مطبوخة ولحم وثريد ، كل هذا وكؤوس المريسة مترعة دائماً ولا تكف الأيدي عن تنـاولها ، ولا يطيب لبعضهم ان يشرب الا اذا احدث صوتاً من فمه او زوره كأنما هي موسيقى خاصة تعينه او تحبب اليه الشراب .. والكبابيش يرسلون عادة لحاهم

وشواربهم ، وترى الشباب منهم يتعجل إنماء لحيته وشاربه ، فتلك من مظاهر الرجولة الحقة عندهم ، ولكم كان يثير ضحكي ان أرى « شارب » كل منهم قد ارتوى من الكأس ، ولهذا ما يكاد أحدهم يضع الكأس من يده حتى يمر بيديه على شاربه يمسح ما علق به من أثر الشراب ، ثم يمشط لحيته بيديه كأنما يريد ان تنال هي الاخرى حظها مثلما نال شاربه ! .

وفي الاخبية الاخرى تجمع الفتيات والنساء يطعمن ويشربن ، وقد تدار عليهن انواع اخرى من المريسة اخف اثراً ، او هي نفسها لبعضهن .

وانتصف النهار وأخذ ميزان الشمس يميل نحو الغروب ، وجاء وقت السيرة وانا أنظر للعريس يتهيأ ، لقد لبس ثياباً جديدة كلها من الدبلان الناصع البياض ، سروالاً طويلاً وقميصاً تجاوز الركبتين بقليل ، وثوباً كاسياً كبيراً يتدلى طرفاه حتى مواطىء قدميه .. وضمخ النساء رأسه « بالضريرة » مثلما يحدث عندنا ، ولفوا على رأسه منديلاً يتوسطه « خرص » من الذهب عند الجبهة ، وفي يده (الحريرة) ذات الخرزة الخضراء ، وسوار من الفضة ، وعلى عنقه (سبحة) من « اليسر » الاسود ، وفي يده سوط وسيف ، ثم جيء بعظمتين متصلتين من عظام السمك ، ربطتا مع الحريرة في يده بجوار السوار . وحرت في تعليل هذا التقليد من اين جاء للبدويين وهم في الصحراء التي لا يرى فيها السمك ! وقل من بينهم من رآه بعينيه ان يجعلوا من مراسم العرس الاساسية ان يلبس العريس عظمتين متصلتين في وضع خاص معين من عظام السمك ؟ .. وقد عرفت ان العروس تلبس ايضاً مثلها مع ما تلبس من حلي العرس ... وقد استحال على كل من سألت من شيوخ البدويين ان يدلني على مصدر هذه العادة ، كل اجاباتهم انهم هكذا ورثوا عن آبائهم ، وان العريس والعروس لا يتم (جرتقهما) الا بهاتين العظمتين من السمك .

وتجمع أصدقاء العريس على ظهور الخيل والجمال وانطلقت الزغاريد

والاغاني وجاء بعض الفتيات يحملن مجامر الطيب والدخان العطر يعبق في الجو ، ودوّى صوت (الدلوكة) يحملها بعض الاماء على اكتافهن ، وتحرك الموكب صوب دار العروس .. بعد ان امتطى العريس جواداً مطهماً — وأحاطت بـه الفتيات من أهله من جانبي الحصان ومن خلفه وظهره يغنين ويرقصن ، وقـد أخـذ بعضهن بمقود الحصان .. كان الفتيات يرقصن وهن سائرات على طول الطريق ، وكن يحرصن على الاحاطة بالعريس وان يمنحنه (الشبّال) وهو (يهز) بالسوط او السيف ، ومقود الفرس تتناوبه الفتيات من خاصة أهله والبخور في ايدي بعضهن يعبق من حوله ،وا سراب اخرى ترقص من كل جانب ، والفتيان على ظهور الخيل ، تارة يبدون فروسيتهم بأن يطلقوا للخيل أعنتها لتعـدو بهم كالجن ، وتارة يحفون به يبشرون ويتصايحون ، والموكب يقترب من دار العروس وكلما دنا منها زاد تصايح الفرسان، وعلت زغاريد النساء وتكاثر السرب الراقص حول العريس ، وانهالت (الشبالات) على مـلابسه من كل راقصة حوله ، وهن يتوثبن كالفراشات ليبلغنه بالشبال والحصان يتهادى بـه بينهن ومقوده يتنقل بين ايديهن .

ونقترب من (الحجيل) والحجيل خيمة صغيرة مربعة من الدمورية البيضاء تعمل خصيصاً للعروسين ، والحجيل او (الحجلة) كلمة عربية فصيحة .

وما يكاد الموكب يبلغ الحجيل حتى يجتمع الشبان حول العريس قبل ان ينزل عن حصانه ، وتخرج ام العروس من خبائها الى لقائه ، وتدنو من مقـود الحصان وتتناوله ، لتطلب من العريس ان ينزل بالكرامة في دارها ، وتعلن انها تنزله بإهدائها اليه كذا من الابل او الغنم .. وهكذا يستقبل العريس حياتـه الجديدة بهدية سخية من أم العروس ، ابلا أو غنماً حسب ثراء الاسرة .. ثم يتتابع اصدقاؤه ، يعلن اليه كل منهم انه يهديه كذا من الابل او كذا من الغنم ، وهذا يشبه عندنا (النقطة)ويظل العريس امام الحجيل على حصانه يتقبل هدايا اصدقائه واهله من الابل والغنم بعد ان تقبل تحية ام العروس وهديتها اولاً ،

ورصاص رفاقه ينثر ويدوي في الفضاء فرحة وبهجة ، والزغاريد تتعالى والعطر العبق يتلوى من المباخر في ايدي الحسان وهن يتماوجن حوله راقصات وقــد كشفن عن مفاتنهن من غير خشية .

وبعد ان تتم كل هــذه المراسيم ينزل العريس عن حصانه ويدخل ورفاقه (الحجيل) ، ويذهب فتيات العريس الى خباء العروس ، ويواصل تقديم المريسة والطعام لهم مثلما كان يحدث صباحاً في دار العريس .

وهنا يجب ان يكون العريس قــد قدم سلفاً لأم العروس عدداً من الخراف والابل وفق حالته المادية لتتصرف فيها كما تشاء ، فقــد تذبح منها لاكرام ضيوفها ، وقد تهدي منها من تشاء وقد تحتفظ بها لنفسها .. ويدفع العريس المهر العادي قدراً من الجنيهات وعليه ان يشتري كل الملابس التي يراها للعروس، وقد يبالغ الاثرياء منهم فيشتري العريس عدداً كبيراً من الثياب والملابس لا لتلبسها العروس وحدها وانما لتهدي منها لصويحباتها وقريباتها ومن يخدمنها خلال أيام العرس التي يجب ان تمتد الى اربعين يوماً كاملة لا يزاول العريس خلالها عملاً ، ولا ينزع ثياب العرس التي جاء بها اطلاقاً ، حتى يستحيل لونها الى السواد بفضل البخور والعطور والدهون « والدلكة » التي يوالى بها صباح مساء طيلة ايام العرس ، وتحرم عاداتهم على العريس ان يغير ثياب عرسه التي لبسها جديدة منذ أول يوم حتى يكمل الاربعين ، كما ليس للعروس أيضاً ان تغسل ثياب عرسها الا بعــد الاربعين أيضاً ، الا أن العروس أحسن حظاً من العريس اذ لها ان تغير ملابسها باخرى جديدة مما جيء به اليها لمناسبة العرس، وليس للعريس هذا الحق ..

وتتبعت مراسيم العرس بشغف ، وجيء بالعروس تتهادى واخواتها يحطن بها ، وقد لفت في الثياب ولم يبن منها شيء ، واوقفت وسط الحجيل ، وامتدت يد العريس من تحت ثوب العروس ليقطع (الرهط) سبع سيور رقيقة ايذاناً بانتقال الفتاة من حياة الى حياة ، وكنت شغوفاً لأرى كيف ترقص العروس

في البادية وماذا يحدث في هذه المناسبة .. ولكن شد ما دهشت عندما خرج بها الفتيات وعرفت ان العروس لا ترقص .. وعجبت لهذه المفارقة ، ففي المدن حيث يشتد الحجاب يسمح للعروس ان ترقص شبه عارية وفي خلاعة امام عدد ضخم من الرجال والنساء ، ويحدث هذا اكثر من مرة خلال ايام عرسها ، وفي البادية حيث لا حجاب ولا انفصال بين المرأة والرجل لا يسمح للعروس ان ترقص امام احـــد اطلاقاً ، حتى ولا العريس نفسه ! وعلى مقربة منها وامام الحجيل يتجمع الفتيات والفتية ليقطعوا الليل الا قليـلا من رقص متصل ومرح دافق ، الا العروس وحدها فانها لا تشارك في هذا الرقص الا خلسة امـام عدد محدود من صويحباتها فقط .. هذه الفتاة التي لا ترقص في عرسها امام الفتيان ، هي التي كانت قبل عرسها بأيام تتوسط حلقات الرقص مع صويحباتهـا والشبان يقاسمونهن الحلقة .. وستعود أيضاً بعد انتهاء مراسيم العرس الى هـذه الحلقـة لترقص ما شاءت مع صويحباتها وعلى كرير الشبان ، وزوجها بجانبها غير كاره لما تفعل ..

ان العروس قد زينت بصنوف من الحلى ، بعضها ممـا نعرفه في المدينـة ، وبعضها تخطته المدينة ، فالعاج من سن الفيل قد تخضب بالحناء ، وسوار الفضة ، والزمام من الذهب من أخص حليها وأحبها اليهن .

وأمعن النظر الى يدي العروس وقدميها ، ثم الى يدي العريس وقدميـه فلا أجد اثراً للخضاب : وتملكني العجب ، وأسائل من حولي ، ألا تستعملون الحنة للعروس والعريس ؟.. انهم لا يعرفون هـذه العادة ، بل يستهجنها من شاهدها منهم في المدن .. لمـــاذا يفسدون هذه الطبيعة الجميلة في أيديهم وأرجلهم ؟.. هكذا يقولون !

وفي اليوم الثالث تولم ام العروس وليمة كبيرة ينصرف بعدها أهـل العريس وأصدقاؤه الى احيائهم ، ويترك العروسان وحدهما يبدآن حياتها الزوجية ويظل

العريس حبيس (حجيله) لا يغـــادره إلا لماماً ، اربعين يوماً ، مضمخ بالعطور والدهون ويدلك جسمه ويعنى بطعامه وشرابه حتى يتبدل حاله ويبدو عليه السمن ، وهذا يعني عناية اهل العروس به !.

وفي يوم الاربعين ، توجه الدعوة الى أهـله واصحابه وتذبح الذبائح ، وتجدد مظاهر الفرح ويدور الرقص بين الفتيـة والفتيات .. وفي هذا اليوم — ويسمى يوم الغسيل — تغسل ثياب العروس والعريس بعد ان تكون العطور والدهون قد جعلتها داكنة أقرب الى السـواد .

وقد تذكرت عادة شائعة عندنا ، ان يجتمـع اهـل الميت من النساء في يوم الاربعـين للوفاة ليأذن لمن شاركتهن الاسى ولم تغسل ثوبها — وربما الاستحمام — لكي تغسل ثيابها بعد الاربعين .

ولكن البدويين ، لا يعرفون هذه العادة في المآتم ، وقد استحالت الاربعون عندهم الى عرس بهيج ، فأربعون العريس يوم عرس جديد ، يؤذن بعده للعريس ان يغادر الحجيل ليزاول ما كان يؤدي من عمل .. ولا شيء غير ان يلحق بأبله ليرعاها ويعود ، اذ ليس لهم غير الرعي من عمل .. ويؤذن للعروسين ان يغسلا ايضاً ثياب العرس .

لقد نسيت .. ان اصدقاء العريس الذين أحاطوا به وهو يسير نحو دار العروس — وقـد وقفوا حوله يهدونه الابل والغنم — يهدونه أيضاً مظهراً من مظاهر الشجاعة كما يعرفونها في اوساطهم اذ يسارعون فيجردون ظهورهم مـن الثياب ويعرونهـا ويطلبون من العريس في إلحاح ان يلهب ظهورهم بسوطه .. وكلما أهوى بالسوط على ظهر احدهم وتنـاثر الدم ، ارتفعت زغاريد النساء ، وأطلق بعض أصدقائه الرصاص من بنادقهم اعجاباً ، (وهز) آخرون بأيديهم على كتفه — مبشرين — ويصر الشبان على المزيد من سياط العريس .. ويتتابعون

امامه واحداً بعد واحد ، وسوطه يهوي على ظهورهم في قوة وعنف .. وهـذا لون فريد من الاكرام ..

والآن يا صاحبي ، اذا اتاح الله لك زورة البادية ، واستقبلك الحي من بعيـد ببيوت الشعر الداكنة ، السوداء ، والربداء ، ووقع بصرك من بينها على خبـاء أبيض صغير مربع ، من الدمورية البيضاء فقط ، فاعـلم ان بداخله عروسين جديدين يستمتعان بأطيب عهود العمر ، فبـارك لهما حياتهما الجديدة واسأل الله لهما السعادة ..





عرس بدوي

ديفز على ظهر جمل

أما هذه المرة فسأستمع انا والقراء لحديث موظف بريطاني هو المستر رجنالد ديفز الذي التحق بخدمة حكومة السودان كمساعد مفتش عام ١٩١١ وعمل فترة في دار الكبابيش. وقد ألف كتاباً بالانجليزية اسمه (على ظهر الجمل) سجل فيه بعض ذكرياته الطريفة إبان عمله في مختلف أنحاء السودان ، وقد آثرت ان انقل هنا بعض ما جاء في مذكراته عن دار الكبابيش لنرى كيف كان الاداريون البريطانيون ينظرون ويقيمون ما حولهم من مظاهر الحياة في بلادنا .

جاء في مقدمة كتـــابه معرفاً بنفسه انه تخرج من جامعة كمبردج واختير للخدمة في الجهاز الاداري لحكومة السودان عام ١٩١١ ، وبعد اختياره قضى سنة كاملة بجامعة اكسفورد في دراسة اللغة العربيـة ، وعلم الاجناس والمبادىء الأولية لطب المناطق الحارة ومسح الأراضي وتخطيطها .

وبعد وصوله للسودان قضى فترة تدريبية بمركز ام درمان في قصر الخليفـة عبد الله (المتحف حاليـاً) وبعد ان أكمل الفترة التدريبية في شؤون الادارة تم نقله لمديرية كردفان . ويبدأ مذكراته بقوله :

« ان مفتش المركز في مديرية كردفـان يقوم برحلات رسمية في معظم ايام

السنة لمناطق المركز المختلفة لتصريف شئونها، ويعتمد المفتش في ترحاله على الجمل كوسيلة للنقل ، ولذا يكون الجمل دائماً على اهبة الاستعداد للرحيل .. وفي فصل الصيف يبدأ الاستعداد للرحيل منذ الساعة الثالثة والنصف ، عندما يأتي الخادم بالشاي ويقول للمفتش (الشاي حاضر افندم) ! . أما في فصل الشتاء فيتأخر الرحيل قليلاً عن ميعاد الصيف .

وفي اول رحلاتي الرسمية على ظهر الجمل وجدت صعوبة في ركوبه وكنت أشعر كأنما أركل في جنبي ، مع العلم بأن متعهد النقل والترحيل أخبرني بأنني استطيع أن أشرب على ظهر الجمل فنجالاً من القهوة دون ان تنسكب قطرة منها ..

ولقد أدهشتني معرفة العرب للصحراء ودقة ملاحظاتهم ، أذكر أننا عندما كنا نتجه جنوب غرب (ام دم) كانت تقابلنا آثار أقدام بعض الناس ، فكان رفاقي من العرب يصفون لي اصحاب ذلك الاثر ويحددون الفترة الزمنية التي مروا بها فيتملكني العجب واكاد لا اصدقهم ، الا انه تتضح لي صحة أقوالهم فيما بعد.

ان البدويين في غرب السودان يلبسون (الشباطة) في الطريق الوعرة ويخلعونها ويحملونها في أيديهم خشية ان تبلى ان كان الطريق سهلاً .. وذات مرة أخبرني احد رفاقي من البدويين ان الاثر الذي نراه امامنا لرجل وامرأة ومعهما خادمها، وبعد ان سرنا مسافة ليست بالقصيرة وجدناهم تحت شجرة في الصحراء فازدادت دهشتي لدقة الوصف ! .

واذكر أيضاً ان افتقد اعرابي ناقة وظل يبحث عنها عدة سنوات ولم يجدها ورحل الاعرابي لمنطقة اخرى ، فوجد في الطريق (قعودين) استرعى انتباهه طريقة مشيتها اذ انها تشبه مشية ناقته المفقودة ، ومن ذلك تعرف على ناقته المفقودة ، وكان تقديره صحيحاً .

ان البدويين رغم جهلهم بالقراءة والكتابة الا انهم يستطيعون قراءة اي اثر على الارض دون ان يخطئوا .

لقد اضيفت (أم دم) لمدينة بارا وبذلك نشأ مركز شمال كردفان عام ١٩١٣ وكان مفتش مركز بارا آنذاك المستر كورين ثم خلفه مستر دوجلاس كربج وقد عينت آنذاك مفتشاً لدار الكبابيش في يناير ١٩١٥ .

إن الشيخ علي التوم ناظر الكبابيش آنذاك شخصية فذة ، جميل الهندام ، أسود اللون الا أن ملامحه عربية أصيلة ، له جاذبية ساحرة ولا يعرف القراءة ولكن ذكاءه خارق ، وله عقل كعقل لاعب الشطرنج الممتاز وقد لمست ذلك من لعبة معقدة تسمى (ام البنات) وهي كلعبة (السيجة) . تجهز باثنتي عشرة حفرة و٤٨ حجراً صغيراً ، وأكثر ما تلعب هذه اللعبة في شهر رمضان وهو الشهر المفضل لها اذ ينسى لاعبها العطش لانغماسه في التفكير في طريقة اللعب وقد كان الشيخ علي التوم يجيد حساب تلك اللعبة ، بتركيز شديد ، وقد كنت الاعبه هذه اللعبة وأعجز عن مباراته فيها ، وفوق كل ذلك فهو صاحب روح عالية وشهم كريم وتفكيره على مستوى عال مما يجعله يدير شؤون قبيلته بجدارة .

وحتى عام ١٩١٣ كانت الحكومة لا تتدخل في شؤون قبيلة الكبابيش الا في احوال نادرة ، وكانت الضريبة السنوية التي تدفع للحكومة من كل القبيلة ١٠٢٠ جنيهاً (الفاً وعشرين جنيهاً) تسدد في موعدها في خزينة بارا ، وان الشكاوى والجرائم لا تنظرها محاكم الحكومة ، وبالرغم من ان محاكمات شيخ القبيلة قاسية الا انه لم تصدر ضده أية شكوى ، بل العكس ، فإن القبيلة تعتز به اعتزازاً شديداً وتدين له بالولاء .. تسمع ذلك منهم عندما تسألهم امام اي من الناس ، الى اي قبيلة تنتمون ؟ فتكون اجابتهم ببساطة (نحن ناس علي التوم — او ناس ود التوم) !

كنا نجد لذة في التحدث مع شيوخ العرب ونحن نرشف القهوة ، كذلك نجد متعة فائقة في التحدث مع بقية الناس الذين لا تربطنا بهم اعمال رسمية .. فنسمع منهم بعض الطرائف الشيقة ونشاهد عاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم .

من عادات البدويين الا يظهر الرجل آلامه اذا أصيب بجرح مؤلم ، بل إن شباب البادية يبحث عن المخاطر والآلام ليبرز شجاعته ولينال المدح والثناء من الجنس الآخر .

كنت أرسل أحدهم اسبوعيا بالجمل لاحضار البوستة من بارا كالخطابات وتلغرافات رويتر وبعض المأكولات والزجاج المعبأ ، كان احد رفاقي البدويين يذهب للصيد في الفلاة بمعدات من صنعه . فأس وسكين وشرك ، ويستعمل دهاءه العجيب .. الا انني كنت استعمل بندقيتي في الصيد ..

اما النساء فهن دائما في شغل دائب ، فهن ينسجن الخيم من الشعر والصوف ويجهزن الطعام ويقمن بشؤون المنزل الاخرى ، ويذهبن للآبار للماء « القرب والسعون » ويحملنها على ظهور الحمير الى حيث يقيمون ، ويذهبن مسافة تقدر باكثر من الميل لاحضار « القش » لاغنامهم المنزلية ... انهن لا يعرفن الخجل عندما تتاح فرصة التحدث اليهن ، وأسرع من الرجال فهما .. اذكر ان تحدثت مرة عند احدى الآبار مع رجل فلم يفهمني وبدت عليه الحيرة وتدخلت امرأة في الحديث قائلة له : ألم تفهمه ؟ انه يسألك كم رجلا يبلغ عمق البئر ؟!

وقد لاحظت ايضا ان المرأة تربط ساقها بخيط رفيع بين مفصل القدم والساق ربطا شديدا ، مما جعلني ادهش اذ ان الربطة ربما تحتجز الدم وتسبب اذى جسيما ، وعندما سألت احداهن عن السر في هذه الربطة اجابتني ان لم تفعل ذلك لا تكون (بت ابوها) . !

ولقد كنت اتساءل كيف يستحم البدويون ويغسلون ملابسهم ، ذلك لان

(الصابون) لا يوجد الا في خيام الاثرياء منهم ، اما الماء فهو مشكلة دائمة حيث تأخذ عملية استخراجه من البئر وقتاً مضنياً وطويلا ، وهو لا يتوفر لهم الا في فصل الخريف .

وقد لمست حلاً لمشكلة الاستحمام عند النساء ، ففي ذات يوم كنت أحمل بندقيتي وأجوس خلال وادٍ كثير الاشجار عساني اجد صيداً ، فرأيت دخانا ينبعث من شخص يلتف بثوب اسود وهو يجلس بانحناء . فسألت الجندي الذي يصحبني عن هذه الظاهرة ، فقال انها امرأة توقد ناراً من اغصان شجر (الكتر) في – حفرة دخان – مما يعطيها رائحة زكية حلوة لزوجها .

ان الكرم عند البدويين هو مضرب المثل ، ربما يبلغ احياناً حد الاحراج ، اذ انني اعرف ان الكبابيش – كافراد – ليسوا بالاثرياء ، ما عدا قلة منهم [1] وكنت عند تجوالي بين احيائهم اتجنب بقدر الامكان ان احط رحالي ومن معي الا عند الاثرياء منهم ولم اكن اجد صعوبة في هذا اذ ان عملي يكون دائماً حول الآبار وعادة تبعد قليلاً عن خيام العرب – وكنت والبوليس والخدم – نحمل غذاءنا والعيش ولا نحتاج الا للماء من الآبار ، ونجد اللبن في طريقنا ميسورا .

وفي عصر يوم اردت ان اعبر طريقاً بالقرب من حي شيخ بدوي اعرف انه ليس من ذوي الثراء ، ولما رأى ركبنا يتجاوز حيه اسرع نحونا وهو يعدو ويلهث ويستنكر ما فعلناه من عمل مخجل في نظره ، وقال لي هل تريد ان تحط من مكانتي بين اهلي فيقال عني اني لا اكرم الضيف ؟ – وأمسك برسن الجمل وقادنا الى خبائه .. وفي الحال ذبح كبشاً تناول اتباعي من لحمه طعام الغذاء ، واصر الشيخ ان يقدم لجمالنا (علوقا) مما كان يختزنه من الذرة

---

(١) هذا عام ١٩١٥ عندما كان ديفز مفتشاً للكبابيش ، اما الآن فانهم من الاثرياء .

الغالية والتي اعتاد ان يشتريها من مكان يبعد نحو المائة ميل ، لان البدويين لا يزرعون ... ان كل بدوي مهما كان فقيراً يظهر نفس روح الكرم والشهامة .

وفي كل صباح يزدحم مكان البئر بالابل والخراف مما يثير طبقة من الغبار لها رائحة خاصة واضحة ، امـــا في الوديان فقد كنت أرى الخراف والغنم ترعاها فتيات صغيرات وهن عرايا الا من (الرهط) ويحملن عصياً طويـــلة يهززن بها الشجر ليتساقط منه الثمر وتأكله الغنم .

كانت الامطار غزيرة في دار الكبابيش عام ١٩١٦ ، فتوفر الماء والمرعى بما لم يحدث منذ امد بعيد ، وقد امتلأ اكبر حفير في دار الكبابيش لأول مرة منذ ثلاثين عاماً — وقال لي البدويون ان مياهه ستكفي كل ابلهم حتى امطار العام القادم ، وقد وجدت مياهه عميقة جداً حتى يمكن السباحة فيها ...

وبالرغم من انني جئت في مهمة تسجيل ما عند كل منهم من الابل لتقدير الضريبة وهو امر يغيض لديهم — الا انهم بسبب هذا المطر الغزير استبشروا بي خيراً وقالوا ان (كراعي لينة) وتبدلت نظرة السخط بالرضا !

لقد كان من بين أعواني في تعداد الابل وتسجيلها بتلك المنطقة في ذلك العهد «خلف الله خالد» وهو ضابط سوداني[1] ، ومعه آخر مصري الجنسية.

ان المثل البدوي الذي أعجبت به وما زلت اذكره ، المثل السائد بينهم والذي يقول : (الكلب ينبح والجمل ماشي) !. وهو مثـــل يضرب لمن لا يهتم بما يعترضه من الصعاب .

---

(١) يعني السيد خلف الله خالد وزير الحربية السابق.

النشوغ ـ الجزو

كلمتان لا يعرف ما يكمن خلفهما من حياة وحركة الا من عاش بين مضارب البادية ، وعرف حياة البدويين .

كان اول مجيئي للبادية في مستهل فصل الصيف ، اسوأ الفصول لدى البدويين، وقد لقيتهم حول آبار الحمراء يصطلون من قيظ الصيف وشح الماء .

وكنت كلما جلست في حلقة من البدويين لا أسمع منهم الا تلهفهم للنشوغ. وكنت اسمع هذه الكلمة بادىء بدء دون ان أدرك ماذا يعنون بها ثم عرفت عنها كل شيء بل عشتها معهم مدى اربع سنوات .

فالنشوغ يعنون به رحلة الخريف . فمنذ ان تبدو على الأفق السحب التي تومىء الى استهلال فصل الخريف تتملكهم البهجة وتستبد بهم فرحة النشوغ ، فتراهم يتحرون في دقة انباء تساقط الامطار في انحاء البادية ، وما تكاد سحابة (ام بشّار) تبدو على الأفق هنا وهناك حتى يأخذ كل بدوي في تهيئة نفسه لرحلة الخريف .. او النشوغ وتعد كل امرأة هودجها وتصلح عيدانه وزينته .

وفي تلك الليالي تسمعهن يتغنين فرحات بظهور (أم بشّار) على الافق

موحية ببدء الخريف ، وكأنهن يرين الرجال والشباب على ظهور الجمال يعدون نحو المناهل والمراعي ملء الصحراء من حولهم وقد تفرقوا زمراً زمراً يجنون ثمار الخريف مرعى وماء ، ونضرة تكسو الارض والشجر ، فيهتفن بهم ان يتجمعوا في مكان واحد ، فان فرقة الاحباب قاسية ، حارة كلهيب النار :

من طيرةٍ ام بَشَّار
بَجاني السَّلَف قطَّار
اُتلَثوا يا عُمَّار
فرق المُو اِلف حار

وتهطل الامطار غزيرة ، وتتتالى انباؤها من مختلف الوديان وما أسرع البدويين في حمل انبائها ، وما أدقهم في وصف وتقدير مداها حتى اذا تجمعت (للشيخ) الانباء المطمئنة دوّى صوت النحاس معلناً بدء رحلة النشوغ ، ويظل النحاس يدوي فترة غير قصيرة منذ غروب الشمس ، فاذا ماذر قرن الشمس كانت المنازل كلها ملقاة على الارض وقد ربطت بالحبال وأعدت لتحملها الجمال وانهمكت النساء في إعداد هوادجهن ، وتزيينها بالاجراس وقطع الجلود المزخرفة بالودع والقصدير وريش النعام .

وتبدأ الرحلة ، فترى على مدى البصر هودجاً في سيور من الجلد دقيقة الصنع يبعث نوعاً من الموسيقى تألفه النفس ويضفي على الجو الطبيعي نشوة نفسية عميقة ، فالجو غائم ، والارض مخضرة ، والربوات التي كانت جرداء كساها عشب أخضر فبدت نضرة رائعة ... (والظعن) كما يسمونه ، وهي كلمة عربية فصيحة كما ترى ، يسير بين هذا الجمال الطبيعي الآسر ، ولا يلبث في مكان واحد الا يوماً او بعض يوم ، فما يطيق البدويون في فصل الخريف الاقامة في بقعة واحدة الا ريثما يتحولون عنها .. وبودهم لو جابوا كل قطعة من ارض البادية ، ونهلوا من كل وادٍ جرى ماؤه .

ولا تحسبنّ انتقالهم من مكان لآخر يجري اعتباطاً ، وانما يسير وفق خطة محكمة ، فهم يعرفون كل شبر في الارض ، وكل مرتفع ومنخفض ، وكل وادٍ وكل مرعى ، فاذا ما قرروا الانتقال الى مكان ما ، أو فدوا اولاً رسولين من خيرة الرجال الذين يعرفون ما يتطلبه البدويون من الميزات التي يجب ان تتوفر في المكان المراد الانتقال اليه ، ويخرج هذان الرجلان في الصباح الباكر على ظهر جملين سريعين ، حتى يبلغا المكان المقترح لنزول الحي ويطوفان به كله ليعرفا حاله وما به من نبات وماء، وكم من الايام يكفي لنزول الحي ، ولا يتركان جانباً منه الا وفتشاه بدقة ، ذلك لانهما سيقفان موقفاً دقيقاً امام رجال الحي عند عودتهما ، وعليهم أن يعودا في نفس اليوم ، وقـل ان يبيتا بعيداً ، ويكون كل رجال الحي تقريباً في ارتقاب عودتهما امام دار الشيخ، وعندما يستقر بهما المقام، يشرحان شرحاً مستفيضاً كل مشاهداتهما في المكان الجديد ، ويركزان اكثر على الماء والمرعى ، حتى اذا ما فرغا من الادلاء بما عندهما انهالت عليهما الاسئلة من كل جانب ، فهذا يسأل عن مكان ما برأس الوادي مثلاً هل بلغته الماء ؟ وآخر يسأل عن ثنية ما ، وثالث عن جانب من ربوة هـــل نبت عليه الكلأ ؟ انهم يعرفون المكان شبراً شبراً ، والرائدان يجيبان في دقة ووعي حتى تتجلىصورة المكان الجديد واضحة للجميع ، ولم يعـد يخفى عليهم منه شيء ، وعندها يعلنون الرحيل اليه او العدول عنه الى مكان آخر يوفدان اليه رجلين آخرين ليقومابنفس المهمة – والرجل الذي يرسل ليعـاين المكان الجديد المقترح لنزول الحي يسمونه .. (الدُّور) والدّور لا يكون عادة الا ممن يمتلكون قدراً من الابل لان اهتمامه بتقصي موضع الحي الجديد يكون شديداً .. ومن هنا جاءت اغنية الفتاة التي سخرت من الرجل الفقـير ، مبدية إعجابهـا بالغني صاحب (امزور) كناية عن الناقة الذي يوفد كل ليلة (دوراً) باحثاً عن مرعى جديدلابله.

يا فقيري مَـاكَ زول
ساكت مزامل الكُور
عاجبْني سيد (ام زور)
كل ليـلة راكب (دور)

ثلاثة اشهر ، وهي اشهر الخريف ، وليس للبدويين حي معلوم يستقرون به .. كل الارض دار لهم ، ما دام المطر منهمراً ، والوديان تسيل امواهها والارض مخضرة النبت .. انها اسعد ايامهم وأعذبها وأحبها الى قلوبهم فاذا ما انقضت عادوا الى (الدمر) ويعنون به مقرهم حول الآبار في فصل الصيف ، حيث لا تبقى قطرة ماء في الوديان من بقايا الخريف ، يجترون ذكريات النشوغ ، واحداثه السعيدة ، والصيد الذي غنموه وقد أعجزه الجري بسبب المطر ، كل يروي قصصه في نشوة واعجاب .. وينظرون الى الآفاق يرقبون من جديد طيرة – ام بشار – إيذاناً بقرب النشوغ ، فتتجدد الفرحة وتبدأ الحلقة من جديد دورتها الحبيبة الى نفوسهم ..

والجزو؟ ما شأنه؟ ماذا يكون في حياة البدويين؟ في اعقاب الخريف يتجمع البدويون حول المناهل الكبرى التي تحتفظ بماء المطر فترة طويلة قد تبلغ الثلاثة اشهر واشهرها منهل ام (قوزين) ..

وكما يتردد الحديث ونحن في (الدمر) حول الآبار عن النشوغ وترقبه في شوق ولهفة ، كذلك يبدأ الحديث عن الجزو ونحن في اعقاب الخريف حول منهل (ام قوزين) .

والجزو مرعى شتوي صحراوي، يقع على حدود الصحراء الكبرى. يتسابق اليه البدويون على قسوة الحياة فيه لأنه مرعى جيد لابلهم حيث تسمن فيه وتتكاثر .. وتهب رياح الشتاء الباردة علينا في (ام قوزين) ويكون هذا ايذاناً لتجمع الشباب واستعدادهم لرحلة الجزو يسوقون امامهم الألوف من الابل هي ثروة القبيلة وعماد حياتها ..

ولا حديث في حلقات الاجتماعات الا عن الاستعداد للجزو .

وفي داخل الاخبية شغلت النساء باعداد دقيق الذرة والبصل والحلبة والكمون

الاسود والثوم للشبان المتجهين صوب المرعى الصحراوي البعيد، وهذه الحاجيات من مستلزمات حيـــاتهم هناك ، فدقيق الذرة ليصنعوا منه (العصيدة) او « المطالة » – التي هي نوع من (القراصة) يصنعونهــــا في حفرة مليئة بالجمر أشبه بالفرن ... اما الحلبة والكمون الاسود والثوم فلكي تضـاف الى لبن الابل ليكون شراباً سائغاً لطيفاً يسمونه (اللبن القـارص) وهو في طعم (الروب) المعروف لدينا .

ويودع الحي الشباب وداعاً حاراً وهم يخرجون جماعات جمـــاعات ليلحقوا بابلهم ويسوقوها صوب الجزو ..

وهناك يعيشون عيشة مضنية قاسية لا يتحملهـــا الا من أُوتي الصبر وقوة الاحتمال والشجاعة .. فالماء غير موجود ولا سبيل اليه الا في احوال نادرة جداً وهم يستبدلونه بهذا اللبن حليباً وخاثراً .. حتى الشاي الذي يحبونه حباً فائقــاً فانهم يصنعونه من اللبن الخالص دون ماء .

ويحدثني « ابراهيم » عن حيـاة الجزو وهو صديق بدوي كان كثير التردد على خيمتي ومن رواد الجزو سنوياً ، وكان حريصاً على ان يهدي الي كلما عاد من الجزو اطيب الهدايا التي يعودون بها من هناك وتكاد تنحصر في شيئين هامين .. اللبن القارص وقد وضع في (سعون) صغيرة وأُضيف اليه البصل او الثوم والحلبة، فطابت نكهته .. وكانت خيمتي عند عودتهم تكتظ بهداياهم من (سعون) اللبن القارص ، وانا اشربه في لذة ومتعة ، وانه لخير بكثير مما كنـــا نأكل من الطعام البدوي البسيط .. اما الهدايا الاخرى ، فلحم بقر الصيد الذي يكثر في اطراف الصحراء ..

ويحدثني ابراهيم كيف يخرجون للصيد ، ببنادقهم بحثاً عن بقر الوحش هذا وهو صيد ضخم في حجم البقر ، فاذا ما صادوه ، عمـدوا الى لحمه وقطعوه الى شرائح رقيقة وأضافوا اليــه قدراً من الملح وعرضوه للشمس ليجف . فاذا ما

عادوا لاحيائهم كان هذا اللحم المملح الناشف (كالشرموط عندنا) احب ما يهدى.

والبدويون يأكلون هذا اللحم دون ان يعرضوه للطبخ بالنار ، وفي الواقع انه يكون ناشفاً الى الحد الذي يمكن ان تسحقه بين اصابعك فيستحيل الى دقيق ناعم احياناً .. وقد استطبته جدا ، بـــل كنت في كثير من رحلاتي أحمله في جيبي كما يحمل احدنا البلح وكلما أحسست بالجوع ، والجمل يرقل بي أخذت قطعة منه واكلتها كما يفعل كل البدويين .

ويحدثني ابراهيم كيف انهم عندما يشتد البرد ويقسو – وهو شديد القسوة في الصحراء – يحفرون حفرا عميقة في الرمل لتكون مأوى لهم .

ويدخل كل منهم في هذه الحفرة ويستلقي بداخلها ثم يطرح فوقه كل مـــا كان لديه من ثياب وغير ثياب .. فكأنه في قبر .. بهذا كانوا يتقون قسوة الشتاء حتى اذا ما خفت وطأته وبدأت طلائع الصيف اتقوها بأن يكون كل منهم قد أحضر معه بضعة عيدان من الخشب – اذ لا يوجد في منطقة الجزو هذه شجر أطلاقاً – ويغرسها على الرمل على شكل (راكوبة) وينشر ثوبه فوقها ليقيه وهج الشمس .. ومع هذا الهجير فلا ماء يستقون منه ، مكتفين باللبن .. وقد اهتدوا الى وسيلة سهلة لتبريد اللبن عندما يبدو الصيف ، فقد عرفوا انهم عندما يحفرون الارض قليلا يجدونها باردة جداً فانتفعوا بهـــذه البرودة بأن صاروا يودعون باطن الارض اللبن القارص في (سعون) كبيرة ، ويتركون جانبـــاً يسيراً من السعن بارزاً يدل عليه ، فاذا ما احتاج احدهم ليشرب منه انتزعه من الحفرة ووجده بارداً جداً فيأخذ حاجته منه ثم يرده الى مكانـــه .. ثلاجة طبيعية لا تكلفهم شيئاً .. والمرء يتعلم بالحاجة ..

وقد كنت أعجب لقوة احتمالهم للشتاء القارس في ذلك المكان البارد ، وقد كنا في « ام قوزين » وعلى بعد منهم ، نحس بوطأته الشديدة ، فلا ننام الا اذا اوقدنا حولنا قدراً كبيراً من الحطب للدفء يظل موقداً داخل الخيمة طوال

اليوم . ومع هذا فقد كنا لا نحتمل وطأة البرد .. وكثيراً ما نجد الماء في الصباح قد تجمد في « القرب » وصار كتلة من الثلج ..

فلا غرو ان جعلوا لهم مقابر داخل الارض مأوى من البرد .

وترعى الابل ، في الجزو نباتا يسمى (السعدان) وهو أشهى نبات ترعاه الابل ، وقد عرفه العرب قديماً وجرى على السنتهم في امثالهم فقالوا (مرعى ولا كالسعدان) .. اي مرعى ولكنه دون السعدان .

وينتهي الشتاء ، ويعود فتية الجزو الى الحي ، ولا تسلني عن يوم عودتهم وكيف يكون استقبالهم .. انها فرحة طاغية ، وعيد لا يدانيـــه عيد .. فالزغاريد ترتفع من كل بيت – والنحاس يدوي كالرعد .. (والدلاليك) تعوي والنساء والفتيات يرقصن فرحـــاً ومرحاً . وصفقة ورقص من النوع الكباشي الاصيل امام كل حي .. وقد وصل ركبهم مزهواً ، وقد اختار كل منهم احسن جمل عنده ، مظهرا ومخبرا ، كأنه يريد ان يعلن به عن مدى ما بلغته أبله في الجزو من صحة وعافية ونمو ..

الرقص .. والنحاس والزغاريد .. والرصاص يئز ولا ينقطع ازيزه طوال اليوم .. وكل من يلقاك فرحا مرحا .. والخراف تذبح اكراماً واعلانا عن طغيان الفرحة بعودة ركب الجزو .

ومدرستي تخلو من تلاميذها فنحن كلنا في عيد كبير ولا بد ان نشارك في هذه الفرحة الطاغية من حولنا ، وان نهنىء العائدين بعودتهم وان نتقبـــل هداياهم من اللبن القارص ذي النكهة اللطيفة وشرائح لحم بقر الوحش الناشفة في كثير من التقدير والامتنان ، وان نقف قليلاً هنا وهناك مع الواقفين حول حلبات الرقص يشاهدون الفتيات يعبرن عن فرحتهن بعودة شباب القبيلة من رحلة الجزو الشاقة .. والرصاص يئز أزيزا متصلا فوق الرؤوس يعبر عن فرحة

العائدين والمستقبلين معاً .

والجزو ، كلمة ذات اصل عربي أصيل .. هكذا أفادني البحث القيم الذي قام به الاستاذ محمد التجاني عميد معهد المعلمين العالي عندما قام منذ سنوات للكبابيش ليدرس لغتهم ويردها الى اصولها العربية .

ففي معلقة (لبيد) المعروفة والتي مطلعها ..

(عفت الديار محلها فمقامها)

يقول : —

حتى اذا بلغت جمادى ستة (جزءاً) فطال صيامه وصيامها

وهو يصف هنا ناقته عندما بلغا معاً أشهر الشتاء الستة وتجمد الماء .. « والجزء » هنا يعني به المكان الذي ينعدم فيه الماء ولا يكون به غير نبات وعشب قليل تعيش عليه الابل .. واذا عرفنا ان الهمزة المضمومة في كلمة « الجزء » يمكن للتخفيف ان تنطق « الجزو » بالواو ادركنا ان التسمية عربية عريقة وردت في شعر لبيد الجاهلي، بنفس المعنى الذي يستعمله البدوي الكباشي اليوم في صحراء السودان !

ماذا اقول وقد طال المدى وما زال قلبي يخفق حنيناً وأنا أرى بظهر الغيب شباب الجزو يعود الى الحي والنحاس يدوي فرحاً والفتيات يرقصن ويزغردن في مرح طاغ والرصاص يئز دون انقطاع .. وهدايا اللبن القارص وشرائح لحم الصيد تنقل الينا من العائدين فتضاعف من البهجة وتؤكد باننا في عيد لا يشبهه عيد !..



النشوغ — الجزو

مَعَ العَبّاسِيّ في البَادِيَة

ألا ما اعجب تصاريف القدر ، فقد كنت اعد في هذه السلسلة عن الكبابيش جانباً هاماً لذكرياتي مع الشاعر الفذ والصديق الوفي ، محمد سعيد العباسي اذ عشنا معاً في ربوع البادية وبين تلالها ووديانها ومضارب اهلها البسطاء الكرماء اطيب عهود العمر ، وشهدت مولد اروع قصائده التي اوحت اليه بها تلك الحياة الحلوة الساذجة البهجة بين البدويين .

بالأمس راعني نعيه وأنا أتهيأ لأكتب عنه وأتحدث عن جانب من حياته وشعره في البادية . وشد ما حزنت .. وكبر عليّ ان نفقد هذا الكنز الغالي من الفضل والنبل والعلم والادب ، ولكنها الايام عودتنا ألا تطيب وتصفو ، وان الموت نهاية لا بد منها لكل حي لو استطعنا ان نحتمل هول الفراق وغصة الوداع .

كنا في مستهل الصبا مولعين بقراءة كتب الادب والشعر وتتبع آثار شعرائنا وحفظ ما يروق لنا من اشعارهم . وبدأت معرفتي بالعباسي عن طريق شعره ، ولم أره فقد كان عازفاً عن اجتماعات الاندية واعتلاء المنابر في المناسبات التي يتهيأ لها شعراء تلك الفترة — كنا نستمع الى « البنا » وعبدالله عبد الرحمن

واحمد محمد صالح والمرحوم عبد الرحمن شوقي وصالح عبد القـــادر وغيرهم من شعراء الجيل الذي تتلمذنا عليه واخذنا عنه وتأثرنا به . ولكننا كنـا نسمع عن العباسي ونروي ما يصل الينا من شعره دون ان نراه على منبر من المنابر ، وكنا نحس في شعره بحرارة الوجدان وسمو المعنى ومتـــانة النسج ، فنحبه ونجلّه ونتشوق الى رؤيته .

وفي عام ١٩٣٢ وانا في بادية الكبابيش سمعت عنه من البدويين السذج الذين كانوا يحبونه ويجلونه رغم انهم لا يعرفون عن شعره شيئـاً ، ولكنه كان يعيش بينهم كواحد منهم عدة اشهر من كل عام . كان مولعاً بحياة البـادية .. يؤثرها على حياة المدن ، وقد جاب ودياتها وسهولها وجبالها وأحياءها ولم يترك منهـا مكاناً لم يزره ويبق فيه ردحاً من الزمن يتملى جماله وروعته . وقليل من البدويين انفسهم من جاب تلك الصحراء الواسعة مثلما فعل العباسي ، وكان حبه للبدويين والبادية صادقاً عميقاً امتزج بكل مشاعره وتجلّى واضحاً في شعره الذي ناجى فيه البادية وأحبابه فيها وكان كالبدويين ينتقي من الابل آصلها وأحسنها مرأى ومخبراً ، وقد اشتهر بين البدويين باستجلابه للابل والنوق الجيـــاد ينتقيها من خيرة الجمال والنوق في شرق السودان .. ومثلما كان نظراؤه في المدن يحـاولون اقتناء السيارات الفارهة ، كان همه ان يحصل كل عام على جمـال صهب لم تشهد البادية في الغرب لها مثيلاً ويبدأ بهـــا رحلة من الخرطوم ترقل به وتخدى بين الفلوات ، يشده آل ويخفضه آل حتى يبلغ البادية ، فيظل متنقلاً بين أحيـائها المختلفة حيث يلقـــاه احبابه ومريدوه وأصدقاؤه بحفاوة البدوي التي لا كلفة فيها ولا رياء ، وكانت تعجبـه تلك البساطة في حيـــاتهم والصدق في شعورهم .

ولقد كان صادقاً كل الصدق ، وهو يتحدث عن رحـلاته هذه على ظهور العيس من الخرطوم متجهاً للبادية في الغرب .. فيقول :

لم يبق غير السُرى مما تسر له
نفسي وغير بنـات العيد من عيد
المدنيـــاتي من رهطي ومن نفري
والمبعداتي من اسري وتقييدي
أثرتها وهي بالخرطوم فانتبذت
للغرب تقذف جلموداً بجلمود
تؤم تلقاء من نهوى وكم قطعت
بنـا بطاحاً وكم جابت لصيخود
نجد يرفعنـــا آل ويخفضنا
آل — وتقذفنـا بيدٌ الى بيـد
وشدّ ما عانقت بالليل من عنق
يضنى ، ومن حيف أخدود فأخدود

وفي مستهل عام ١٩٣٢ وانا في حمراء الشيخ اذ برسول يحمل الي رسالة منه ، يحدثني فيهـا عن وصوله الى « حي اولاد طريف » — وهو في واد ممرع بالقرب من الحمراء — وانه في الطريق الينا .. ويرجوني أن احمل تحياته الى صديقه الحميم الشيخ علي التوم فكتبت اليه متعجـــلا زيارته للحمراء ، وحملت للشيخ علي — رحمهما الله معاً — تحياته ونبأ وصوله لحي اولاد طريف وزيارته للحمراء، وقد كان العباسي صديقاً وفياً للشيخ علي معجباً به كل الاعجاب ، ولقد تأثر لوفاته وحزن عليه حزناً عظيماً ، ورثاه بأبيـات كتبت على لوحة خاصة[١] ووضعت على قبر الشيخ علي حيث يطالعها اليوم كل من يقف عند قبر هذا الزعيم البدوي مترحماً وفيها يقول :

قف بمثوى السماح قبر علي زين اهل الندى وزين الندي*

---

(١) قام بإعداد اللوحة السيد محمد الكامل بخيت كاتب الشيخ علي الخــاص وهو صديق حميم للعباسي .

جدث ضمنوه حلو السجايا — ومحيا كبارق الوسمي
ضل من يعشق البقاء وماذا — في حياة يشقى بها كل حي
يا كريم الجوار لقيت بشرى — جنة الخلد في جوار النبي

وجاءنا العباسي في الحمراء ترقل بـه العيس وتخدي ، ولقيته لأول ، كهلاً مهيباً نضر الوجه طلق المحيا ، اقرب للبداوة رغم حياة التنقل على ظهور الابل وحياة الشظف البدوية التي يحياها مـع البدويين والقرويين ، وكان يلبس لبساً يدنيه من البدويين ، جلباب طويل يلف عليه ثوبـاً وكان يؤثر هـذا الزي . ومضينا معاً اياماً طوالاً خالدة ذكراها في اعماق نفسي ، نخرج معاً على ظهور الجمال نجوب الوديان من حولنا ونتملى حياة البدويين الوادعة وهم منبثون تحت الاشجار وعلى سفوح التلال والجبال في طمأنينة ورضاء رغم مظاهر الحرمان من طيبات الحياة التي ألفناها في المدن ، وكلما نظر خباء بدوياً منفرداً بين أجمة من الشجر تلعب به الرياح ، والأطفال يلعبون بجانبه وبعض الغنم ترعى من حوله والمرأةصاحبة الخباء أوقدت النار في ظل شجرة مورقة تصنع (العصيدة) التي لن يكون أدامها في الغالب غير لبن تحلبه من تلك الاغنام التي ترعى من حولها ، والرجل بعيد مع ابله ، او يرد الماء او تراه على شجرة يجز فروعها (بفراره) ويلقيها أرضاً ليسهل لغنمه رعيها — كلما رأى مثل هـذا المنظر — توقف عـن السير ويهوم طويـلا وينسى وجودي بجانبه احيانـاً .. ثم يعود الي بفكره الشارد ليقول :

ما أشقانا في هذه الحياة ، ترى أي سعادة نلقاها لو ان الله أتاح لنا الطمأنينة والرضاء كهؤلاء الناس الطيبين السعداء بحياتهم على جفافها !؟ ماذا لوقسم الله لنا حياة آمنة هادئة كهذه ؟.. وما جدوى هذا الطموح الذي يعذبنـا ولا نلقى منه خيراً ؟

وفي حي (أولاد طريف) حيث يعيش عدد كبير من أحبابه ومريديه[1]، كنا نجلس مع اولئك الاحباب وهم يحيطون به احاطة السوار بالمعصم ويديرون احاديثهم الساذجة التي لا تخرج عن محيط حياتهم البدوية ، وامام الخباء خروف مذبوح وعدد منهم يهيء الحطب ويوقد النار ، حيث تتعالى رائحة الشواء الذي يقدم بين الفينة والفينة ، في تلك الجفان السود ، حاراً تكاد لا تقوى الأصابع على لمسه ، الا ان البدويين قد مرنوا على ذلك ، فهم يلتهمون قطع اللحم وهي تكاد تكون قطعاً من الجمر ، وقد استل كل منهم مديته ليقتطع من الشواء ما يطيب له ، ونحن نجاريهم في هذا ، ونجد في ذلك لذة ومتعة لا نجدها في طيبات الطعام التي الفناها في المدن ، ويجانب الشواء يدار على الجالسين الشاي الاسود — ولا بأس — بل يطيب لهم ان يتناولوا جرعات الشاي خلال تناولهم للشواء.. اذ ما يكاد الواحد يتبلع قطعة من اللحم حتى يشفعها بجرعات من الشاي ، ثم يعود الى اللحم ، ويشفعه بالشاي وهكذا دواليك ، حتى يشبع فيحمد الله تعالى ويمسح يديه ببعضهما جيداً دون حاجة لغسلهما بالماء ، وقد يمسح بهما وجهه ، أو يمشط بهما شعر ذقنه المرسلة في غبطة بما أفاء الله عليه من نعمة هذا الطعام الهنيء ، وقد يدلك بهما باطن قدميه أيضاً ! .

ولقد كنا نسايرهم في كل عاداتهم من حولنا الا هذه — الا نغسل أيدينا بعد تناول الشواء ، اذ نصر على طلب الماء وغسل أيدينا ، وقد ألفوا ذلك منــا فكانوا يعدون لنا الماء سلفاً كلما تهيأنا للأكل معهم .

وكانت نساؤهم وبناتهم من حولنــا ، في براءة يتقدمن الى الشيخ العباسي ويقبلن يده في اكبار واحترام ولقد ذكرت في كتابي (ملامح) كيف كنت

---

(١) الكبابيش ككل قبائل السودان لهم ولاء روحي لبعض بيوت الدين ، ويكاد هذا الولاء عندهم ينحصر في بيتين دينيين ، بيت الشيخ الطيب — جد الشيخ العباسي — وبيت الشيخ ابراهيم الكباشي ، وارد ان اؤكد هنا ان الشيخ ابراهيم الكباشي لا ينتمي الى قبيلة الكبابيش رغم ما يوحي به اسمه .

أعابثه بشعر الشريف الرضي كلما قدمت حسناء فارعة القوام ممشوقة القد فتهوي الى يده لتقبلها فأنشده في صوت خفيض والسرور يشع على وجهه المشرق :

أهوى لتقبيـــل يدي   فقلت : لا ! بل شفتي !

ويشاركني الانشاد لأبيات اخرى للشريف الرضي في مثل هذا الموقف :

ومقبّلٍ كفـّي وددت لو انه   أوما الى شفتيّ بالتقبيـــل
جاذبته طرف الكلام وبيننـا   كبر الملول وذلة المملول !
من لي به والدارُ غيرُ بعيدةٍ   من داره ، والمال غير قليـــل

ولكن العباسي يأبى الا ان يروي البيت الأخير على النحو التالي :

من لي به والدار غير بعيدةٍ   من داره « وعليّ برد شباب ! »

وكان حرياً به وقد كان في نهاية الحلقة الخامسة آنذاك أن يؤثر الشباب على المال .. فالشريف الرضي كان يتمنى ان تكون دار الحبيب بالقرب منه والمال وفير بين يديه ، اما العباسي فهو يتمنى قرب الدار وأن يعود اليه الشباب !

وما أقسى ان يذهب الشباب عن أولئك الذين كان شبابهم ربيعاً ندياً ملأوا كل لحظاته بالممتع الهنيء والطيب المريء .. وكان العباسي أحد هؤلاء الذين كان شبابهم ربيعاً ندياً ..

كنت أقرأ له مثل هذا الشعر فأعجب له :

استغفر الله لي شوق يجدده   ذكر الصبا والمغاني أي تجديد
ان زرت حيا طافت بي ولائده   يفدينني فعــل مودود بمودود
وكم برزن الى لقياي في مرح   وكم ثنين الى نجواي من جيـد
لو استطعن وهنّ السافحات دمي   رشفنني رشف معسول العناقيد!

كنت أعجب كيف جعل العباسي من نفسه معشوقاً تكاد ترشفه الحسان رشف معسول العناقيد !.

وقد ذكرت ذلك مرة لشيخ جليل أديب من أصدقاء العباسي ورفاق صباه وكنت توهمت أن العباسي انما يتأثر في وصفه وتصويره لالتفاف الحسان حوله وإعجابهن به بالشاعر الحجازي عمر بن أبي ربيعة الذي اشتهر في شعره بذكر تعلق الحسان به وتهالكهن عليه ..

قال محدثي انك لم تر العباسي في شبابه ، فقد كان من أجمل شباب عصره وأنضرهم عوداً ، وعندما كان طالباً في المدرسة الحربية بالقاهرة كان محط اعجاب فتيات القاهرة به ، اذ كان فارع القوام واضح الرجولة وسيماً نضراً .

ولهذا لم اعجب قط ان ارى العباسي كثير البكاء على شبابه ، تكاد لا تخلو قصيدة من شعره من ذكر ذلك الشباب الغابر والحزن على ذهابه ، وان ارى في هذا الشعر صورة حية من افتتان الحسان به ، فاذا ما طاف بحي منهن برزت الى لقياه في مرح وثنين الى نجواه اجيادهن، ولو استطعن لرشفنه رشف معسول العناقيد !..

وقد ظل العباسي حتى في شيخوخته محتفظاً بهذا القوام الفارع القوي وبوسامته التي لم تطغ عليها الشيخوخة الى الحد الذي يخفي معالمها كل الاخفاء .

وقد كان من أهم اسباب احتفاظه بقوته ونشاطه وحيويته حتى آخر سني عمره رحمه الله ، تلك الحياة البدوية الخشنة التي كان يحياها في ربوع البادية ، اذ كان يظل الشهور الطوال على ظهور الجمال متنقلاً بين شبه الصحراء ، وتلك رياضة شاقة لا يقوى عليها إلا من أوتي مثل عزيمة العباسي وجلده واحتماله للمكاره ..

قلت أني لقيت العباسي لاول مرة عـــام ١٩٣٢ في الحمراء مقر زعيم بادية الكبابيش وكنت مشوقاً الى لقائه معجباً بشعره قبل أن اراه ، وفي لقائنـــا هذا كان العباسي قادماً الينا من مليط وهي بليدة صغيرة تقع في مديرية دارفور ذات جمال طبيعي أخاذ ، أمواه وأشجار ونخيل ، وقلّ ان ترى النخل في كردفان ودارفور ، والعباسي مولع بكل بقعة تسخو فيهـــا الطبيعة وتجود ، فلا عجب ان تفتنه مليط فيشد اليها الرحال ليتملى جمالها وهو المولع بالجمال في كل شيء . . . ومن مليط اسرع الى بادية الكبابيش وهو ينظم قصيدته الرائعة عن مليط ، ولما بلغ الحمراء كانت قد اكتملت الا قليلاً ، وفي ظلال الحمـــراء وبين خيامها ووديانها حيث كنا نتنقل معا ، كان يقرأ علي هـــذه القصيدة ، ويجوّد في بعض كلماتها ، وكان العباسي ينتقي كلمات شعره كما ينتقي الجوهري كرائم الجواهر . فاذا ما طاب واستقام له اللفظ الذي يريد ، انتشى وأخـــذ ينشده بصوته الساحر الأخاذ ، ولقـــد أشرت اكثر من مرة الى جمال صوت العباسي وحلاوة إنشاده للشعر ، وقبل ان أسمع العباسي ينشد الشعر بصوته الرائع كنت قد التقيت بالشاعر الغنائي المبدع خليل فرح عقب ان ظهرت «اسطوانة» في اغنية (عزّ) وقصيدة عمر بن أبي ربيعة (أعبدة ما ينسى مودتك القلب) وكنت مأخوذاً بها كغيري من الذين استمعوا اليها ، فقال لي الخليل : أنه حاول في قصيـــدة ابن ابي ربيعة ان يحذو حذو العباسي في انشاده للشعر ولكنه أخفق ان يدانيه ، وظننت الخليل يتواضع كعادته عندما يتحدث عن نفسه فلما استمعت للعباسي ينشدني لاول مرة قصيدته عن مليط تبـــين لي صدق قول الخليل ، وانه لمما يضاعف من أحزاننا على فقده الاّ يسجل إنشاد العباسي للشعر ، وان يصمت هذا المزمار العذب دون ترجيع لألحانه . ولقد حاول صديقه وراوية شعره الاستاذ حامد العربي أن يقلده فأحسن في هذا بعض الاحسان — اعود لقصيدة مليط التي كان العباسي يعالج تجويدها في الحمراء ، استهلها بقوله : —

حياك مليّط صوبُ العارض الغادي
وجاد واديك ذا الجنات من وادي
فكم جلوت لنا من منظر عجبٍ
يشجي الخليّ ويروي غُلة الصادي
أنسيتني – برح الآلامي وما أخذت
مني المطايا بإيجاف وإنجاد
كثبانك العفر ما أبهى مناظرها
أنس لذي وحشةٍ رزقٌ لمرتاد
فباسق النخل ملء الطرف يلثم من
ذيل السحاب بلا كدٍّ وإجهاد
كأنه ورمالاً حوله ارتفعت
أعلام جيش بناها فوق أطواد
وأعينُ الماء تجري من جداولها
صوارماً عرضوها غير أغماد
والورق تهتف والأظلال وارفة
والريح تدفع ميّادا لمياد !
لو استطعت لأهديت الخلود لها
لو كان شيء على الدنيا لأخلاد

وأنك لترى في هذا الشعر الصادق العذب مليط بكثبانها ووديانها ونخلها الذي يكاد يلثم ذيل السحاب وجداول الماء التي تشبه السيوف غير مغمدة والطيور تهتف وتغني والظلال وارفة ، والريح تدفع بالغصون فتميد على بعضها .. صور من جمال الطبيعة الساحرة وجدت الشاعر الساحر الذي يجلوها للناس في شعر سلس عذب ، وما اجمل الطبيعة وأسخاها في بلادنا لو وجدت مثل العباسي ليجلو محاسنها في مثل هذا النسق العالي من الشعر ..

ومن وفاء العبـاسي أنه كان يحرص على ارسال صور من كل قصيدة جديدة ينظمها الى رفاقه الخلصاء ، وكان يهمه ان يستمع الى آرائهم فيها ، واذكر انه ما كاد يفرغ من تجويد هذه القصيدة بين مضارب البدويين في الحمراء حتى طلب مني ان أبعث بصورة منها لصديقه الوفي الحميم الاستاذ الجليل حسن احمد بشاشة مد الله في عمره ومتعه بالعافية ، وكان آنذاك يعمل مدرسا في مدرسة ام درمان الابتدائية ، وقد فعلت .

وظل العباسي معنا لفترة غير قصيرة وهو يجوب البـادية عرضاً وطولاً ، وكنت أرافقه احيـاناً في بعض تجوالي هذا ، وأتخلف احيـاناً بسبب عملي في مدرستي البدوية المتنقلة مع الحي والتي اتخذت لها من ظلال الاشجـار مكاناً ومن الرمال البيضاء مقاعد للتلاميذ !... وكان العباسي في اي حي بدوي حل يقابل بالترحاب والمودة اذ كان البدويون كما قلت يعرفونه ويؤثرونه بالود الصـادق ويحتفون بمقدمه .

وفي زيارته هذه وبين ربوع الحمراء وأحيائها نبت في قلبه حب قوي عنيف ، وما كان لقلب كقلب العبـاسي ووجدان كوجدانه المشبوب الا ان ينفعل بهذا الجمال البدوي الساحر من حوله ، وتبدت له الحمراء بتلالها ووديانها ورمالهـا وأناسها وحيواناتها قطعة من الجنة كم تمنى الخلود فيها ! لو كان شيء على الدنيـا لاخلاد ، وبدا لي العباسي الانسان وهو يتعذب بحبـه العفيف الطاهر في أروع حالاته !.. كان يجلس معي الساعات الطوال ويلح علي ان أقرأ له من لزوميات المعري وكان مولعاً بها كل الولع وكاد يحفظها عن ظهر قلب ، فاذا ما أحس مني بالاعياء ، وان الوجد ما زال مستعراً بقلبه ، تركني جانبـاً وأخرج مصحفه وأخذ يتلو القرآن ليجد في آيه ما يبرد الغليل .. وكان مرح الشباب يدفعني كثيراً الى معابثته ، فكنت .. اذا ما فرغ من تلاوة القرآن بعد ان يكون قد أستمع من قراءتي في شعر المعري .. انظر اليه وأقول ضاحكاً : « رحم الله ابن الدمينة

حيث قال: بكل تداوينا فلم يشف ما بنا !.. فيضحك - رحمه الله - وتسري عنه مداعباتي هذه .

ويقرر السفر ونخرج لوداعه على ظهور الجمال كعادتنا كلما ودعنا واحداً منا، حتى اذا بلغنا مرحلة معينة ودعناه وهو يعانقنا في حرارة وينظر الى الحمراء من بعيد وتغرورق عيناه بالدموع ، ونعود اليها ، ويتجه هو شرقاً وترقل به العيس وتخدي وفي قلبه هوى ووجد بالحمراء وساكنيها يلذعه كالجمر .

ويصل القضـــارف ويسميها (قضروف سعد) لينزل بالكرامة منها عند صديقيه الحميمين السيدين عبدالله بكر والمغفور له الشيخ عبد القادر عبد الباسط قاضي المحكمة الشرعية ، وكان أديباً مثقفاً حلو المعشر، ما يكاد يستقر حتى يبعث الينا في الحمراء اولى قصائده التي أنشدها بعد ان غادرها . وقد شجـانا ما جاء فيها من وجد وحنين الى ربا الحمراء وسكانها وقد استهلها بقوله عن « قضروف سعد » واصدقائه فيها :

ألا هل أتى هنداً ولا زال بالحمى
ملثٌ من الرضوان يهمي على هند
بأني حططت الرحل في خير بلدة
عرفت بهـا رهط السماحة والمجد
وكل فتى تحكي السحـــاب يمينه
فليس بذي الشح المطاع ولا المكدي
تقول اذا ما جئته البحر زاخراً
وكالنجم للساري ، وكالعلم الفرد
واقسم (يا قضروف سعد) لما رمى
بنا لبنيك الأكرمين هوى الرفد
ولكن أحاديث المنى وهي عادة
حسان كحسن الخال في ناضر الخد

وبعد ان يثني على صحابه في قضروف سعد ، يقوده وجده المشبوب الى دارة الحمراء والى احبابه بين مضاربها فيبكي شوقاً بهذا الشعر المعبر : -

فيــادارة « الحمراء » بالله بلـّغي
هناك حبيبــاً بـين كثبانك الربد
بــأني لا أنسى وإن شطت النـوى
ليالي وصال غـير مذمومة العهـد
مُنى قد أخذناها من الدهر خلسةً
بزهرة ذاك الحــي في عيشة رغد
فلم يبق منهــا اليوم الا حديثها
وطيف يريني الرد في صورة الوعـد
أحنُّ اليهـم والديار بعيــدة
وإن كان لا يدني الحنين ولا يجدي
فمن لي بمن يملي الاحاديث عنهـم
وياليت شعري ما الذي أحدثوا بعدي
ويا هند لا والله ما خنتُ عهدكم
ولكن ضرورات التجوّل والبعد
عليكم سلام الله كم هجتموا هـوى
وجددتموا عهد الصبــابة والوجد
وان عادت الايام عدنا الى الذي
ألفنــاه من حسن الرعاية والود

ويغادر القضارف الى قريته (الشيخ الطيب) ويقضي اياماً في العاصمة مع اصدقائه الخلصاء يسمعهم ما جدّ من شعره ويسمعونه رأيهم فيه ، وأنهم به لمعجبون فخورون ، ولكن العاصمة ببهجتها ، واصدقاءه وحفاوتهم به ، وقرية الشيخ الطيب بهدوئها ، والاهل من حوله ، كل هذا لا يزيده الا ولهاً بالحمراء

وتذكرا لها ، ولو طاوع قلبه لترك كل ما حوله ومن حوله وشد الرحال عائداً ليشفي غليله بين ربوعها ، وليعيش وادعاً بين اهلها الوادعين ، ويدفعه الشوق الملح للحمراء ليشفع قصيدة القضارف بأخرى يبعث بها الينا في البادية ولما يمض على الأولى الا فترة قصيرة ويسمي قصيدته هذه (دارة الحمراء) وفيها يقول :—

قـل للغمام الأربـد	لا تعد غور السنـد
وحي عني دارة الحمرا	وقل : لا تبعدي !
منـازلٌ يا برق أر	وت أمس غلة الصدي
يا ويحها كم نظمت	شمـل هوى مبدَّد
قالوا غـداً يوم الفرا	قِ قلت بعداً لغد
يا متهمون هل لـكم	عـلم بحـال المنجـد
صبٌ بكم أمسى يعـا	ني صرف دهر أنكد
قد نفد العمر وهـا	وجدي بكم لم ينفـد
جادك ثجّـاج الحيـا	من مبرق ومرعـد
لأنت ريحان النفو	س عدت ام لم تعد
يا حسنه وقد بـدا	لناظري من بعـد
والشمس ألقت في كؤو	س الغرب ذوب العسجد
يهـز تحت درعـه	أعطاف غصن أملد
يا ما أحيلى ما أرى	من صلفٍ وصَيَدِ

والقصيدة طويلة مثبتة في ديوانه تحت عنوان (دارة الحمراء) — وتتوالى علينا قصائده يحملها شوقه الى البادية بجانب اغراض أخرى من وطنية أو اجتماعية ولا أكاد أعدو الحقيقة اذا قلت ان العباسي لا يكاد يدفعه غرض لنظم قصيدة الا التفت فيها الى بادية الكبابيش واجداً والها يحن اليها حنيناً موجعاً .

وأني لأذكره وقد وقف يلقي قصيدته التي أعدها لمهرجان يوم التعليم الذي

كان يحتفل به الخريجون والشعب من ورائهم يهتف مؤيداً في منتصف الاربعينات وقد بلغ العباسي آنذاك الخمس والستين من عمره ، وحسبته – وقد مضى عهد طويل على ايامنا بالحمراء – أن سلا قلبه وخمدت جذوته ، واذا به ينشدنا :

مالي وللخمر رقّ الكأس أوراقـاً
والصبابـة تصلي القلب إحراقـا
مضى زمانٌ تساقينـا الهوى بها
في فتية كرموا وجداً وأشواقا
زهر الوجوه متى سيموا الهوان لووْا
سوالفاً كصوى الساري وأعناقا
صحب حملت لواء العشـق بينهم
من قبل أن يصبح العشاق عشاقا

وتطالعه الحمراء وأحبابه ، فتتجدد الجذوة وتتقد ولا تحول الخمس والستون من عمره بينه واجترار ذكرياته العذاب فيقول مولهاً « بالحمرا » و « زهرتها » ، وان تظاهر بالسلو :

يا برق طالع ربا « الحمرا » و « زهرتها »
واسق المنـازل غيداقاً فغيداقا
ومن اذا سمعوا من نحونا خـبراً
والليل داجٍ أقاموا الليـل أيراقا !
انا محبـوك يا أيام ذي سلم
وان جنى القلب من ذكراك أعلاقا
واليوم قصر بي عما أحاوله
وعاقني عن لحاق الركب ما عاقا

وأنكر القلب لذات الصبا وسلا
حتى النديمين ، أقداحا وأحداقا !

أحبو الى الخمس والستين من عمري
حبواً وأحمل أقلاماً وأوراقاً ؟

وإن لم تخني الذاكرة فإن العباسي لم يقف على منبر عام يتلو شعره الا مرتين، أحداهما هذه التي القى فيها قصيدته ليوم التعليم ، والأخرى عندما أقيم في نادي الخريجين بأمدرمان حفل تأبين لصديقه الحميم المرحوم الاستاذ عبد القادر عبد الباسط ، وقد أسال الدموع حزناً عندما القى مرثيته الرائعة في الأنشاد وقد جاء فيها :

ليت أني لك الفداء وإن لم
تبق مني الأيام الا ' أقلي

ما بياني وقد نكرت بياني ؟
ما دموعي والدمع جهد المقل ؟!

فسأبكي عليك ما سجعت ورق
بكائي على الشباب المولي !

أحسبني قد أطلت وأنا اعيش مع العباسي وبادية الكبابيش وكلاهما حبيب الى نفسي عزيز علي وإني، لأنظر اليوم عبر هذه السنوات الطوال الى ربوع البادية متتبعاً بقلبي ومشاعري الأحياء التي لقينا فيها أولئك الأحباب ، وهم في نضرة الصبا يملأون الحياة مرحاً وغناء ورقصاً ، ويستقبلوننا في بشاشة وعذوبة ويوحون للعباسي أروع ما نظم من شعر ، وأودعوا قلبي هذه الجذوة التي ما زلت أعيش بدفئها ولذعها ، فيرمضني الحزن على الذين ودعوا الحياة من قبلنا ، ولا أدري في أي فلاة أودعوا الثرى ، والذين نال منهم الزمن فأحنى ظهورهم وخدّد وجوههم التي كانت تشع بأضواء الحسن والجمال .. ألا إنها الحياة .. جديد يبلى ويزول وجديد يولد : ألا فليرحمنا الله جميعاً . !

عود للأغنية البدوية

تأسرني الاغنية البدوية ببساطة كلماتها وصدق تعبيرها ، ولم أمل سماعهـا طوال فترة حياتي بينهم ، اسمعهـا من الفتاة في غدوها ورواحها ، ومن الفتية حول البئر يستقون ، ومن الكهول أو الشيوخ وهم على ظهور الجمال يقطعون الفلاة لغرض من اغراضهم .. فالأغنية دائماً على كل فم .

ولقد عرضت في هذه المقالات بعض ما يتغنى به النساء في حلقات الرقص ، اذ ان الغناء في هذه الحلقات قاصر على النساء فقط ، امـا الشبان فان مهمتهم « الطنبور » يسايره تصفيق اياديهم وضربات أرجلهم ، وعلى أنغامه وإيقـاع الأيدي والأرجل وهزج الاغنية تتموج الراقصة وتتثنى وسط الدائرة ، وتثب احياناً وثباً منظماً نحو الشبان تارة ونحو الفتيات اخرى ، وتنثني حينـاً الى الخلف حتى يلامس رأسها قدميها كما ينثني الخيزران !

وقد كان لي عدد من الاصدقاء من شبان البدويين أذكر من بينهم شابـاً يسمى (مطر) كان يكبرني بعدة اعوام ، حلو الدعابة ، فيه سخرية محببـة بالناس .. كان اذا جاءني ابتدرته ببيت الشعر الذي يقول :

سلام الله يا مطر عليها   وليس عليك يا مطر السلام !

ولم يكن يدرك معناه اول وهلة ، ثم تفهمه فيما بعد، فكان يغرق في الضحك كلما ابتدرته به ، بل كان احياناً يبادرني به كلما جاءني زائراً .

وكنت أؤثر هؤلاء الشبان . وبينهم مطر – باصطحابي عندما يحين موعد اجازتي ، فأغادر البادية متجهاً صوب مركز سودري ومنها للابيض وهي رحلة شاقة كنت اقطعها على ظهور الجمال في اكثر من الاسبوعين وفي احوال نادرة كان ييسر الله لي عربة حكومية تكون قد جاءت من الابيض في رحلة رسمية لمركز سودري فأستغني عن الرفاق البدويين وجمالهم ونودع بعضنا في تأثر ومودّة ، ودعاء حار باللقاء بعد الاجازة .

وكنا ما نكاد نخلف الحمراء وراءنا ونودع اهلها .. وتخب بنا الجمال حتى تنطلق حناجرهم بالغناء في أصوات حلوة عذبة وأكاد أجزم ، بأن الجمال كانت تطرب لغنائهم او حدائهم ذاك ، فقد لحظت اذ أصابهم الاعياء وخفتت اصواتهم وصمتوا .. أصاب الجمال الاعياء ايضاً ولم تعد تخب بنا بذلك النشاط الموفور .. فاذا ما هبوا من صمتهم وعادوا للغناء نشطت الابل في سيرها واخذت تقطع الفلاة وكأنها تثب وثباً !

وغناء الرجال في الفلاة وهم على ظهور الجمال يختلف في معانيه وادائه عن غناء الفتيات في حلقات الرقص ، وعن غنائهم هم حول البئر أو وسط الحي ، ولكل من هذه الحالات غناؤها الخاص بها من حيث المعاني وطريقة الاداء ..

فأغاني الفلاة التي اتحدث عنها اليوم – وانا استوحي عبر السنين الطوال صوت صديقي مطر ورفاقه من شباب البادية المرح يتغنون بها والجمال ترقل بنا – تشبه الى حد ما ، ما نسميه بالدوبيت او (الدوباي) على الاصح ، ولكن اداءهم لها يختلف بعض الشيء ، وتتكون الاغنية من بيتين فقط ، يكون اولهما عادة مدحاً او مباهاة بالجمل الذي يركبه ، وكيف انه قوي الاحتمال سريع

الخطو يقطع المسافات الطوال في سويعات وقد يصفه من حيث حسن صورته ووسامته بين الابل !

اما البيت الثاني فيطرق اغراضاً مختلفة ، اكثرها ذيوعاً ان يذكر محبوبته وشوقه اليها ، وحنينه الى دارها ويمجد جمالها واخلاقها .

وقد يكون حكمة مرسلة تصور فلسفتهم الساذجة البسيطة عن الحياة .

وقد يكون مدحاً لنفسه وافتخاراً بشجاعته وكرمه ونبل خلقه .

كنت أجد كل هذه المعاني مصورة في اغاني الفلاة ، وقد رسخ اكثرها في ذهني لكثرة ما ترددت على مسامعي في ترحالي بين مضارب البادية .

واني لأتمثل الآن على بعد المدى ركبنا الصغير المكون مني ، ومطر ورفاقه الثلاثة ، والجمال تخب بنا خباً والطبيعة السخية من حولنا تقدم لنا اجمل مفاتنها حيناً وأسوأ صعابها حيناً آخر ، من كثبان ووديان ، وجبال ، وسهول ، فنحن نعتلي مرة كثباناً عفراً نجد مشقة وعسراً في اجتيازها ، وننزل حيناً وادياً ممرعاً ، عذب ماؤه وفاض ، واخضر شجره المورق الظليل ، فنقضي فيه وقتاً طيباً ، ترعى فيه الابل ما تشاء ، وننعم نحن بالظل والماء حتى نستجم وقد يسخر الله لنا قطيعاً من الضأن حول ذلك المكان ، ونصر على شراء خروف منه ، ويصر الرعاة على اكرامنا به دون ثمن بعد ان يحيونا في حرارة وقد عرفونا او عرفوا بعضنا ، واستوثقوا من أين جئنا والى اين نسير ، وهي معلومات لا بد من ان يعرفها البدوي بالسؤال عندما تلتقي به في الفلاة مهما كلفته من مشقة وقد يتظاهر بعدم الفهم ليعيد ويكرر من اسئلته حتى يستوثق مما يريد فهمه عنك .

ولكم شهدت صديقي مطر — الذي اعرف ذكاءه الفطري وسخريته البارعة بالناس ونحن في بارا او سودري في احدى رحلاتنا ، يتظاهر بالبلاهة والغباء

والعبط ، وهو يساوم التجار في شراء بعض حاجياته ، ويهتز في اعماقه ضحكاً وسخرية منهم !

والواقع ان اكثر اهل المدن يحكمون سلفـــاً على كل بدوي بالبلاهة والعبط والجهل المطبق ، وكم يوقعهم بعض أذكياء البدويين في الفخ الذي يريدونه استناداً على هذا المفهوم .

أقول اذا ما يسر الله لنا ونحن في رحلتنا تلك قطيعاً من الضأن وحصلنا على خروف منه ، طاب لنا المقام يوماً او اكثر في ذلك الوادي ويقوم بعضنـــا بذبح الخروف وسلخه ، وآخر يجلب الحطب وإيقاد النــار ، ويتحلق رعاة القطيع حولنا ، فهم وان وهبونا الخروف الا ّ انهم حريضون على نصيبهم فيـــه شواء ساخناً يشبع نهمهم .

وللبدويين طريقة في انضاج اللحم خير مما نسميه (لحماً بالفرن) اذ يدخلون زند الخروف مثلاً في عود طويل يغرسونه في الارض لصق كومة ضخمة من الجمر ، دون ان يمسه ، فينضج بالحرارة فقط ، ويسمونه (الفقيت) .

ونشد الرحال ، وتخب بنا الجمال او ترقل ويخيل الي ّ انها في حاجة ملحــة لتسمع الحداء لتنتشي ، وتكون اكثر مقدرة على قطع هذه الفـــلاة المتعددة الصور .. ونحن ايضاً أشد حاجة منها لهذا الغناء يخفف عنا ما نلقى من عنـــاء السفر وسُرى الليل الطويل وقد سكن كل ما حولنـــا الا بعض اصوات الذئاب والثعالب والضباع تحس بنا من بعيد فتعوي وتصيح .. ولقد ألفنـــا سماع هذه الاصوات فلم تعد تثير في انفسنا شيئاً، بل كنا نفتقدها في بعض الليالي فنتساءل، لم غابت عن مسامعنا ؟

غننا يا مطر .. غن ّ . ويرتفع صوته هادئاً عميقاً عمق هذا الليل من حولنا ،

والجمال ترقل بنا في خطى منتظمة كأنها جنود مرنت على هذه الخطى الثابتة الرتيبة :

الليلة الشايب جَنّنا
وجَاب خَبّا محنّنا
برد الزّيف قابَلْنا
والفيها نصيب تصلنا

إنه يعني (بالشايب) جمله الذي تقادم عمره ، والذي جن من فرط نشاطه فجاء بخبب في السير لم يعهده فيه ، لقد « محنه » بهذا الخبب ، ثم يرسل بعد ذلك حكمة يستوحيها من الطبيعة حوله ، ومن ايمانهم العميق بالقدر ، فالليل برد « زيفة » ولفحهم من الامام .. ومهما يكن ، فان ما قدره الله لهم من نصيب في الحياة سيصلهم حتماً « برد الزيف قابلنا . والفيها النصيب تصلنا . »

ثم ماذا يا مطر .. انشد فالليل طويل ، والجمال تخب مسرعة والرمال ممتدة امامنا كأن لا نهاية لها ..

الركوب جمَلا مشتّي
واللباس ثوباً يغطِي
ما بكاتل الماضيتي
وما يَخلّي الفيها نيتِي

جمال الحياة ان تركب جملا (مُشتّي) اي قضى فصل الشتاء في مرعى (الجزو) الخاص بهذا الفصل من العام ، والجمل الذي يقضي الشتاء هنا يعود قوياً صبوراً جلداً على السفر مهما طال – وان تلبس ثوباً يغطيك ، لا ذلك الذي ينحسر عن اكثر جوانب جسمك ، فبهجة الحياة عنده ان يركب جملا قوياً جساء

لتوه من مرعى الشتاء وان يلبس ثوبـاً كبيراً (يغطي) .. ثم يتلفت فيباهي بخلقه وإبائه .. فهو لا يقاتل من هم دونه.. (ما بكاتل الماضميتي ولن اترك تلك التي احببتها ..

(ما بخلي الفيها نيتي) .. لن توجد قوة في الارض تحول بيني وبين تلك التي أحببتها نفسي ... أرأيت العزم والاباء والترفع عن الدخول في معركة مع من هم دونه ؟ والاصرار على الا (يخلي الفيها نيته) .. كم من الناس يترفع عن محاربة من هم دونه ؟!

غنّنا يا مطر فان السُرى لم يأخذ بعد بمعاقد أجفاننا ..

دوَماتـــك تَجمّـاجَم
مَرّاقيـح ومَرّاً دَمْ
ما بِـتـرّافـه العُمُر ان تم
ومابتتخلـّى أم خَشْماً أحَم

لقد أعيى السير الطويل جمله حتى سال العرق من (دوماته) بل انها تسيل حيناً قيحاً وحيناً دماً لفرط ما أجهد .. وهو ما زال يسير ويسير .. ما غاية هذه الحياه ؟.. إن اجل الانسان اذا تم فلا سبيل الى رفوه كما يرفو الانسان ثوبه الممزق .. ما بترافه العمر ان تم .. فالعمر لا سبيل الى « ترقيعه » ، وهو لن يتخلى عن حبيبته ذات الشفاه السمر .. ما بتتخلى ام خَشْماً أحَم ؟ وكيف يتخلى عن حبه والعمر قصير محدود لا سبيـــل الى رفوه ان تمزق ؟.. كلا لن يتخلى ما دام على قيد الحياة عن فتاته ذات الفم الأحم .. او الشفاه اللعس كما يقول شعراء الفصحى ..

ثم ماذا يا مطر ؟..

ما مر يديخ لي قجيجية
كبيراً طابقْ الهيجَة
الدُور الفيهـا دريجـة
بينـّا وبينـا فجيجة

أما زلت تفخر بجملك يا مطر ؟ فتقول انه قوي ليس بذي (قجة) من الوبر على رأسه ، وانه (هائج) منذ عامين ، (طابق الهيجة) فأنت تستحثه وقد قربت دار الحبيب ، فلم يبق بينك وبين دور دريجة ، غير (فجيجة) مسافة قصيرة .. يا رعاك الله اذن .. حث السير .. فما أبهج ان يلتقي الاحباء !

ان ليلنا يوشك ان ينحسر ، وكأن نجومه قد هدها الأرق كما يقول شاعرنا توفيق صالح جبريل : —

ونجوم الليل ذاهلة كجفون هدّها الأرق

ولكن صوت مطر ما زال يشجيناويدفع بهذهالجمال لتخد بنا في غير ونى ..

يا بو علوقا شابرو
واب مشيـا صـابرو
انـت الدّرْب بتـابرو
وبيت أمْ خدْ أنا خابرو !

اني أعرف مقدار (العلوق) الذي أقدمه لك ، كثير كثير .. وأعرف أيضاً مدى سرعتك في المشي .. سريع . سريع فأنت تعرف كيف تجتاز هـذه الدروب منطلقاً ، وانا اعرف دارهـا .. حبيبتي .. ذات الخـدود الوضيئة ... ! بيت ام خد أنا خابرو !

لقد تملكنا الاعياء ، وقد اطل الفجر وبلغنا مرحلة جديدة من رحلتنا في

تلك الفلاة . فنحن ننيخ جمالنا ، وننزل من على ظهورها ونتركها طليقة من حولنا لترعى ، ونطرح على الرمال البيضاء ، تحت ظلال الشجرة ، ما نحمل من فرش . ومطر ورفاقه يفترش كل منهم فروته ويتمدد عليها ، وأفترش أنا سجادة صغيرة ، وسرعان ما نغط جميعاً في النوم الذي حرمنا منه الليل بطوله .

وقد تسألني لماذا تسيرون الليل كله ، وتنامون جزءاً من النهار ؟ انها الصحراء التي يصعب اجتياز بعض جوانبها بالنهار ، حيث يشتد الحر ويستحيل وجود ظل نأوي اليه ، فلا بد من اجتياز مثل هذه المراحل بالليل حيث يلطف الجو ويمكن السير ... وحيث نجد في صوت مطر ورفاقه ما يخفف عنا وطأة السرى .

واتلفت نحوهم وهم يودعونني عندما نبلغ سودري او بارا حيث اتخذ وسيلة أخرى للسفر ، حتى اذا ما غابوا عن عيني ، تلفت القلب وجدا وشوقاً نحو الحمراء ورباها وسكانها كما يقول الشريف الرضي :

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الربوع تلفت القلب

وما أشقانا عندما تختفي عنا ربوع أحبائنا ويتلفت القلب !

الهسيس والبطان في حفل الختان

كلما أمسكت القلم لأكتب عن الكبابيش .. أولئك البدويين البسطاء انثالت الذكريات .. وتتالت الصور .. فما أدري ماذا آخذ وماذا أدع .. وانا هائم بينها أبتسم لتلك .. وأهش لتيك .. وأ كاد أهم بالحديث مع طيوف كثر تطالعني من خلال الذكريات .. حلوة رائعة .. على بعد المدى وقسوة الزمن . لقد نسيت الكثير مما طاف بي في مسالك الحياة – عبر هذه السنوات التي عشتها .. ولكني ما نسيت قط – وهيهات – حياتي في الكبابيش منذ يومي الاول الذي وصلت فيه الى حي الحمراء .. شارد الذهن .. أنظر في دهشة الى ما حولي من حياة جديدة بدت لي جهمة قاسية لفرط غرابتها .. الى أن فارقتها بعد أربع سنوات دامع العينين دامي القلب وانا أنشد :

قد قلت والعبرات تسفحها	على الخد المآقي
لما انحدرت الى الجزيرة	وانقطعت عن العراق
يا بؤس من سلّ الزمان	عليه سيفاً للفراق !

ولقد كنت حريصاً أن أعيش بينهم كواحد منهم ، أشاركهم في جميع ألوان حياتهم الاجتماعية فألبي دعواتهم في السراء ، واشاركهم في الضراء ، وكانت خيمتي تعج بهم صباح مساء ، لا يتحرجون في حديث ، لا يخرج عادة عن محيط

بيئتهم وأجلس اليهم أيضاً في أخبيتهم ، ولا يجدون حرجاً ان نأتنس كلنا ، رجالاً ونساء ، فما في الخباء سور ولا غرف ، ولا حجاب .. نفوس طيبة تملأها الثقة والحب وأكاد أسمع رنين ضحكاتهم الصافية ، وربة الخباء تدنو مني وتقول في خفر بدوي محبب : « تشرب شاهينا بالفنجان ؟ ! »

انها تخشى ألا يعجبني (الشاي) الذي تصنعه ، فهي تتساءل ووجهها يفيض بالترحاب والابتسام ، ان كنت أشرب الشاي الذي تصنعه ؟ وأشربه أسود حلو المذاق كالعسل ، ويسألونني عن حياة المدن ، ويسخرون من عيشنا ، من حياتنا الرتيبة في ارض واحدة ودار واحدة ! ويسخرون من اننا نبيع الطعام للضيوف .. ويعنون بهذا ، (المطاعم) التي تمتلىء بها المدن . ومن حقهم أن يسخروا من بيع الطعام للضيف فهو في نظرهم جرم لا يغتفر ، وسبة لا تقاربها سبة ، فالضيف عندهم موضع التكريم ، لا يبخلون عليه بشيء مما لديهم .. ينام معهم في هذا الخباء الواحد ، وقد يقاسم الاسرة سريرها الواحد ، مع الزوج والزوجة والاطفال ..

ولست انسى وقد جئنا حياً صغيراً بين عدوتي واد موتق ، ولم نجد رجلا واحداً في الحي ؛ وأطلت علينا من بين الاخبية القليلة بعض النساء ، وتقدمت احداهن الى ركبنا تلح علينا ان ننزل ، وكنا مجهدين حقاً ، وأنخنا ركائبنا تحت ظلال الاشجار ، واسرعت المرأة الى طرف الوادي حيث كانت اغنام الحي ترعى وجاءت تقود خروفاً ضخماً أبت الا ان تذبحه اكراماً ، وحاولنا عبثاً أن نثنيها ، وحاولت عبثاً أيضاً - عندما آن لنا ان نغادر الحي بعد ان طعمنا من لحم الخروف وسقينا الشاي المعروف - أن تقبل مني هدية من النقود .. لقد أصرت اصراراً عنيفاً ألا تقبل شيئاً ، وأخذت تكثر من الاستغفار استنكاراً لما أقدمت عليه .. ولهذا فقد كنت اتقبل سخريتهم من بيعنا للطعام في المدن لضيوفنا في كثير من الاسى . وأجدني غير قادر على اقناعهم .. ومنذ ذلك العهد كلما رأيت بدوياً يغشى مطعماً ليأكل ، شعرت بمدى ما يعتمل في نفسه نحو

المدن من بغض وكراهية لامتهانها لكرامة الضيف ..

ربما تسألني عن كلمة « افندي » التي لصقت بي في البادية ، ولست «أفنديا»، بل مدرساً « شيخاً » ، وان كنت هناك لا ارتدي زي المشايخ ولا الافندية ، وإنما انا بدوي يجر ثوبه ويتدلى (سرواله) حتى يلامس قدميه !.. ولكن في البادية كلها (شيخاً) واحداً لا يجوز ان يحمل هذا اللقب الكريم غيره ، انه (شيخ) القبيلة الشيخ علي التوم ، والبدويون قاطبة رجالاً ونساء وأطفالاً لا يتحدثون عنه ولا يخاطبونه الا (بالشيخ) فمن كان في مثل سنه قالها مجردة ، ومن كان اصغر منه سناً قال .. « أبوي الشيخ » .. ولهذا جردت من لقب المدرسين التقليدي (الشيخ) وحلت محله كلمة (الافندي) التي أخذت تميزني بالرغم مني حتى غادرت البادية ..

ولست أنسى ذات يوم ان جاءني صديق بدوي كان ابنه يدرس عندي ، ليقول لي اننا سنختن الصبي غداً،ودعاني لأحضر معهم احتفالاتهم بهذه المناسبة، وكنت دائماً احس بفيض من البهجة والسعادة كلما دعيت لمناسبة كهذه ، لما أستمتع به من مرح دافق تزخر به عادة هذه الحفلات ..

والبدويون – وخاصة الموسرون منهم – يحتفلون احتفالا عظيماً لمناسبة ختان ابنائهم الذكور .

وفي صبيحة يوم الختان ذبحت الذبائح، وأعد الشراب « ألوان من المريسة »، وأخذت وفود الاحياء من الرجال والنساء تتقاطر ، على ظهور الجمال والخيل .. وقبل غروب الشمس ، أعد الصبي حيث ألبس ثوباً من الدبلان جديداً ناصع البياض ، وقميصاً يماثله ، وقد امتطى صهوة جواد ، وعلى رأسه « الضريرة » وفي يده جدلة الحرير . ويحيط بمعصم يده ايضاً عظام السمك التي رأيناها من قبل على يد العريس والعروس مع (الخرزة) الخضراء وما زلت حتى الآن حائراً في حرص البدويين على وجوب ضم عظام معينة من السمك في كل طقوس

العرس والختان ، رغم ان البادية كلها لا تعرف السمك .. وتحرص كبـار النساء على الاحتفاظ بعظام السمك هذه كأثمن ما يحفظ لتلبس في هـذه المناسبات .. وجميل ان ترى أتراب الصبي على ظهور الخيل وقد احتاطوا به من كل جـانب مزهوين فرحين .. ويركب الرجال ايضاً الخيل والجمال وتتبعهم الفتيات يغنـين ويزغردن .. ويسير الموكب بعيـداً عن الحي بعض الشيء ، ويتسابق الصبية والصبي الذي يراد ختنه الى مدى بعيد ، ويحدث هذا ايضاً فتعدو بهم الخيل او الجمال في مناحي متعددة من ذلك الفضاء ويعلو غبـار السباق ويرتفـع من كل جانب ، والفتيات من بعيد يزغردن ويرقصن ويحملن مجامر الطيب .. حتى اذا أخذوا حظهم صبية ورجالا من هذه الالعاب والسباقات ، عاد الركب فانتظم واتجه نحو الحي .. وهناك تبدأ حلقات الرقص .. وفي مثـل هذه المناسبات ، يكثر النساء من رقصة يسمونها (الهسيس) وهي رقصة سريعة الايقاع ، اغانيها خفيفة الاداء ، وكلماتها قصيرة لتناسب هذا الايقاع السريـع الخفيـف .. وتكثر في أغاني الهسيس ، التي يغنيها النساء في حلبة الرقص ، الاشادة ببطولة الفرسان وتمجيد الرجال البارزين — ويحتشد الرجال حول حلبة الرقص هـذه ، ويشتد حماسهم كلما غنت الفتيات أغنيات حماسية كقولهن :

يا تركة الفراسة
دفر الخصيم داسة
المابيكَ واهلْوَاسة
رقدجوفه بي أمغاصة

أي يا وارث الشجاعة ، قد قضيت على خصمك ، فما اكثر (ملواس) عدوك خوفاً وجزعاً ، انه يبيت ليله جزعاً متألما ...

وقد تثيرهم (للبطان) اغنية كهذه :

يا عيدْي الرَّوِي

تماهلا تماك قوي
أركز لي كدي

أي ، يا موردي (يا عدي) الذي لا يجف ماؤه ، ويا لين الجانب للناس — « ماهلا ماك قوي » — ، — اركز — وهي كلمة تقـال للشباب الذي يتأهب (للبطان) .

وهنا يلتهب حماس الشبان فيتدافعون الى وسط حلبة الرقص ، ويسارعون الى ربط ثيابهم بشدة حول خصورهم ويتركون ظهورهم عارية .. ويبدأ احدهم فيحمل السوط في يده ، ويتجه نحو الفتيات ، ويلوح بسوطه وتتعالى زغاريدهن وترتفع اصواتهن بالأغنية إثارة للحماس، ويشتد كرير الشبان الذين يديرون حلبة الرقص ، ويتراقص الفتى والسوط في يده ، وهناك في طرف الحلبة وقف شاب آخر منتفخ الاوداج ، وقد ارتكز على عصا ضخمة ، وتعرى من ثوبه وكشف عن صدره وبطنه ، وقد ثبت في وقفته حتى ليخيل اليك انه تمثال انسان لا حراك به ... ويلوح صاحبنا بصوته عدة مرات ويهم بضرب الفتى العـاري المنكبين والظهر ، ثم يتوقف ويعاود الرقص والهز على البنات امعاناً في اضعاف الروح المعنوية لغريمه ، ولكي ينهار تحت ضرباته .. ولكن هيهـات فان الفتى ثابت الجنان ، كيف لا ، وهو يرى الفتيات من جانبيـه يغنين ويرقصن ، وهو يعرف ان اية اختلاجة من جسمه تعد خوفاً وهلعاً ، وانها كفيلة بإثارة السخرية والهزء من الفتيات والفتية ، وهو امر اهون منه الموت .. ويدنو منه .. ويرفع يده ويهوي بالسوط في عنف على ظهره ، ويمزق السوط الجلد ، ويبـدو مكانه ابيض ناصع البياض .. ثم ما تلبث الكرويات الحمراء ان تسرع الى حماية الجسد، ويسيل الدم مدراراً حتى يبتـل السروال ، وقد يسيل حتى القدم ، كل هذا والفتى ثابت كالطود ، لا يختلج جسمه ولا يتحرك ، وقد عاد حامل السوط الى الحلبة يهز ويتراقص والسوط في يده، وتتعالى زغاريد النساء كلما أهوى بالسوط على ظهر غريمه ومزقه وسال الدم مدراراً .

وينقلب الموقف ، يسرع الفتى بسوطه الى غريمه ، لا ليضربه هـذه المرة ، وانما (ليهز) على كتفه ورأسه ، إيذاناً بأن دوره قد انتهى وتقديراً لفروسية غريمه .. ثم يلقي بالسوط في وسط الحلبة ، ويقف موقف غريمه ، ويجرد منكبيه وظهره من الثياب ، (ويركز) كما فعـــل صاحبه الذي يدنو من السوط فيحمله ويهز في الفتيات والدم يسيل منه ، ثم يرفع يده بالسوط ويهوي به في قوة وعنف على ظهر غريمه .. ويتمزق الجلد وتسيل الدماء ايضاً حتى ينال منه بعدد السياط التي نالها هو منه .. ثم يغادران الحلبة بين زغاريد النساء العـــالية ليحل محلهما شابان آخران يعاودان الضرب .. اظهاراً للشجاعة والفروسية ! يغنين ويرقصن (الهسيس) والسياط ترتفع لتهوي ، ورقصة الهسيس دائرة والفتيـــات يغنين ويحمسن الشباب : —

اولاد العز والفراسة يعجبوك يوم الدماسة

السوط يعوي ، والظهور تتمزق ، والدماء تسيل ولا احد يرهب الموقف او يتأفف من هذا المنظر ، حتى الصبية الصغار يستهويهم ويحـــاولون ان يثبتوا فروسيتهم ايضاً !.

لقد نسينا الصبي المراد ختنه ، وكيف نذكره وقد حمي وطيس الغنـــاء والرقص (والبطان) لقد جيء به والشمس توشك ان تغيب ، وجاء الخاتن وهو رجل بدوي منهم مرن على هذا العمل .. وعلى الصبي الا يصرخ او يبكي ، كيف وقد كان قبل هنيهة فارساً مغواراً يسابق بفرسه لداته ويعبق عطر المباخر من حوله ، ويلتف حوله الرجال ومن خلفه النساء يرددن الاغاني والزغـاريد حتى اذا ما تم ختانه ، ناوله ابوه او اخوه حربة يتجه بها نحو القبلة ، عليه ان يقذفها ثلاث مرات بكل قوته .. وان يعدو خلفها كلما قذفها مرة . لعلهم يرمزون بهذا الى اشعاره بالقوة والشجاعة وانه صار منذ اليوم رجلا عليـه ان يذود عن حماه .. وهذه العادة كانت مألوفة في جهات عديدة من بلادنا ، ولعلهـا ما تزال حية في بعض الأماكن .

ويرقد الصبي اياماً يعوده فيها الخاتن صباح كل يوم ليعالج الجرح بماء ساخن ويسحق « بعر الماعز » سحقاً ناعماً جداً ويذروه على الجرح بريشة من جناح طير تمد لهذا الغرض .. حتى يبرأ الجرح .. ولست أدري ماذا في « بعر الماعز » من خاصية تدمل الجروح ، ولكني أذكر ان السودانيين قبل ان تتقدم وسائل العلاج كانوا يستعملون لهذا الغرض وسائل بدائية عديدة ليست بأقل غرابة من بعر الماعز هذا ..

ألا يا راقصات الهسيس ، وقد مزقت أصواتكن الندية القلوب مثلما مزق الفتية ظهورهم بالسياط امعاناً في التقرب اليكن بمظاهر الفروسية الخارقة ..

ماذا فعلت بنا وبكن الأيام ؟ !



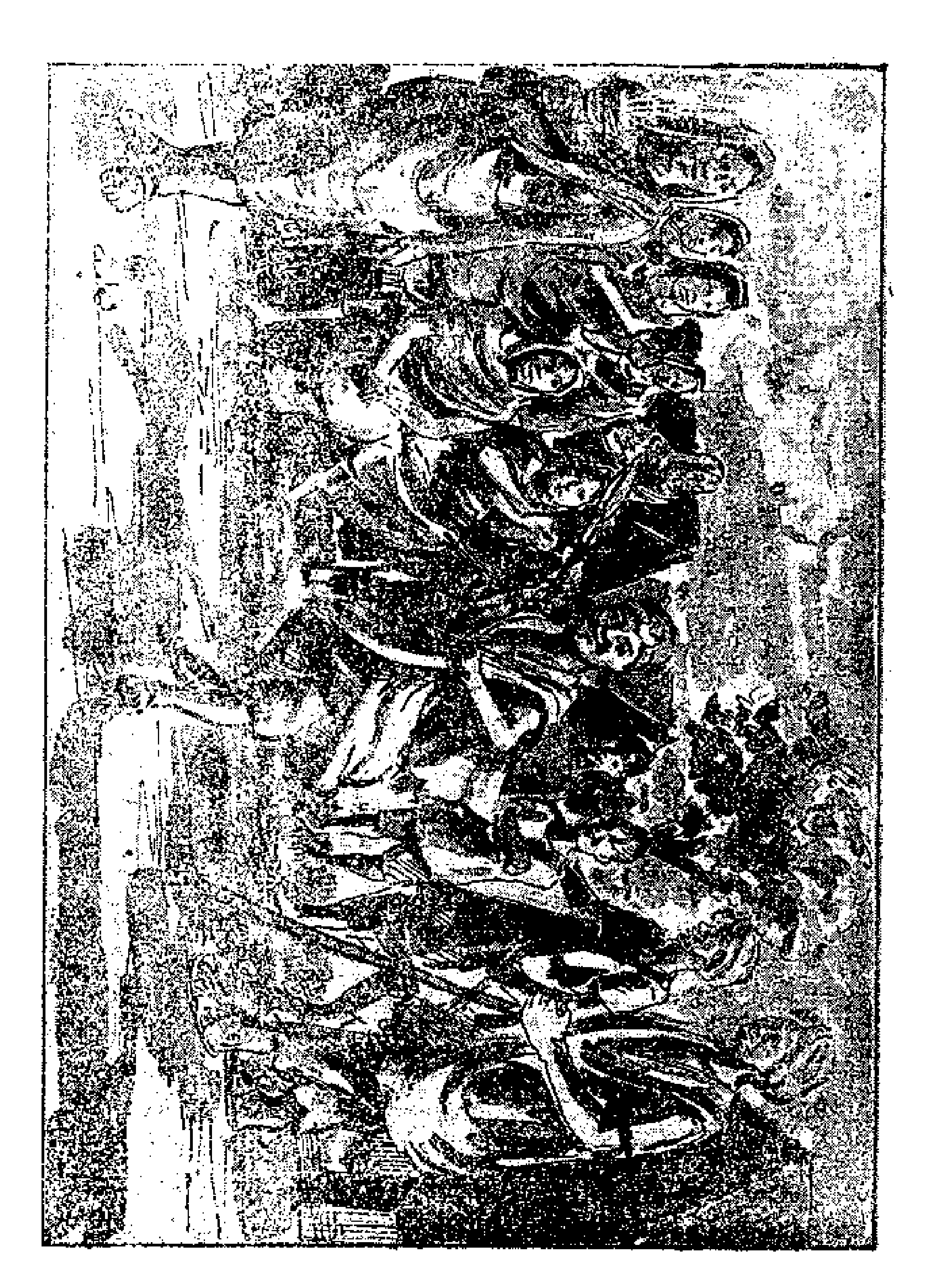
مع الصَّيد في الفَلاة

الصيد والقنص أحب شيء للبدوي وأكثر ما يملأ به وقته .. ولهم فيه طرق شتى ، وتقاليد ثابتة يرعونها كل الرعاية .

كنت في مستهل حياتي معهم قلّ أن أشاركهمّ رحلاتهم للصيد والقنص ذلك لأنهم يعتمدون في اكثر هذه الرحلات على الخيل والكلاب ، ولم أكن أحسن ركوب الخيل مثلهم ، وخشيت مغبة أن أعدو معهم وراء الصيد فيسقطني الحصان وقد لقيت الامرين عندما ركبت الجمل اولا ولكني بعد ان أجدت ركوب الخيل، وجدت متعة فائقة في مشاركتهم بعض رحلات الصيد والقنص.

وأمتع ايام الصيد عندهم اليوم الذي ينزلون فيه مكاناً جديداً اذ يكون الصيد فيه بكل انواعه – مستقراً هادئاً قبل ان يدهمه الحي بنزوله ، اذ ما يكاد الحي يستقر في المكان الجديد – ويكون ذلك عادة في المساء – ويصبح الصباح حتى يهرع الرجال الى خيولهم وتتبعهم الكلاب التي عودت على الصيد .

يخرجون جماعات ، يحمل بعضهم البنادق ، وهذه لصيد الغزال وما قد يلاقيهم من ذئاب او حيوان آخر – ويحمل بعضهم الطرباش – او – السفروق وهي قطعة من الخشب على هيئة الرقم ٦ وهي معروفة في كثير من اجزاء البلاد



الهسيس والبطان في حفل الختان

الـ (مقناص) اي آلة القنص - وهذه لصيد الارنب، والثعالب وبعض الحيوانات الصغيرة كالقطط البرية وغيرها ، وما تكاد تبين أرنب مثلاً حتى تنطلق الخيـل حولها في سرعة وخفة -والسفاريق- تنوشها من هنا وهناك والرجال يتصايحون ويبدو مظهرهم وهم يعدون حول الارنب وكل يحاول صيدها بعصاه -السفروق - أشبه بلاعبي « البولو » الا ان الكرة في هذه اللعبة البدوية حيوان صغير شاء له القدر أن يكون ملهاة لهؤلاء الفرسان !.

وتبرز الكلاب ضارية مسرعة خلف الارنب - أو الحيوان المطارد -- فـلا تدري أيقـع فريسة ضربة فارس من - السفروق - ، ام محاصراً مفزعـاً من الكلاب .. والعجيب في هذه الكلاب التي ترافقهم للصيد ، انها لا تقتل الفريسة ولا تنهش لحمها ، وإنما تكتفي بحجزها ، وقد تقبض عليها بأسنانها دون ان تلتهمها حتى يلحق بها الصائدون فتتركها لهم وتقف بعيداً في انتظارهجوم آخر على صيد جديد .

وقد يلوح غزال من بعيد ، فيتصدى له حملة البنادق ، وقد يوكلون امره الى ابرعهم في الرماية وقد يقتسمون الفرص بينهم ، وقل ان ينجو منهم صيد .

وعندمـا ينتصف النهار يأوون الى الاشجار الوارفة الظـلال في اقرب واد اليهم ، وهناك يوقدون النار ويعمدون الى بعض صيدهم فيسلخونه ويشوونه على النار ويلتهمون شواءه في لذة ونهم، فاذا كان الصيد ظبياً استمتعوا - بالمرارة - وهم يعتبرون مرارة الظبي أشهى وأطيب مذاقاً من «مرارة» الخرفان ، فاذا ما اخذوا حظهم من الطعام والراحة تحت ظلال الاشجـار عادوا مرة اخرى الى استئناف مطاردة الصيد كبيره وصغيره فلا ينجو منهم حيوان يلقونه في تلك الفـلاة .

وهم يجدون في مطاردته بالخيل متعة فائقة ، اكثر من استمتاعهم بما يصيدون .. وتبـدو في هذا الطراد أصالة الخيول ، ويتباهى اصحـاب الخيول

القوية الشكيمة القـادرة على الطراد والسبق الى بلوغ الصيد ، بحسنات خيولهم هذه – وفي فترة استجمامهم وتناول شواء الصيد – تدور اكثر احاديثهم حول خيولهم وأيها كان أسرع عدواً نحو الصيد ويحصون على كل حصـان ما قام به وكيف تقدم او تخلّف ، كما يدور مثل هـذا الحديث عن كلابهم واطراء جهود ما كان منها خفيفاً سريعاً نحو الصيد والطريقة التي استطاع بها ان يعطل الفريسة حتى لحق به الرجال .. وقد يتطرق الحديث الى مقـارنات بحوادث اخرى مشابهة او مغايرة حدثت في رحلات صيد سابقة برزت فيها كلاب معينة بما يشبه الاعجاز في الصيد يذكرون ذلك لها في اعجاب بالغ .

قلت ان لهم في الصيد تقاليد واجبة الرعاية وأهم هذه التقاليد ان من يصيد صيداً وبالقرب منه امرأة او ظعناً للنساء ، فما يجب ان يذهب به بل عليـه ان يقدم ما صاده تواً الى المرأة او الظعن .. بل حتى لو جاء عائداً من صيد بعيد على فرس او جمل يحمل عليه ما صاده ، ولقيته في الطريق امرأة او ظعن وجب عليه ان ينزل عن جانب من صيده اليها ، او اليهن لو كن جمـاعة من النساء في – ظعينة – .

ولا يستطيع اي بدوي مهما كانت حاجته لما صاده ان يتخـلى عن هذا التقليد ، ويكون حسن الحظ جداً اذا كان صيده وفيراً ، اذ ان التقليد لا يقتضي منه ان يتخلى عن كل صيده – اما لو صاد حيواناً واحداً او اكثر بقليـل فقلّ ان يصل به داره الا اذا كان حسن الحظ جـداً وسار بطريق لم تلقه فيه امرأة او ظعن .

وكم هو لطيف جداً منظر العائدين من الصيد على ظهور الخيل والكلاب تلهث من خلفهم ، وهم يدخلون الحي محملين بما صادوا وكلما اقتربوا من بيت امامه امرأة او أطلت عليهم من داخل الخباء ألقوا اليها ببعض ما يحملون من صيد ، وقد يصل بعضهم الى داره وهو لا يحمل الا قدراً يسيراً جداً ممـا صاد ، وقد

يكون له نصيب الاسد من الصيد الذي ألقي على بيوت الحي في الطريق .

وللصيد وسائل اخرى غير هذه يجيدها البدويون ، ومن ذلك انهم يصيدون الغزال بشرك بسيط يصنعونه من بعض « قش الثام » وسير من الجلد وعود غليظ من الشجر ، يضعونه حيث يحتمل ان تتجمع الغزلان او في طريق تعبره .. فيطبق الشرك على رجل الظبي « اي سير الجلد الذي ربط على العود » وكلما حاول الظبي ان يعدو ليتخلص من الشرك ، عاقه العود من ذلك وازداد اطباق الشرك عليه حتى يلحق به الصائد .

ولهم وسيلة اخرى لصيد الحيوانات المفترسة أشبه بهذا الشرك الا انهم يستعملون هذه المرة البندقية يطلقها الحيوان على نفسه دون ان يدري فترديه قتيلا .

ففي المكان الذي يعرفون ان به حيوانات مفترسة ، واكثرها الذئاب والضباع ، يحشو الصائد بندقيته بطلقة من الرصاص ويضعها بين فرعين من شجرة ويثبتها جيداً ، ويجعل لها ستاراً من الاغصان الشائكة من الجانبين على ان يترك فوهة البندقية خارجة قليلاً من الاغصان ويربط - غماز - البندقية بخيط ، ويربط طرفه الآخر على فرع الشجرة خلف - الغماز - وعلى فوهة البندقية يربط قطعة كبيرة من اللحم على ان تكون لها رائحة نفاذة قوية لتجذب الحيوان اليها من بعيد .. ويترك البندقية على هذا الوضع ويذهب عنها بعيداً ويختبىء .

وتجتذب رائحة اللحم الحيوان فيهرع اليه ، ويدنو من قطعة اللحم ويجتذبها ، فيجتذب البندقية معها تلقائياً . وفي هذا الوقت يكون الحيوان قد شد ايضاً الخيط الذي ربط على - غماز - البندقية فيدوي الطلق الناري ويصيب الحيوان في رأسه او وجهه في الغالب الأعم ، ويسقط صريعاً ، ويسرع اليه الصائد او

الصائدون ان كانوا جماعة ، ليجروه الى مكانهم بعد ان يعيدوا الكرة ويعدوا البندقية من جديد على النحو السابق .

والبدويون كما قلت مولعون ولعاً شديداً بكل الوان الصيد التي يجيدونهـــا وليس مبعث هذا الواقع حبهم لأكل ما يصيدون فقط ، بل لان الصيد من حيث هو مصدر متعة فائقة لهم سواء أذهبوا اليه على ظهور الخيل فيبدو كأنه رياضة ممتعة – كلعبة – البولو – أم ذهبوا راجلين تتبعهم كلابهم التي مرنت على هذا اللون من الحياة حتى فهمت واجبها في مثل هذه الحالات فهما يرتفع بهـــا عن مستوى الحيوان .. أم ذهبوا اليه بعيداً على ظهور الجمال ليقضوا أياماً عديـدة يجوبون الفلاة ببنادقهم أو باشراكهم يأكلون مما يصيدون ويعودون بخير وفير مما صادوا .

وكلهم على اختلاف طرق الصيد التي يتبعونها ، لا يستطيع واحد منهم ان يخرج على التقليد الراسخ ، ان ينزل عن صيده كله ان كان قليلاً ، أو بعضه ان كان وفيراً لأي امرأة تلتقي به وهو يحتقب صيده ، أو أي – ظعن – للنساء يمر به وهو محمّل بالصيد .

ومن امثلتهم السائرة على السنتهم في هذا المعنى « صيداً حضرته امرأة » ، ويعنون بهذا كل امر لا يمكن البت فيه الا بشيء واحد ، كهذا الصيد الذي تحضره امرأة ، اذ لا سبيل الى انتفاع الصائد به وليس له غير تصرف واحد ، ان تحمله المرأة التي حضرته فهو من نصيبها لا من نصيب الصائد .

انها تقاليد الفروسية والرجولة الحقة .

قِصّة نحاس الكبابيش

(النحاس) عند القبائل السودانية ــ عندما كان لها سلطانها المستقل، وكانت كل قبيلة مملكة لها كيانها الخاص ــ يعتبر بمثابة العلم للدولة ، له كل ما للعلم اليوم من هيبة وتوقير وقوة ، فهو رمز العزة والكرامة ــ وكما تعتبر إهانة علم اية دولة حدثا خطيراً قد يؤدي الى اوخم العواقب ، يعد كذلك الاعتداء على نحاس القبيلة .

لقد كان لكل قبيلة نحاس في حوزة زعيمها يتوارثه ابناؤه ما داموا في مقعد القيادة من القبيلة ؛ فاذا ما انتقلت زعامة القبيلة من بيت لآخر كان حتما لزاماً ان ينتقل (النحاس) الى بيت الزعامة الجديد طوعاً او كرها .

وكان شر ما تُمنى به القبيلة ان يغنم نحاسها أعداؤها في معركة ما ، فان ذلك سبة الدهر وعار يلاحق القبيلة حتى تدفعه بالانتصار ورد النحاس اليها .

وللكبابيش (نحاس) تاريخي ، ورد ذكره في هذه الذكريات اكثر من مرة ، وقد تعرض هذا النحاس لخطر الغنيمة إبان الثورة المهدية .. ولما كان النحاس رمز عزة القبيلة ، فقد هرّب زعيم الكبابيش في المهدية الشيخ التوم ــ والد الشيخ علي التوم ــ نحاس قبيلته الى جبال بعيدة حتى لا يقع في يد الانصار

بعد هذا وصل ركب الشيخ صالح الى ضواحي دنقلا واستقروا هنـــاك ، وبعد فترة من الزمن ، استولى الامير محمد الخير على دنقلا وحكمهـا باسم المهدي ، ونتيجة لذلك تحرك الشيخ صالح بعيداً في الصحراء تجـاه (ام بادر) وعندما سمع الخليفة عبد الله بأمر الشيخ صالح – بعد وفاة المهدي – ارسل الامير عثمان ود ادم ليتبعه ويأسره .. وامتثالاً لأمر الخليفة ارسل الامير عثمان قوة كبيرة الى دار (ام بادر) وحدثت مذبحة رهيبة قتل فيها معظم الكبـابيش وكان من بينهم بخيت ود النوبة .. وتقهقر الشيخ صالح مع من تبقى له من الأتبـــاع الى منطقة (العين) ولكن قوة الامير عثمان لحقت بـه وأسرته ، وطلب من الشيخ صالح فضل الله ان يكشف لهم عن المكان الذي أخفى فيه النحاس ولكنه رفض وقتل بعد ذلك ..

وبعد مضي زمن ليس بالقليل سمع الأنصار بأن النحـاس مدفون في مكان ما بجبل اودون ، فأرسل الخليفة قوة للبحث عنه ولكنهم لم يجدوا له أثراً .

وبما ان جميع الكبابيش الذين حضروا اخفاء النحاس قتلوا فقد خشي ان يفقد الى الأبد .

وفي خريف ١٣٢٠ هـ – ١٩٠٢ م ، كان احد الكبابيش ويدعى « عبد الله دقشين » من قبيلة (غليان) يمر بأسفل الجبل فشاهد طبلاً كبيراً بين اغصـــان شجرة كبيرة ، وأسرع عبد الله وأحضر شيخه (شيخ غليــــان) وبعد فحص دقيق عرفا انه الثور – اكبر قطع النحـاس المفقودة – وأنزل الشيخ الطبل من أعلى الشجرة التي ربما يكون قد رمته اليها عاصفة من بعد ان اخرجته من مكان اخفائه . وفي نفس المكان ذبح الشيخ ثوراً (كرامة) للعثور على النحـــاس .. وأسرع عبد الله دقشين ليحمـل البشرى الى الشيخ علي التوم الذي كان ينزل في منطقة (الحريز) آنذاك – وعندما اقترب عبد الله دقشين من الشيخ علي التوم رأى انه يمكنه الاستفادة من هذا الاكتشاف .. فصـاح بالشيخ .. البشارة ، وسأله الشيخ ماذا تريد ؟

فقال أريد ان تعفيني من الضرائب مدى الحياة . ورد الشيخ علي قائلا « انني لا استطيع ان أمنحك هذا الطلب لأن الضرائب تخص الحكومة » .. ولكنه وعد دقشين ان يحسن جزاءه ..

وبعدها تحدث دقشين عن الخبر السعيد .. ولكن « البشارة » التي أعطيت له غير معروفة الآن ..

وأحضر النحاس « الثور » وقد نال منه البلى ، وفي الحال زين وكسي بجلد من جديد ، وتعالت ضرباته بين التهليل والزغاريد والصياح ، وذبح ثور آخر كرامة للعثور عليه .

وتوجه الشيخ علي التوم للأبيض وأبلغ « ماهون باشا » مدير المديرية بالنبأ السعيد وطلب منه ان تسمح له الحكومة باكال النحاس وذلك باضافة الثلاث طبلات الضائعة .

وبعد ان أذن له ، اخذه الشيخ محمد التوم — الأخ الاكبر لعلي التوم — وهو الذي أرسله والده مع النحاس ليكون في مأمن في « الصافية » مع عمه الشيخ صالح — أخذه الى الخرطوم لاصلاحه وإكماله بقطعه الاربع .. وعاد بهما الى البادية — ومنذ ذلك الوقت اصبح هذا هو النحاس الرسمي لعرب «الكبابيش».

انتهى ما كتبه مكمايكل عن النحاس ، وأضيف — كما جاء في مستهل كلمتي — ان القطع الثلاث التي وجدها الشيخ محمد ود التوم في الخرطوم لم تعد ذات موضوع عندهم بعد ان توالى العثور على القطع الاربع ذات التاريخ المرتبط بتاريخ القبيلة ، والآن فان القطع الاربع — الثور ، والبقرة والعجلان ، التي تدوي في حي ناظر الكبابيش الشيخ حسن التوم ، كما كانت تدوي امام احياء آبائه وجدوده — هي نفس القطع الأثرية التي خبأها جدهم الشيخ صالح عام ١٣٠٢ هـ — ١٨٨٤ م في ذلك الجبل خوفاً عليها من الاسر والغنيمة ، وان لم يخف على نفسه ومن معه من الاسر والقتل ، ذلك لأنه يعرف سلفاً انهم ذاهبون عن هذه الحياة ، اما النحاس فيجب ان يصان ويبقى للقبيلة .

مع حمزة الملك طمبل

اعود للحديث عن سودري تلك المدينة الصغيرة التي ترقـــد في هـــدوء بين سلسلة من الجبال والتلال تلتف حولها من كل جانب . ولقد تحدثت من قبل عـــن بعض الرفاق الذين لقيتهم هناك ، وعن زعماء العشائر في هـــذا المركز ، وقـــد ذكرت من بينهم الشيخ النعمه سوركتي رحمه الله ناظر قبائل الكاجا ، وقـــد أضيفت نظارته بعد وفاته للشيخ علي التوم ناظر الكبابيش وبهذا اتسعت رقعة نفوذه ، ولن انسى ما حييت شخصية قوية من شخصيات الادارة الاهلية في مركز بارا وهو المغفور له الشيخ اسحق شداد عمدة مركز بارا وقد لقيته اكثر من مرة ، شيخاً مهيباً زاده الشيب وقاراً ومهابة ، قوي الشخصية ازرق الناب كما يقولون ، وهو عندي قريع الشيخ علي التوم من حيث قوة الشخصية والدهاء، وكان الاداريون البريطـانيون يعمـلون له الف حساب ، وقـد سمعتهم عندما يتحدثون عنه يتحدثون في حيطة وحذر .

وكان مركز سودري – للجبال التي تحيط به وتعدد وديانه وكثبانه– موئلاً طبيعياً للجراد يتكاثر فيه ويبيض ، ولهذا فقد تعددت حملات حرب الجراد مما جعل المركز يستقبل عدداً غير قليل من الاداريين وضباط الجيش يقودون تلك

الحملات ضد الجراد ، وقد تعرفت من بينهم لأول مرة بالسيد عبد القادر حاج الصافي الذي كان يخلف احياناً – كمأمور للمركز – السيد عبد الرحمن العاقب عند غيابه بالاجازات وقد اتصف السيد عبد القادر بالحزم وقوة الشخصية وكان إدارياً ملحوظ المكانة . وهناك شخصية لا أنساها قط ، هي شخصية حمزة الملك طمبل – الذي كان في وظيفة نائب مأمور وقد جيء به الى سودري ليقود احدى حملات حرب الجراد ، وقد كنت في شوق لاراه فأعرفه عن كثب ، وعندما جئت سودري ، عرفت انه في منطقة جبال الصناقر يحارب الجراد هناك ، فقررت ان أتخذ طريقي اليه لالتقي به وأقضي معه بعض الوقت .

ويعود سبب اهتمامي بهذه الشخصية الفريدة الى الضجة الادبية التي أثارها في ذلك العهد على صفحات جريدة حضارة السودان .

اذكر ونحن في عهد التلمذة بالكلية في اواخر العشرينات ان استاذنا الجليل الشيخ عبد الرحمن احمد – مد الله في عمره – الذي كان يعمل مدرساً بمدرسة الخرطوم الوسطى ومدرسة العرفاء التي كنت احد طلبتها . وفي نفس الوقت يقوم بتحرير جريدة الحضارة عند غياب رئيس التحرير السيد حسين شريف – رحمه الله – كما ظل يحررها لفترة بعد وفاته حتى تم اختيار المرحوم سيد احمد عثمان القاضي محرراً لها ، اقول اقترح استاذنا عبد الرحمن على الشعراء ان يتباروا في تشطير هذين البيتين من الشعر : –

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسطاً اذى ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هجراً

وفتح صفحات الحضارة لنشر ما يرد اليه من تشطير ملزماً كل مشترك بدفع خمسة قروش طوابع بريد ، وقد جعل الجائزة للفائز الاول خمسة جنيهات ، وهو مبلغ محترم جداً في ذلك العهد .

ولقد تسابق ناشئة الادب للاشتراك في هذه المسابقة الادبية وامتلأت اعمدة الحضارة اسبوعياً بما كان يرد اليها ، وكان فيه الغث والجيد ، وقد بلغ الاهتمام بالمسابقة حداً فائقاً.

وبينما نحن نتابع ما ينشر على صفحات الحضارة ونرقب في شوق ما يسفرعنه حكم اللجنة الادبية التي كونت لتحكم بين المتسابقين . طالعنا مقالاً سافراً في الحضارة للاديب حمزة الملك طمبل يصيح ملء فمه مستنكراً هذا اللون من الشعر شعر التشطير ، واعود الآن الى نص مقالاته تلك لأقتبس منها ما يلي :

« – لعل اقرب شاهد على صدق ما قلناه من ان الشعر السوداني كرجع الصدى الضئيل للشعر العربي هذا الباب باب التشطير الذي فتحته الحضارة منذ أسابيع مضت .. ان الشعر لا يحسن فيه إلزام النفس بقيد من القيود والتشطير وما نحا نحوه في إلزام النفس بمشاركة نفس اخرى في احساسها ولكن بلا طائل ليسأل قراؤنا او شاعرنا نفسه عن الفائدة التي يمكن ان تحصل من تشطير شاعر يعيش الآن في السودان لقصيدة او ابيات شاعر كان يعيش في بلاد العرب منذ الف سنة ، انه سيجد الجواب لا شيء » .

وتثير كلمة حمزة هذه ثائرة الكثيرين وتتدافع كلماتهم نحو جريدة الحضارة تفند ما جاء في كلمة حمزة عن التشطير وترى فيه أسلوباً حسناً لتدريب الناشئة على نظم الشعر .

ويرد عليهم حمزة مرة اخرى في منطق بسيط فيقول : لنساعد على ابراز مثل – عملي – لا – نظري – عن التشطير – هب ان قصيدة ابن الفارض تربيزة كهذه من اربعة ارجل مصنوعة من خشب الصندل الذكي الرائحة الذي لا يوجد في غير روضة ابن الفارض ، وهب ان مشطر القصيدة نجار دفعه الاعجاب بهذه التربيزة الى تشطيرها بحسب ما يقتضيه فن النجارة فصنع بين كل رجل واخرى

رجلا من خشب جيد احضره هو ، ثم صنع بين كل درج وآخر درجاً هكذا ، فماذا يكون الحال ؟

حال عجيب لا الترابيزة كما سبق ان رأيناها ، ولا هي لابن الفارض ولا هي لهذا النجار .

وهبوا اننا عارضنا بعض قصائد شعراء العرب فما هي النتيجة — هي اننا لو وضعنا كل معارضاتنا في كفة ميزان وأبيات الشيخ بابكر بدري والتي جعلها بعضهم موضع سخرية في الكفة الاخرى لرجحت على معارضاتنا لأنه يقول :

جاء الخريف وصبت الامطار والناس جمعاً للزراعة ساروا
هذا بمفرده وذاك بابنه والكل في الحش السريع تباروا
الخ ...

وبصرف النظر عن درجة حرارتها فانها تعطيك صورة صحيحة لوجه من وجوه الحياة في السودان فهل فهمتم مرادنا ؟ نريد ان يكون لنا كيان ادبي عظيم، نريد ان يقال عندما يقرأ شعرنا من هم خارج السودان ان روح هذه القصيدة تدل على انها لشاعر سوداني .. ان يكون ادبنا مصنوعاً بحرارة نفوسنا وعواطفنا ليسير موكب الادب السوداني فخماً جليلاً موسوماً بوسم السودان في طريق — المثل الاعلى — .

وتطلعنا جميعاً الى هذا الناقد الادبي الذي يحاول ادخال مفاهيم جديدة على الادب السوداني، لا أريد هنا في هذه الذكريات ان أتقصى بواعث حمزة ومدرسة العقاد ورصفائه في القاهرة التي تأثر بها آنذاك ، والى أي مدى كان يتفق او يختلف مع ناقد سبقه زمناً هو المرحوم الامين علي مدني .. ولكن الذي لا شك فيه ان حمزة أثار ضجة أدبية ضخمة حول الآراء التي كان ينشرها في الحضارة ، وأذكر مع الأسف الشديد ان محرري جريدة الحضارة ضاقوا ذرعاً بجرأته وحملته فأوصدوا ابوابها في وجهه معتذرين عن نشر مقالاته !.

وحمزة شخصية قوية يتميز بالجرأة والشجاعة الادبية الفائقة .. قبل ان ألقاه سمعت عنه الكثير من موظفي مركز سودري وقد رووا لي قصة أرى لا بد لي من ان أذكرها هنا ، فهي تكشف لنا عن جانب من شجاعته الأدبية فقد دعا مفتش المركز البريطاني موظفي مركز سودري - وهم عدد قليل - الى تناول الشاي في داره لمناسبة ما ، وكان الموظفون يحرصون حرصاً بالغاً على تلبية هذه الدعوات التي يوجهها اليهم الاداريون الانكليز في موعدها المحدد فاذا كان الموعد الخامسة مساء تراهم يحرصون على ان يكونوا امام دار المفتش في الخامسة تماما لا تنقص ولا تزيد ، وكان هو ينظر في ساعته فاذا ما جاءت الخامسة تماما هب لاستقبالهم عند عتبة الدار ، ويندر ان يتخلف احد الا بعد سبق اعتذار ولأمر هام جدا .. وحان موعد الدعوة وجاء الموظفون في موعدهم الا حمزة ، ودارت عليهم اقداح الشاي والمرطبات وحمزة وهو نائب المأمور لم يظهر وجاء اخيراً يدير عصا صغيرة بين يديه واستقبله المفتش متثاقلا وأراد ان يحمله على الاعتذار فقال في برود : لعلك نمت يا حمزة ؟

فأجاب حمزة في برود لا يقل عن برود المفتش - كلا - كنت أطالع كتاباً ممتعاً جداً - . ولولا انني فرغت منه لتعذر مجيئي الى هنا !. واحمر وجه المفتش ، وذهل من كان في الحفل لهذه الاجابة غير المتوقعة في زمن كان فيه المفتش هو الحاكم بأمره وفي يده مصاير العباد وخاصة من كان موظفا واداريا على وجه أخص كحمزة - لهذا لم أعجب فيما بعد عندما كان حمزة اول من استغنى عن خدمته في منتصف الثلاثينيات مع عدد من الموظفين بحجة سوء الحالة المالية آنذاك .

كانت الجمال ترقل بي من سودري صوب جبال الصناقر والطبيعة من حولي تتعدد الوانها الشهية ، وبي شوق ملح لألقى هذا الاديب الثائر في احضان البادية وبين التلال والجبال يحارب الجراد كما مر ، وكانت قرى قبيلة الكاجا وكل بيوتها من القصب تتتالى امامي ، حتى لقيت حمزة في احدها في كوخ صغير من

القصب اتخذه مسكنا ، وحوله عدد ضخم من الرجال والجمال والجنود هم القوة المحاربة للجراد .. وكان لقاء كريما ظل أثره باقيا في أعماق النفس .

وكان حمزة فارع القوام تقريباً ، أقرب للنحافة ، ناحل الوجه ، يدمن القراءة ولا يريد عنها بديلا ، أقرب للصرامة منه للبهجة والانطلاق .. ولا استطيع ان أصف حياة حمزة في ذلك الكوخ يغالب المتاعب ، ويشقى وينعم بالطبيعة من حوله مما جاء في قصيدته التي أنشأها هناك بين جبال الصناقر في مركز سودري وبعث بها الى الحمراء في رسالة خاصة :

الشمس خلف الجبال ... غابت ولاح الهلال
والكون في العين أمسى ... حقيقة كالخيال
كأنما كل شيء ... مكوّن من ظلال
تلوح في القفر نار ... ضئيلة الاشتعال
وفوق كوخي طيور ... وخلف كوخي غزال
وحول كوخي نبات ... من (حسكنيت) و(نال)
وغرب كوخي وادٍ ... غنا عليه « السيال »
وقد انيخت جمال ... لتستريح الجمال
وطال تسريح طرفي ... من فوق أعلا التلال
هذا سكون مريح ... لمن أطال النضال
لكن نفسي تفانت ... في حيرة وانفعال
أراه مما تقاسي ... لجهلها بالمآل
لقد توارى الهلال ... والبرق في الجو صال
صار السحاب ركاماً ... او مثلما قيل : « شال »
واشتدت الريح كدنا ... نروح تحت الرمال
فكسرت في سراها ... الاشجار مثل النصال
وصار للرعد صوت ... حتى تعالى وهال
والجو قد صار ناراً ... والبحر في الارض سال

وللطبيعة حرب تذوب فيها الجبال
فكيف أنجو بنفسي من شر هذا القتال
هذا هو الغيث فاعجب من وابلٍ في وبال
الحمد لله راقت وأعقب الحال حال
والشمس مدت اليناء من الضياء (حبال)
فأغرق الكون منها بحر من التبر سال
وراحت الطير تشدو وراح يرعى الغزال
وكل شيء أنيس حتى القطا والصلال
وكل شيء عظيم حتى أقل النمال
في الارض واد ، ووادي في الماء او في الخيال
ومن سحاب جبال ومن ظلال جبال
أرى جمالاً فماذا وراء هذا الجمال
هذا هو الصبح فانظر هناك بعض الرجال
فهل رأيت الضواري قد اطلقت من عقال ؟
القوم للسير شدّوا على الجمال الرحال
وهم من الجهل كادوا لا يفقهون مقال
ثم انحدرنا جميعاً نجري وراء الخيال
مستأنفين قتالاً مع الجراد القتال !
فمات منا رجال ومات بعض الجمال !
هذا صيال وهذي يا صاح عقبى الصيال
لو كان في الارض عدل ما شب فيها قتال
لكن خلقنا وفينا ميل لهذا النضال
ما دامت الارض دامت حرب عليها سجال

رحم الله حمزة الملك طمبل الاديب الثائر الذي نزع للتجديد واني لأرجو ان أوفق للحديث في فرصة اخرى عن شعره ومكانته الأدبية اما الآن فهذا حديث عابر دعت اليه هذه الذكريات عن البادية وعن الشخصيات التي لقيتها هناك وما طبعته في نفسي من اثر وقد كان اثر حمزة واضحاً بارزاً وسيظل هكذا ما بقينا في هذه الحياة الفانية .



شيء من لهجتهم

كنت كلما تحدثت الى احد البدويين أحسست بفارق اللهجة بيننا وان هناك كلمات كثيرة تدور في أحاديثهم اجهـــل معانيها ، ولم استطع فهم لهجتهم تمامـاً واستيعاب كلامهم الا بعد فترة غير يسيرة ، والعجيب ان اكثر الكلمات التي كنت أراها شاذة وغير معروفة لدي عرفت بعـد البحث والتنقيب انها عربية فصحى جرت على السنة العرب القدمـاء ، وجاءت في أشعارهم واراجيزهم وحكمهم وامثالهم ، ويقيني ان أولئك البدويين الذين كنت أسخر احياناً من لهجتهم وبعض كلامهم كانوا أفصح مني لساناً وأفصح بياناً وانهم ينطقون بلسان عربي مبين !

أذكر مرة ان لقيت أعرابية كبيرة السن تركت حماراً عليه قربتان من الماء وسألتها اين مورد الماء منا ؟ ، فالتفتت وأشارت بيدها قائلة :—

« شفت القف داك ؟ الاضاة تحته ؟ » ووقفت طويلاً عند كلمة — قف — ماذا تعني ؟ اما كلمة اضاة — فقد سبق لي معرفتها ، فهم يعنون بها — الغدير — وفي اكثر مناطق كردفان يسمون الغدير « الفولة » ولكن الكبابيش يسمونه « اضاة » وظللت طوال بقائي هناك اسمع كلمة — « قف » ويعنون بها المكان

المرتفع من الارض وظننتها لهجة محلية ومثلها الاضاة .

ورأيت ان أرجع للقاموس والى بعض ابحاث استاذنا الشيخ عبد الله عبد الرحمن عن لهجاتنا السودانية في كتـابه القيم (العربية في السودان) والذي أرجو ان يجد من يعني باعادة طبعته فهو ثروة لغوية يجب ان تصان من الضياع .
وحدثني القاموس المحيط عن كلمة – قف فقال : –

(القف ما ارتفع من الارض وغلظ ولم يبلغ ان يكون جبلاً) – وحدثني كتاب العربية في السودان لاستاذنا الشيخ عبد الله عبد الرحمن عن الاضاة فقال الأضاة كا في لغة العرب تطلق على الغدير او المستنقع من الماء يبقى على وجه الارض ، « والأضية » تصغير أضاة ، ومنها سميت قرية الاضية لأن في أرضها مستنقعات – وقال زهير بن ابي سلمى يصف درعاً بأنها .

مضاعفة كأضاة المسيل
تغشى على قدميه فضولاً

والدرع المضاعفة المنسوجة حلقتين شبهها بالاضاة أي الغدير .

اذن ما افصح تلك البدوية التي اشارت بيدها الى مكان الماء الذي يقع خلف الارض المرتفعة وقالت : « شفت القف ذاك .. والاضاة تحته » وما أجهلني عندما وقفت عند كلماتها حائراً ، وهي تنطق بالعربي الفصيح المهجور عندنا

ويكثر في لهجة الكبابيش الترخيم ، اي حذف الحرف الاخير احياناً من الكلمات فهم ينطقون – الشمس « الشم » بحذف السين ، ويلتقون في هذا ببعض لهجات اشتهر بها الشكرية في شرق السودان . ومن ذلك بيت الحردلو المشهور : « الشم » خوخت بردت ليالي الحرة » . وفي اللغة العربية اشباه لهذا على أن اكثر ما كان يقلقني اول عهدي بهم استعمال ضمير المتكلم – انا – فهم لا ينطقونها

الا بالامالة للكسرة ، فيقولون – اني – وتشترك معهم اكثر قبائـل كردفان ودارفور في هذه الـ « اني » المكسورة، ويقولون في اسم الاشارة دا – دي – بإمالة الدال نحو الكسرة فاذا اراد احدهم ان يقول – انا دا – قال : « اني دي » «ودي» تنطق بين الفتحة والكسرة اقرب الى نطق الحرف «جي» «/» .

وكنت اذا ما تحدثت اليهم وجاء في حديثي كلمة « انا دا » ونطقتهـا كما ننطقها هنا ، شعروا بمفارقة كبيرة بيني وبينهم ، وقد اضطررت لكي اتجاوب معهم شعورياً وأزيل هذه المفارقات التي تباعد بيننا روحياً ، أن أعمـد الى لهجتهم فأقول : أني .. ودي .. وغير ذلك من الكلمات التي تعودوا ان يميلوا بها نحو الكسرة في آخرها كلما كان الآخر ألفاً مقصوراً او ممدوداً !

وقد وجدت أهل سوريا ولبنان والعراق ينطقون ضمير المتكلم – أنا – مثلما ينطقها الكبابيش – اني – مع مد فتحة الألف قليلاً .

ومن لهجاتهم التي استرعت انتباهي ايضاً انهم يقلبون أحياناً الالف «عيناً» وخاصة في الاسماء ، قاسم – الجاك – مثلاً – وهو من الاسماء المتعارفة بينهم كثيراً ، ينطق احياناً – عجاك – وهكذا عكس قبائل – الكاجا – من حولهم الذين يبدلون العين الفاً في كل احاديثهم ، كما يقلبون ايضاً الالف عيناً ..

أما الكبابيش فهم يقلبون احياناً ، الالف عيناً كقولهم – عجاك – للجاك كما أسلفت .

وقد ألهمني كتاب – العربية في السودان – الاجابة على تساؤل طال امده في هذا الشأن ..

ويقول استاذنا الشيخ عبدالله في كتابه آنف الذكر :

العرب يبدلون – العين همزة – والهمزة عيناً – فيقولون في – على – ألى – وفي أمر – عمر – كما ورد ان العرب تقول – أستأديت الامير على فلان – في

معنى استعديت الامير على فلان .

وتقول العرب .. موت زؤاف وموت زعاف، كما يقولون السأف-والسعف وقال الشاعر :

« عنى » غنيت بذات الرمث   أي .. « اني » غنيت .. الخ

وسخرت من نفسي أضعاف سخريتي من اولئك الذين كنت اسمعهم يبدلون العين الفاً او الالف عيناً ، وظننت بهم العجمة ، وكنت اقرب اليها منهم !

فان أتيح لك يوماً - سيدي القارىء ان تسمع الى بعض البدويين يتحدثون بكلمات غريبة على مسمعك ، او يبدلون بعض الحروف على غير مـا تعهد فاتهم نفسك بالعجمة اولا وعد الى كتب اللغة واستفتها تنبئك باليقـــين ، فما زالت صورة تلك الاعرابية تشير بيدها الى : القف والأضاة تطل عليّ ساخرة مني ، ومن جهلي يومذاك وانا اقف حائراً لا ادري ماذا تقول !

ولا انسى المرحوم الشيخ عـــلي التوم عندما وصلت حي الحمراء أول مرة يسألني في بساطة قائلا :

- البزّور - يجوك متين ؟

وكان يعني متى يجيء اليك الاولاد لتبدأ معهم الدروس ... ولكن كلمة « بزور » بفتح الباء وتشديد الزاي المضمومة .. كانت شيئاً غريباً على مسمعي وجهلت ماذا يعني بها .. وقد أدرك الشيخ في سرعة خاطفة أن كلمة « بزور » استعصت على فهمي ، فضحك وقال .. نحن نقول هنا - البزور - للاولاد . !

« والبزور » معروفة ، والتشبيه مستقيم وقوي عرفت ايضاً فيما بعد أن أهل البلاد العربية السعودية هكذا يسمون الاطفال : البذور !

ألا ما أكثر ما تعلمت من لغة الكبابيش ألفاظاً عربية فصيحة لم اسمع بها من قبل !

وكلمة : ولد واولاد ، ينطقونها « الليد » بالتصغير للمفرد ، والليدات للجمع بحذف الواو في كليهما .

وللسفر عندهم ألفاظ خاصة لكل منها مدلول ، فاذا قيل لك فلان « سفر » بحذف الألف في سافر فانه ذهب لشراء الذرة مع القافلة التي تتحرك لهذا الغرض .

ولما كان الكبابيش قوماً رعاة فهم لا يحفلون بالزراعة فاذا ما عادوا من رحلة النشوغ – واستقروا في الدمر – حول الآبار خرج الرجال في قوافل منتظمة الى مركز النهود حيث يكثر المزارعون وتوجد الاسواق لبيع « الدخن » الذي هو احب شيء لديهم في الغذاء وحملوا معهم النقود الكافية لشراء ما يكفيهم لعام كامل او بعض العام ، كل حسب طاقته ، وتعود الجمال محملة بهذا الدخن في « قراف » ضخمة والقرفة تصنع من جلد البقر وتحمل في جوفها ما يقرب من أردب كامل .

اذن فكلمة – فلان سَفَر – لا يعني غير هذه الرحلة ، أما ان كان سفره او غيابه لغير ذلك فتستعمل كلمة – مَدّ – بتشديد الدال المفتوحة .. فلان – مدّ – بمعنى سافر أو خرج .

وتكاد تكون كل المصطلحات الخاصة بالابل وسقيها عربية فصيحة فهي عندما ترد الماء ، يقولون عنها « عطين » ويسمون مباركها حول الماء « المعطن » وكلها عربية فصيحة . وحبل « الدلو » يسمونه « الرشاء » وهي عربية فصيحة .

وفي اغاني الحقيبة ، شبه احد شعرائها شعر محبوبته بهذا الرشاء في طوله وغزارته فقال :

« الشعر مردوم كالرشاء »

وقبل ان ترد الابل الماء وتكون في حاجة للسقي يقولون : الابل « ضمى » وهو تحريف بسيط لكلمة — ظماء — على طريقتهم في الامالة ، وهم يحددون فترة ورود الابل للماء في الصيف بنحو تسعة ايام ، اما في الشتاء فقد تمتد الى اكثر من ثلاثة اسابيع ويسمونها الفترة بين « الضمى والضمى » اي بين الظمأ والظمأ .

اما بيت الشعر الذي يسكنونه فتكاد تكون كل اجزائه تحمل اسماء عربية صحيحة ، فهو يقوم على العَمَد — كما يسمونها ويشد بحبال يسمونها — الطنائب، وواحدتها « طنيبة » .

واكثر ما كان يستهويني في الزينة التي تعلقها البدوية داخل هذا البيت وتحلي بها هودجها عند الرحيل ، سيور رقيقة من الجلد قد ضفرت بعناية فائقة وحليت بالودع من احجام مختلفة وطول هذه السيور الرقيقة الناعمة المزخرفة بالودع وحلقات صغيرة من القصدير الابيض يقارب المترين ، تنتهي عادة بأجراس صغيرة ويسمونها « ايد الفايقة » اي يد المرأة الفارغة من العمل « فايقة » ! وهو تشبيه طريف كما ترى ، فالمرأة التي لا تعمل شيئاً تكسب يداها نعومة وليناً بخلاف التي تشقى وتعمل بيدها ، وقليل جداً من البدويات من لا تعمل بيدها وتشقى بجانب الرجل ، فالبدوية تعمل عملاً شاقاً وعسيراً ، فهي تحتطب ، وترد الماء وتصنع الطعام وتحلب اللبن . ما عدا لبن الإبل إذ يقوم بذلك الرعاة انفسهم ، وتغزل الصوف لبيتها . وفي حالة الرحيل هي التي تقوض البيت ليحمل على الجمل ، وهي التي تعيد نصبه عندما يبلغون مكانهم الجديد .

ولا ادري عندما اطلقت على سيورها اللينة الرقيقة الدقيقة — يد الفايقة — أكانت تسخر من تلك اليد « الفايقة » ام هو حلم وقد حرمت منه !

ماكفيل المستبد الصّغير

مستر ماكفيل.. مفتش الرئاسة بمديرية كردفان، الفتى المعجب بنفسه المدل بسطوته وجبروته ، لن أنساه ما حييت ، ولن تبرح من مخيلتي هذه القصة التي أرويها اليوم وقد مضت عليها سنوات طويلة ، كأنها حدثت بالامس القريب .

انقضت اجازتي السنوية بين سنجة والخرطوم ، وتأهبت للعودة للبادية لأواصل عملي ، وأنا احمل هماً ثقيلاً للسفر الى تلك المنطقة بهذه الجمال.. وكنا عندما نبلغ الأبيض – نحال الى تاجر – متعهد ترحيلات هو الشيخ « بركيه » ليعد لنا الجمال التي ترحلنا.. وفي أحوال نادرة كنا نظفر بسيارة حكومية تقوم الى سودري وبها أحد الاداريين البريطانيين .

وقبل أن أصل الأبيض لأبدأ رحلتي وصلتني رسالة من الصديق الكريم السيد عبد الرحمن العاقب – مأمور سودري في ذلك الوقت – يبلغني فيها موعد قيامه من الخرطوم للأبيض ويطلب اليّ أن القاه بالابيض حيث يستطيع أن يعد سيارة حكومية لتقلنا الى سودري ، ومن هناك أواصل سفري بالجمال للبادية ، فسررت بهذا لأن السفر بالسيارة حتى سودري يعفيني من مشقة السفر بالجمال لجزء كبير من الرحلة .

ووصلت الأبيض ولقيت السيد عبد الرحمن هناك ومنه علمت أن المستر ماكفيل مفتش الرئاسة سيقوم معنا الى سودري ، وان هناك ثلاث سيارات ستكون في هذه الرحلة ، واحدة صغيرة لماكفيل ، واثنتان من نوع (اللوري الصغير) « بوكس » ستكون لنا .

وحدد موعد السفر ، وتقرر ان نجتمع في ظلال اشجار كبيرة بالقرب من « فولة الابيض» والتقينا هناك ، وجاء ماكفيل في سيارته الصغيرة ليتقدم ركبنا وجاء أيضاً جندي من بوليس سودري ومعه زوجته وابناؤه الثلاثة ، كان احدهما طفلاً تحمله امه على كتفها — ويبدو ان هذا الجندي قد سمع بتحرك هذه السيارات الى سودري ، وكان قادماً من الاجازة في طريقه اليها فانتهز الفرصة ليسمح له بالسفر معنا ، وكان المجال متسعاً له ، فالسيارتان الكبيرتان خاليتان من الخلف الا من بعض « العفش » — وخدم المفتش — وتقـــدم جندي البوليس يستأذن ، وثار ماكفيل ثورة عارمة ، وأغلظ القول للجندي ، وأمره ان ينصرف في الحال وأن يركب هو واسرته الجمال حتى سودري .

وعجبت لأمره ، ماذا يريد من تعذيب هذه الاسرة ، والاطفال امامـــه كزغب القطا ؟ . وكبرت في نفسي فعلته ، ولكني لا استطيع ان افعل شيئاً ، وهنا تقدم منه الرجل الطيب عبد الرحمن العاقب ، وما زال به حتى استرضاه، وسمح للجندي ان يسافر معنا في السيارة التي خصصت لي ، وفي خلفها بعض عفش ماكفيل، واخذ الجندي يضع عفشه اليسير، ثم ركبت زوجته وناولها الطفل الصغير ، ثم رفع طفله الثاني ، وما كاد يرفع الثالث .. وقد انحسر جلبابه عن رجليه حتى صرخ فيه ماكفيل في وحشية غريبة ، وأمره ان ينزل اطفاله حالا من السيارة .. ! واضطرب الجندي . ووقف بغير حراك ، وقد ارعبته المفاجأة ولم يدر — ولا نحن — سبباً لهذا الهياج ، حتى اشار ماكفيل الى رجل الطفل الاخير الذي كان يهم والده بوضعه في السيارة .. والتفتنـــا الى حيث اشار ، فرأينا تسلخاً بسيطاً في رجل الطفل، وعلمنا انه بسبب نار أحرقته قبل ايام وقد

التأمت الا من آثار بياض في الجلد .. وأصر ماكفيل الا يركب الطفل حتى لا يعدي عفش ماكفيل بمرضه !. وحرنا ماذا نفعل، وقد ملأ الشر وجه ماكفيل وهو يعض بنواجذه على غليونه في عصبية واضحة ، ولكن الرجل الطيب عبد الرحمن العاقب لم يأبه لغضبه ، وعاد اليه يلح في السماح للجندي واسرته بالسفر معنا مؤكداً له ان ليس برجل الطفل مرض يخشى منه ، وانما هي آثار حرق قديم .. ورضي بعد لأي ان يركب الجندي واسرته معنا ..

وتمثل لي السيد عبد الرحمن العاقب في تلك الآونة وهو يشفع للجندي عند ذلك الطاغية ،فيلسوف المعرة ، ابو العلاء المعري، وقد أكرهه اهل المعرة لكي يلقى الامير صالح ، وقد أحاط بهم بجنوده ليشفع لهم عنده وينصرف ، وخرج الشيخ الى الامير صالح ، الذي قبل شفاعته بعد لأي ، بعد ان أبدى كل ما يملك من مظاهر السطوة والطغيان .. وعاد المعري الى اهل المعرة ليقول لهم ان الامير قبل شفاعته – وعاد الى محبسه وفي قلبه حرج من هذا الموقف وقال :

بعثت من القوم الى صالح
وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام
وأسمع منه زئير الأسد

ألا رحمك الله يا ابا العلاء فما زال في الناس مستبد نسمعه سجع الحمام ويسمعنا زئير الاسد !. ومن « قولة الابيض » انطلقت السيارات بنا غرباً ، وكنا في اعقاب الخريف ، ومن أراد ان يرى جمال الطبيعة في أبهى صورها وألوانها فليزر كردفان في اعقاب الخريف ، لقد خفف عنا ما لقينا من لؤم ماكفيل سخاء الطبيعة من حولنا ، فالارض على مد البصر خضراء خضراء، والاشجار مورقة، والربوات مكللة بالنبت الاخضر والوديان جنات تبهج النفس .. وما زلنا ننتقل بين هذا النعيم حتى بلغنا – المزروب – حيث نأخذ قدراً من الراحة في

ـ الاستراحة ـ التي هي عبارة عن عدة « قطاطي » صغيرة من القش . . . ونزلنا وما كدنا نستقر قليلاً حتى أهل علينـــا ركب المرحوم الاستاذ الطيب حويج مفتش الخلاوي النظامية لمديرية كردفان آنذاك . والاستاذ الطيب ـ طيب الله ثراه ـ رجل عذب حلو المعشر كان في نحو الاربعين من عمره أقرب الى البداوة ولهذا كان يطوي تلك الفلوات على ظهر حصان ويكره ركوب الجمل ، ومن خلفه الحملة تتبعه بالجمال . . . واني لأنظر الآن في تقدير عميق الى اولئك الرواد من رجال التعليم ، يقطعون الصحاري والوديان والوهاد على ظهور الجمال والخيل والثيران ليؤدوا رسالتهم في ايمان وصبر ، واذكر الشيخ الطيب حويج بوجهه المشرق وحديثه العذب وقد جاء بحصـــانه من دار حمر ـ النهود ـ ليبلغ دار حامد ـ بارا ـ ثم يصعد حتى الهواوير ـ قرب دنقلا ـ ليعود بعدها الى الابيض على ظهر الحصان !..

ونعمنا بجلستنـــا القصيرة تلك في استراحة المزروب وقد اشتهر المرحوم الطيب حويج بلازمة في الحديث لا تفارقه قط ، كان اذا اعجبـه شيء ما صاح ملء فمه .. تلاتين !. وان كره شيئاً ما .. صاح ايضاً ملء فمه . . . صفر !

وتأهبنا للرحيل ، نحن الى سودري بسياراتنا الثلاث ، والاستاذ الطيب الى دار حامد على ظهر حصانه .

وأبى ماكفيل مرة اخرى الا ان يفسد علينا تلك اللحظات الهـــانئة التي قضيناها ..

كان من بين عفشه ـ صفيحة فارغة كان خادمه يغلي فيهـا الماء للغسيل وقد اسود ظاهرها لكثرة ما وضعت على النار ، حتى انك لتأنف ان تمسها بيدك .. ويبدو ان كان في الصفيحة بقية ماء فدنا منها ـ لسوء حظه ـ جندي البوليس ، ورفعها الى فمه ليشرب ما تبقى فيها من ماء ، وفي تلك اللحظات خرج ماكفيل من « القطية » ليرى الجندي يكرع من الصفيحـة .. وثار ثورة عنيفة ، وألقى

الجندي الصفيحة مسرعاً وهو يضطرب فزعا ، وقد اقترب منه ماكفيـل وهو يسب ويتوعد . كيف يجرؤ هذا الجندي القذر ويشرب من صفيحة المفتش ؟. حتى ولو كانت الصفيحة مما يغلى فيها الماء وقد اسود ظاهرها وصارت غير صالحة كاعون للشرب !. كيف كيف يحدث ذلك ؟ وبقينا فترة وماكفيل ثائر ساخط ووجهه محتقن بدماء الغضب ، ولا تسل كيف كانت حالتنـــا النفسية آنذاك وماكفيل غاضب مهتاج لصفيحته التي عجبت كل العجب كيف طابت نفس ذلك الجندي للشرب منها !

وبعد ان اشبع ماكفيل الجندي سخطاً وتشنيعـا ، اصدر أمره الكريم في الحال ان يغير الاستاذ الطيب حويج وجهة سفره ، فيقوم معنا الى سودري وان يترك حصانه للجندي كي يركبه ويلحق بنا في سودري .

ولم يكن هناك بد من تنفيذ هذا الامر وقلنـا للجندي لا تحفـل بما حدث فستكون اسرتك موضع الرعاية منا حتى تبلغ سودري ، وكان للجندي لحسن الحظ شقيق هناك ومن الجنود ايضا .

وتحركت بنا السيارات .. وكان معي في السيارة الاستاذ الطيب وهو يحوقل وينظر الى ماكفيـل ويهتف في حرقة ... صفر !.. ثم يلتفت اليّ ليقول : هبه يريد عقاب الجندي ، فما ذنبي انا لأغير وجهة رحلتي الى سودري !

وركب الجندي الحصان ، ليبلغ سودري في اليوم التالي لوصولنا اليها . وقد أودعنا اسرته عند شقيقه .

كان الطريق بين المزروب وسودري سيئاً لكثرة كثبان الرمال فيه ، وان لم تغب عن أعيننا تلك المناظر الجميلة الخلابة التي خلقهـا الخريف أينا اتجهنا ..

وقد أمتعنا الاستاذ الطيب رحمه الله بتعليقاته اللطيفة العذبة ، فكان كلما شاهد منظراً خلابا حدد فيه بصره ، وشدني اليه بيده وهو يهتف .. تلاتين !

فاذا ما اعتلت السيارة كثيباً مهيلاً من الرمل وأخذت تعوي كوحش أطبق عليه الشرك ، وعجلة القيادة تتلوى بين يدي السائق ، نظر الى كل هذا والابتسامة العذبة تملأ وجهه وهتف بصوت مرتفع ... صفر !

وبلغنا سودري ، ولما تنته الرواية ، اذ ما كاد الجندي يصل على حصان الشيخ الطيب حتى أصر ماكفيل على محاكمته ، لماذا ؟ لأنه شرب من صفيحة المفتش .. صفيحة الغسيل التي يأنف الحيوان من الشرب منها .

لئن كان بعض الاداريين البريطانيين يتظاهرون بنعومة الملمس كالثعابين ، فقد كان أخوان لهم يأبون الا ان يواجهوا السودانيين بكل ما يعتمل في نفوسهم من طغيان واستبداد .

وكان ماكفيل أحد هؤلاء ، واني لشاكر له اذ أهداني في ذلك الوقت الباكر ما عمق في نفسي الاحساس ببشاعة الاستعمار !



ماكفيل المستبد الصغير

من مذكرات مدير المخابرات

لقد عودنا الاستـاذ نجيـلة ان يرجع بذاكرتنا للوراء لنستمتع بذكريات الشخصيات الفذة مثل تلك التي ضمت رجالاً اوفياء لمواطنيهم ووطنهم كالوالد المرحوم الشيخ علي التوم – لذا فأني لا اترك الفرصة تمر دون ان اذكر جزءاً هاماً من مذكرات ذلك المفتش البريطاني الذي عمل فترة من الزمن في دار الكبابيش الى ان تدرج الى رتبة مدير للمخابرات بمكتب السكرتير الاداري حينذاك وما سأذكره هنا عن لسان ذلك المفتش البريطاني قد وقعت احداثه عندما كان يعمل مديراً للمخابرات كما ذكرت سابقاً ، عند زيارته لمديرية كردفان للمرة الثانيـة كما سجل في كتابه ، وقد انتدب لتلك الزيارة عقب اجتماع حصل بينه وبين الوالد المرحوم الشيخ علي التوم بالخرطوم ، فقد ذكر انه كان هناك عداء بين قبيلة الكبابيش وقبيلة حمر التي تشغل جزءاً كبيراً من مركز النهود والمنتشرة بمركزي الاضية وابو زبد بما يقرب من المائة سنة ، وان هذا العداء المستحكم قد بذرت بذوره عندهجرة حمر من دارفور الى كردفان في اوائل القرن التاسع عشر – هذا ورغم الصداقة التي نجمت عن الملمات التي اكتوت بها القبيلتان في عهد المهدية والتي كان من شأنها إزالة ذلك العداء . واستطرد المفتش البريطاني في كتابه :

(على ظهر الجمل) يقول : « إن حظ هاتين القبيلتين خلال الحكم الثنائي كان مختلفاً اختلافاً بينا وغير عادي ، فالكبابيش بالرغم عن خسائرهم خلال المهدية كانوا قد توصلوا الى اعادة بناء طريق حياتهم كبدو رحل ويرجع الفضل في ذلك الى امانة وقوة خلق الشيخ علي التوم اللتين ساعدتا على تمتعهم بقوة الحكم الذاتي في كل ما يختص بشئونهم الداخلية .

أما القبيلة الاخرى فقد كانت تنقسم الى ثلاث نظارات مما جعل اتحادهـــا ضعيفاً ، وقد كان النظار الثلاثة يقطنون بلدة « النهود » في قلب دار حمر الا انه قد حرم عليهم التجوال بحرية بين أهليهم الذين كانوا يدارون بوساطة عمـــد المقاطعات وشيوخ القرى ، أما هم أنفسهم فليس لهم اي اشتراك فعلي في الادارة ، وكان ذلك عندما حضرت الى النهود عام ١٩١٧ وكان من الصعب التكهن آنذاك عما اذا كان هؤلاء النظار الثلاثة سيكونون قائدي النهضة القبلية والادارة المحلية ام لا .. هذه هي ما كانت عليه الحالة في تلك الاونة وحتى بداية سريان تيار الانتقال عام ١٩٢٧ ، الى ان تدخل في الموقف عامل غير عادي اطلاقاً .. الا وهو الشيخ الشهير علي التوم الذي كان يحمل لقب الشرف كفارس بالامبراطورية البريطانية وهو من اعز اصدقائي ولا يحمل لي أي بغض او كراهية على العمل الذي قمت به في تعداد مواشي الكبابيش عندما كنت مفتشاً بدارهم قبل عشر سنوات . وقد كان الشيخ التوم لا يترك الفرصة تمر دون مقابلتي كلما وصل الخرطوم ، وفي احدى زياراته للخرطوم عام ١٩٢٧ زارني بالمنزل لتناول فنجان قهوة وكانت جلستنـــا تلك تختلف كثيراً عن جلساتنـــا السابقة بداره ببـــادية الكبابيش – وفي تلك الجلسة تحدثنا عن الشؤون القبلية ، وبما ان الشيخ عـــلي له إلمام تام بما يدور في القبائل الاخرى ، الا انه لم تكن لديه الرغبة الشخصية في الخوض معي في التغيير الذي طرأ على الادارة رغم أن ذلك يؤثر عليـــه كثيراً وخاصة في الصعوبات التي نجمت عن ذلك والتي من شأنها عرقلة سير الامور التي يتنسم منها عبير الحرية الكاملة ، وفي اثناء تلك الجلسة ابتدرني الشيخ علي فجأة

وبدون سابق انذار ـ قائلاً بطريقتــه الموسيقية في الحديث . . ـ هؤلاء الحمر ـ لماذا تتركهم الحكومة منقسمين الى ثلاث نظارات عديمة الفائدة وسجينة بالنهود؟ هــذا كلام غريب ! لقد كانت نواياه حسنة نحو هؤلاء الورثة للعداء ، ولكني لم أرَ ما يبرر تدخله في شؤونهم ، وفي نهــاية ذلك السؤال ، ابتدرته قائلاً : ماذا تنتظر ان تفعل الحكومة بهم ؟؟. فرد الشيخ علي قائلاً : هنـــاك رجل يصلح لنظارة كل القبيلة كما كان يفعل اجداده . فابتدرته سائلاً : من هو ؟ فرد الشيخ علي التوم : انه منعم منصور ، انه على ما اعتقد يعمل الآن شيخاً او وكيل شيخ لقرية صغيرة متروية بمركز أبي زبد. ولا أدري لماذا تركته الحكومة هكذا؟ فابتدرته سائلاً : هل تقبله قبيلة حمر ناظراً عليها ؟. فرد الشيخ علي التوم قائلاً : بدون شك، واستمر في حديثه قائلاً: وليست الوراثة هي سبب لياقته فحسب، بل لأنه رجل طيب ومتدين ولا يتعاطى الخمر وسترى مدى سرور قبيلة حمر لو أقدمت الحكومة على تعيينه . .

إن ثقتي عظيمة بحكم الشيخ علي في مثل هذه الامور ، ولكن هنا اشخاص آخرون يعنيهم الامر مباشرة اكثر مني، كمفتش مركز غرب كردفان ، ومدير المديرية اللذين يجب أولاً أن يدرسا الاقتراح ويصدق عليه السكرتير الاداري . وبعد ان ناقشت هــذا الموضوع مع كريج نائب السكرتير الاداري توجهت الى الابيض لاتشاور مع مدير المديرية الذي أبدى الترحيب بهذا التدخل وطلب مني التوجه الى النهود لأتباحث مــع مستر مايول مفتش المركز في هــذا الامر . وتمت الترتيبات على ان أسافر عن طريق ابي زبد لأقوم بزيارة عابرة للشيخ منعم في قريته ، أبو جفالة ، كي اتبين حقيقة هذا الرجل ، ومزية هــذا الاستطلاع الاول ، هي انني لم أكن احد المسؤولين في هذه المديرية ولذا فــإن زيارتي لن تتسم بأن لها علاقة بالسياسة المحلية .

وقد وصلنا قبل الغروب الى ابي زبد وكان أول ما التقيت بــه باشجاويش البوليس الذي تعرفت به بمجرد ان وقع نظري عليه فهو نفس الشخص الذي عينته

قبل عشر سنوات ترزيا برتبة وكيل أمباشي في سودري . واصطحبت معي احد رجال البوليس الذين يعرفون الطريق جيداً الى قرية منعم منصور ، وبدأنا السير متجهين الى النهود . وما ان غربت الشمس بقليل حتى انحرف بنا الطريق الرئيسي الى طريق جانبي يؤدي الى « أبو جفالة » التي قيل لي بأنها ليست على بعد كبير . ولكن هذا الطريق كان وعراً ولا تستطيع العربات الخوض فيه ، وفعلاً كنا نزحف بالسرعة البطيئة خلال الظلام الكثيف الذي كان يكتنفنا الى أن غاصت عجلات اللوري في رمال رطبة ناعمة حتى مؤخرة الشاسي .

ومضت ربع الساعة ونحن نكد ونحفر بالطورية ، ونضع الحشائش تحت العجلات وندفع بالعربة في جنون كمساعدة لماكينتها، ولكننا لم نحرز اي نجاح، وكم اشتقت الى اسطولي السالف — الجمال !!

وقضيت الصباح التالي في (أبو جفالة) التي لم تكن قرية كبيرة ، لكني ذهلت لنوع شيوخها الذين خرجوا جماعة واحدة لاستقبالي والترحيب بي ، لقد كانت نفوسهم تحمل أجمل أخلاق العزة وسلوك التبجيل ، لاحسن أقوام من العرب. وعندما تحدثت إليهم خيل إلي ان الرجل الذي يتبعونه كشيخ لهم، تنطبق عليه تلك الخصائص التي وصفها به الشيخ علي التوم .

ووصل أخيراً شيخهم ، منعم منصور .. صغير السن نسبياً أشيب اللحية ، ذو أدب واعتدال في حضور من يكبره سناً ، وساءلت نفسي عما اذا كان هذا الرجل له من القوة لكي يكون (السلطة المحلية) لكل قبيلة حمر التي هي واحدة من اكبر القبائل في أواسط السودان ؟ ولكني لم اشعر بأي شك يخالجني في هذا المكسب الذي أحرزته .

وفي النهود استمع مايول الى قصتي بشغف ، وكما تبين ، فان منعم منصور لم يكن غير معروف كلية ، وان كان ذا طبع خجول هياب ، وقد تعهد مايول

على اي حال بأن يأخذ الرأي القبلي في صلاحيته لقيادة كل الحمر ، وقد تركت الموضوع إلى هنا وعدت إلى الخرطوم .

وبدأت الحوادث تتحرك تدريجياً لكن في ثبات نحو النهاية التي رسمها الشيخ علي التوم . وفي ديسمبر عزل ناظر قسم العساكر واختير منعم ليحل محله ، وفي العام الذي تلاه بدأت القبيلة تحت رئاسة فرد واحد مع الثلاث نظارات في تكوين وحدتها ، وكان ذلك اقتراحاً ، وتمت الموافقة عليه وبتراضي الناظرين الآخرين صار منعم ناظراً لعموم الحمر .

وقد خلق امر تعيينه روح التماسك والتضامن والفخر في القبيلة التي كانت وشيكة الوقوع في اضطرابات داخلية .

محمد التوم عبدالله عز الدين

تعقيب :

لعل المتتبع لهذه الذكريات يذكر ما نقلته عن مذكرات نيوبولد الاحاديث التي دارت بينه وبين الشيخ علي التوم والتي حاول فيها نيوبولد ان يستطلع آراء الشيخ عن نظار القبائل من حوله وفيهم من يعلم علم اليقين أن الصلة بينه وبين الشيخ لم تكن مرضية ، مع ذلك فقد ارتفع شيخ العرب الاصيل وسما في اجوبته ولم يفتح ثغرة للمستعمر ضد أحد النظار الذين جرى الحديث عنهم في تلك الجلسات .

وها هو مدير المخابرات يكشف لنا في مذكراته هذه عن جانب خفي ، ويصور لنا كيف اشار الشيخ علي عليه أن يوحد شمل نظارة حمر المبدد لتكون للقبيلة كينونتها وعزتها ووحدتها رغم الخلافات القبلية القائمة ، ويشير اليه باختيار الشيخ منعم منصور لتنضوي القبيلة تحت لوائه موحدة .

لقد عشت مع الشيخ علي أربع سنوات كاملات لم أسمعه خلالها يتحدث عن نفسه مفاخراً بما فعل قط ، وكنت أجد صعوبة بالغة في جره للحديث عن نفسه عندما يتصل الحديث بشيء من التاريخ ويكون له نصيب فيه ..

ان هذه دروس رفيعة المستوى في الوطنية والخلق ما احرانا أن نتملاها ، فقليل أولئك الرجال الذين يرتفعون فوق اغراضهم ونزعاتهم الشخصية وينسون عداواتهم ويقدمون مصلحة البلاد العليا فوق كل اعتبار ، ولقد كان علي التوم – رحمه الله – مثلا فريداً في كل ذلك .



طفل وعلق

عجبت له وأنا أتأمله وبين يديه بعض عظـــام خروف – لوحة الكتف والذراع معاً – وهو يحاول في رفق واناة أن يخرق العظم من ناحية الكتف ، فاذا ما تم له ذلك ، أدنى منه أربعة عظام اخرى ، كل منها يمثل ساق خروف وأخذ يثقبها ايضاً في رفق واناة .

وسألته ماذا تفعل ؟ .. فنظر الي وعلى فمـــه ابتسامة ساخرة وقال : الا تعرف هذا ؟ !

– قلت . كلا .. قال : ألا تفعلون مثل هـــذا عندما تلدون أطفالكم ؟ وازداد عجبي ، وتساءلت ، ترى ما هي العلاقة بين عظام خروف مثقوبة وبين مولد اطفالنا .

ولم تطل حيرتي ، فقد كشف صديقي البدوي عن السر في هذا وهو يجمع العظام المثقوبة في حذر بالغ كأنما يخشى عليها ان تصاب بسوء فتثلم اطرافها أو تتكسر ، ويقول لي في عبارات متقطعة .. هذه عظام العَلـَق ... الا تعرف العَلـَق ؟ (بفتح العين واللام) .. قلت لا أعرف ، فماذا تعني بهذه الكلمة . ؟ فأجاب متمهلا .. إننا عندما يولد لنا طفل ونذبح خروف « سمايته » ، نأخذ

سيقان الخروف الاربع ، وعظمة الكتف ، ثم نثقبهـا جميعاً كما ترى ، وننظمها في خيط واحد ، ثم نعلق هذه العظام عند رأس ام الطفل، ونسمي هذا عَلَقاً !

وسألته ، أهي العظام وحدها التي تكوّن هـذا العلق ؟ فأجاب — وبسمة السخرية ما تزال مرتسمة على وجهه لجهلي بهذه العادة التي ما كان يعتقد ان هناك من لا يعرفها .. اننا نختـار معها محجناً .. أتعرف المحجن ؟. فأجبت هذه المرة بالايجاب ، فقد شهدت المحجن كثيراً في أيدي الصبية، والصبايا يجذبون به فروع الاشجار المخضرة ويقطفونها بفؤوسهم لترعاها الغنم من حولهم .. والمحجن عصا طويلة ركبت في اعلاها قطعة من الحديد على هيئة السنـّارة تجذب بهـا فروع الاشجار ..

وتذكرت ان « المحجن » كلمة عربية فصيحة ما زالت تعيش بين الكبابيش بلفظها ومعناها العريقين في عروبتها — وتذكرت ايضاً «ابا محجن الثقفي» ولعل اسمه مأخوذ عن هذا المحجن .

وعدت لصديقي البدوي أسأله ... عظام خروف ومحجن .. أهـذا كل العلق .. قال كلا .. أني سأذهب الى شجرة « لعوت » لأقطع منها اعواداً اصنع منها عصياً رقيقة ، وأثني بعضها على هيئة دوائر ونسميهـا « الكارات » وأترك بعضها عصياً مستقيمة وأربط كل هذا واعلقه في الخبـاء حذاء رأس النفساء .. ويظل هذا العلق بهيئته هذه باقيـاً في مكانه حتى تكمل النفساء اربعين يوماً .. وهنا سألته ، لماذا تأخذ العَلَق من شجر اللـّعوت دون سواه ؟.. وصمت فترة يبحث عن جواب ، ثم قال : لست ادري .. هكذا وجدنا اهلنـا يفعلون ! ان شجرة اللعوت وحدها هي التي يجب ان تؤخذ من فروعهـا العلق ، كما ان عظاماً غير عظام خروف « السماية » لا تجزئ ... وقلت في نفسي مـا السر في جمع محجن، وعظام خروف، وعصي مستقيمة ومستديرة من شجرة اللعوت دون سواها من الشجر لحماية النفساء من السوء ؟.. لا احد يدري الا انها عادة كغيرها

من العادات الكثيرة التي عزّ علينا ان نعرف تاريخها وما كان يرمي اليه الأوائل الذين ابتدعوها .

وتركت صاحبي يبحث عن شجرة « لعوت » يبري من فروعها ما يكمل به العلق، وشرد ذهني يبحث عن اصل هذه العادات، ووجدتني اسائل نفسي ايضاً عن اصل قبيلة الكبابيش ، من اين تنحدر ، فلعل معرفة هـذا تلقي اضواء على هذه العادات التي تمارسها .. فما هو تاريخهم ؟ وهل من سبيل الى معرفته ؟

ومن شيوخ الكبابيش استطعت ان أعرف تاريخهم هنا داخل السودان ، ولكنهم لا يعرفون ابعد من هذا .. وقد نكلفهم شططاً اذا ذهبنا بهم الى ما هو ابعد منه ..

وقد وقع في يدي – وانا في البادية – تاريخ لهم جمعه استاذنا الجليل المؤرخ الكبير محمد عبد الرحيم عندما كان يعمل آنذاك موظفاً في مركز بدارفور أرسله عن طريق مفتش ذلك المركز الى المستر لي مفتش دارالكبابيش ليتولى تصحيحه ومراجعته مع كبار رجالات الكبابيش – وكانت فرصة طيبة لي عندما أشركني المستر لي معه في المراجعة في احدى زياراته لنا بالبادية . وتعددت جلساتنا مع شيوخ الكبابيش وخاصة الشيخ علي التوم ، وقد أيدوا كل ما جاء في مذكرات الشيخ محمد عبد الرحيم ، وأعادها المستر لي الى مفتش المركز مؤكداً له صحة الوقائع التي جاءت فيها – وأغلب الظن ان هذه المذكرات التاريخية ما زالت حبيسة أضابير استاذنا المؤرخ حتى يأذن الله لها من يستطيع نشرها لينتفع بها رواد التاريخ .

والذي اتفق عليه الرواة ان النواة الاولى لتكوين قبيلة الكبابيش نبتت من قبيلة « النوراب » الذين كانوا يسكنون قرية « العفاض » بدنقلا وهم يعتقدون انهم ينتمون الى قبيلة « الركابية » الذين ينتسبون الى الاشراف – ومع ان الركابية في تلك المنطقة عرفوا بتعلقهم بشؤون الدين والزراعة، الا ان نوراب

العفاض تعلقوا بتربية الماشية ، ويبدو انها لما تكاثرت لديهم لم تعد منطقة العفاض وحدها تكفي لهم ولماشيتهم ، فاتجهوا منها جنوبا صوب المنطقة شبه الصحراوية متخذين من « وادي الملك » طريقاً لهم ، وهـــو واد يفيض بالماء في أشهر الخريف ، ويظل ماؤه لفترة طويلة بعد الخريف ، وهو يمتد من دارفور مخترقا الصحراء حتى يصب في النيل عند قرية العفاض . وهذا ما يجعلنا نعتقد انهـــم اتخذوه مدخلا لهذه المناطق لتوفر الماء والمرعى حوله .

ويحدثنا شيوخ الكبابيش كيف اخذ يتجمع حول النوراب عـــدد من اصحاب الماشية من قبائل متفرقة للاحتماء بالنوراب والسير معهم صوب مراعي تلك المنطقة ولما اشتهروا به من ثروة وشدة بأس ، ومن هؤلاء المحتمين بالنوراب تكونت الفروع المختلفة للقبيلة التي انصهرت في بوتقة واحدة بفعل التمازج والحياة المشتركة في بيئة واحدة .

ولا اريد هنا ان اتعرض الى ذكر المعارك الدامية التي خاضوها ضد القبائل البدوية التي كانت تستحوذ على اكثر المناهل والمراعي هناك كقبائل دار حامد والكاجا وحمر حتى تم لهم الاستقرار بينها ، فذلك امر لا جدوى منه الآن ، ولكن من الخير ان نحاول لنلقي ضوءاً ان استطعنا على اصل قبيلة الكبابيش ، ومم ينحدرون ؟

شيء من التاريـخ .

كان تاريخ الكبابيش والبحث عن اصولهم موضع اهتمام عدد من الاداريين الانجليز بل ومن حكومة ذلك العهد نفسها التي استقدمت في عامي ١٩١١ — ١٩١٢ عالم الاجناس ، المشهور ج سليجمان والمسز سليجمان «براندا » وهي ايضا متخصصة في علم الاجناس ، وقد قاما معاً بزيارة لدار الكبابيش ومكثا هناك يدرسان حياتهم الاجتماعية ويسجلان ملاحظاتهما في الفترة المذكورة ، وقـــد خرجا بكتاب توجد نسخة مصورة منه بمكتبة جامعة الخرطوم . وقد حوى

الكتاب دراسة اجتماعية لحياتهم لم اجد فيها جديداً اضيفه الى ما كتبت هنا ، وفي بعضها اخطاء سبقني الى التعرض لها المستر ديفز – مدير المخابرات – وقد عزاها الى جهل سليجمان باللغة العربية .

وقد حاولت عبثاً ان اعثر على تحقيق علمـــي واضح عن تاريخ الكبابيش فيما كتبه سليجمان ، ويبدو انه كان اكثر اهتماماً بالدراسة الاجتماعية لحياتهم ، اما عن تاريخهم فاني انقل نص ماجاء في كتابه في هذا الصدد : –

« .. من الناحية العنصرية فانه بالرغم من ان الدم العربي يجري في عروق الكبابيش فان هناك شواهد كثيرة على ان كثـــيرا من تلك المجموعات يشمل عناصر من البجة ، بالاضافة الى هذا فانه يتحتم علينا الا نسقط الدم الزنجي ، اذ من المعروف ان جميع رعاة الجمال يملكون الموالي وباستثناءات يسيرة فان اكثرهم يجري في عروقهم الدم الزنجي .. وبهذا يتضح ان الكبابيش هم مجموعة من قبائل عربية مختلفة . مع اقلية يجوز لنا ان نسميها حامية الاصل واخرى تجري في عروقها نقطة من الدم الزنجي ، ولكن بالرغم من هذا الأصل المختلط فان اجزاء القبيلة او وحداتها المتعددة اخذت اقل قدر من الدماء غير العربية اذا ما قورنت بالقبائل السودانية الأخرى » .

لقد وقفت طويلاً عند قول سليجمان « ان كثيراً من تلك المجموعات يشمل عناصر من البجة » فما اعرف عناصر في الكبابيش تنتمي الى البجة ، وهو لم يدلل على هذا الحكم بذكر مصادره لتمكن مناقشته . وأغلب ظني انـــه توهم بسبب وجود قبيلة « النوراب » في شرق السودان من بين قبائـــل البجة – والنوراب كما ذكرت من قبل اليهم ينتمي بيت زعامة القبيلة في الكبابيش – والواقع – كما يؤكده الثقاة ان النوراب كانوا اصلاً في منطقة المفاض بدنقلا ، ثم نزحوا الى عدة اتجاهات ، منهم نوراب الكبابيش – ومنهم نوراب ما زالوا في المديرية الشمالية يشتغلون بالزراعة ، ومنهم نوراب البجة الذين تأقلموا مع بيئتهم

هناك حتى صاروا جزءاً من البجة – ولعل سليجهان قد ذهب الى ان فرع البجة من النوراب هو الاصل الذي جاء منه نوراب الكبابيش – وقد سمعت من شيوخ الكبابيش ومن الشيخ علي التوم يقولون عن نوراب البجة انهم بنو عمومتنـــا – وكلهم قد خرجوا من منطقة العقاض علىالنحو الذي ذكرت وتفاعلوا مع البيئات التي استقروا فيها .

لقد أثنى سليجهان في كتابه هـــذا على البحث الذي كتبه السير هارولد مكمايكل عن الكبابيش ، وقد كان مكمايكل مفتشاً لدار الكبـابيش ثم تقلد عدة مناصب حتى شغل اخيراً منصب السكرتير الاداري لحكومة العهد الثنائي وهو اعلى منصب في الحكم بعد الحاكم العام – وقد كتب مكمايكل بحثاً موجزاً بالانجليزية عن دخول العرب للسودان – ترجمه للعربيـــة الدكتور منصور علي حسيب عندما كان طالباً بمدرسة كتشنر الطبية (كلية الطب الآن). وفي الواقع ان ما كتبه مكمايكل عن تاريخ الكبـابيش يعد خير مرجع كتب عنهم حتى الآن ، وتكلة لفائدة قارىء هذا البحث اسجل هنا نص ما كتبه مكمايكل في هذا الشأن : –

« ان الكبابيش يعتبرون خير مثال خصب في مجالالدراسة لدراسة التكوين العنصري بقبائلالسودان. وفيالوقت الحاضر فانهم يبدون للرائي كقبيلة واحدة تحت سيطرة شيخ كبير او « ناظر » يخضع له شيوخ اقسام القبيلة المختلفة وحتى الافراد .. انه لمن المسلم به ان قبيلة الكبابيش من اكبر القبائل السودانية ومن اغنى رعاة الجمال الرحل في القطر بأسره ولذا فان لقب «القبيلة» يناسبهم تماما. الا انهم بالرغم من ذلك كانوا اصلا مجموعة منقبائل عربية متفرقة اختلطت بالدم الحامي « البجـة والبرابرة » والدم الزنجي ، ولكنهم اقرب الى العرب من اي قبيلة سودانية اخرى ..

ان النمو الطبيعي لقبيلة الكبابيش والذي أدى الى وضعهـا الحالي يعزى الى

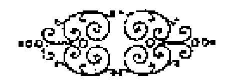
عديد من الاحتكاكات والروابط التي كانت تحدث طوال قرون كثيرة . ومن الاسباب الرئيسية التي ساعدت على هذا النمو وهـــذا الاختلاط والترابط هي السوانح الطبيعية التي تمتاز بها ارض الكبابيش . ويحد اقليم الكبـابيش بخط وهمي من ام بادر – كتول – كجمر – ام اندرابه – من ناحية الجنوب ، اما من الشمال فان حدود اقليم الكبابيش هي الصحراء الكبرى .. ومن ناحية الغرب فان اقليمهم يمتد عبر وادي الملك الى حدود دارفور .. ومن تجاه الشرق فانهم قد يذهبون في فصل الجفاف حتى وادي المقدم اسقي جمالهم .. وهناك جزء من القبيلة يسكن مديرية دنقلا ومع ان هؤلاء – في الغالب الأعم – يقومون برعاية الجمال « كعرب رحل » الا ان بعضهم يقوم بالزراعة على ضفاف النيل ..

ان الخصائص الطبيعية لاقليم الكبابيش تصلح لرعاية الجمال والضـأن ، وفي الجزء الجنوبي لرعاية الابقار ، ويبدو الاقليم في مظهره بتـلاله الصخرية ووديانه الضحلة مثل «ارتفعات « نجد » بالجزيرة العربية تماماً .. وعندما تم القضــاء على مملكة دنقلا المسيحية في بداية القرن الرابع عشر بواسطة القوات العربية وتدفقت قبائل جهينة واتباعها صوب الاراضي السودانية ، فقد اتخذوا مقـــامهم غرب النهر عندما وجدوا ان الاقليم الشرقي قد احتلته القبائل العربية الاخرى وقبائل البجة . ولم تكن تلك البقاع خالية من السكان ، فقد وجدت قبائـــل جهينة مجموعات من القبائل الزنجية – والحامية ووجدوا بالجبال مستعمرات « النوبة » وقد قضوا وقتاً طويلا قبل ان تتم لهم السيطرة على ذلك الاقليم .. امـا سلسلة الجبال الواقعة بين « الحرازه وكاجا » فانهم لم يحاولوا السيطرة عليها مطلقاً ، الا قبل فترة قصيرة جداً حيث استطاعوا طرد « النوبة » من الجبال الشمالية التي تقع فيما يسمى اليوم بدار الكبابيش .

اما اسم « الكبابيش » فانهـــا لفظة مشتقة من جد وهمي للقبيلة يسمى « كباش » والذي يقال انه (ابن أفزر) الذي جاء من سلالة « عبد الله الجهني » بغرض ربط الكبابيش بقبائل فزارة وجهينة ، ولكن المرجح ان لفظة

« كبابيش » جاءت من كبش بمعنى – خروف – وهـــذا ليس بغريب فهناك (معزه من معز) و « عنزة من عنز » !

اما عن الفترة التي اخذوا فيها هذا الاسم فليست لدينا اية معلومات عنها .. وانه لمن الضروري ان نورد هنا ان اسماء بعض اجزاء قبيلة الكبابيش ومـــا نعرفه عن تاريخها تصل بنا الى القول بأن الكبابيش جاءوا اصــــلا من الاقليم الشمالي للحجاز .. الى هنا ينتهي بحث مكمايكل عن تاريخ الكبابيش ولعله «أوضح» تاريخ كتب عنهم وهو ادق من التاريخ الذي جاء في كتابات الدكتور سليجمان – وفي نهاية هذه الذكريات لا يسعني الا ان اشيد بهذه الجهود العلمية الرفيعة التي بذلهـا بعض الموظفين البريطانيين في البحث والتنقيب عن مصادر تاريخ بلادنا واصول العادات والتقاليد في مختلف البيئات التي قادتهم اليها ظروف العمل عندنا . وهي تعتبر بحق الثروة العلمية التي خلفوها في هذا المضمار .. ؟



فهرست

صفحة

صفحة

هذا الكتاب

نقرأ كتاب « ذكرياتي في البادية » للأستاذ حسن نجيله فنجد أنفسنا معه في مجتمع لا نستطيع إلا أن نحبه ونحترم تقاليده ونظام حياته، وتندمج فيه بعواطفنا وخيالنا، حيث نحس بأننا منه وفيه، نشارك في أفراحه وأمانيه ونلتزم بمشاقه وآلامه.

فالمؤلف يكتب عن مجتمع عاش فيه وجرب نظام حياته عندما كان مدرسًا في بادية السودان. ولذا جاء ما كتبه وصفًا أمينًا ليوميات الحياة القبلية التي استطاع بما لديه من روح البحث العلمي أن يؤكد لنا صلتها الوثيقة بحياة البادية العربية منذ عهد الفروسية ومعلقات الشعر.

قلم فذ، صادق التعبير، يتخذ دليله في أعمق الإشارات وأبسطها، فيقودنا لنشعر مع صاحبه برغبة في كشف الغوامض والرموز منذ اليوم الأول الذي حل فيه بين أبناء الكبابيش.

فهو كتاب بحق يعتبر مرجعًا فريدًا ونادرًا لأولئك الذين يبحثون عن السمات الأصيلة في المجتمع البدوي العربي قبل أن تغزوه الآلة والسيارة والمذياع.

الناشر

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت